قاسم مسعد عليوة

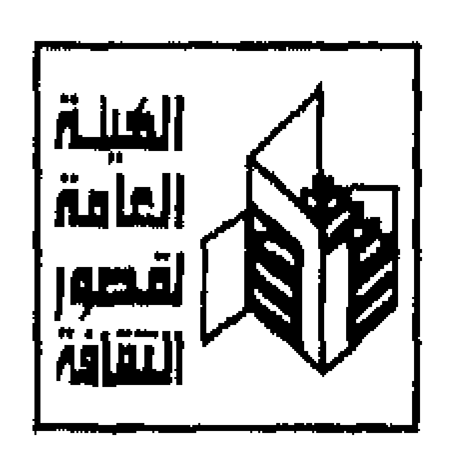
هائم

الهيئة العامة لقصور الثقافة

هـانـم

رواية

قاسم مسعد عليوة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. سيد خطاب

أمين عام النشر

محمد أبو المجد

مدير عام النشر

ابتهال العسلى

الإشراف الفنى

د. خالد سرور

• هانم
• قاسم مسعد عليوة
• تصميم الغلاف: د. خالد سرور

هذه الطبعة 2014م

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• رقم الإيداع: ٢٥٤٩٤/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-92-0018-7
• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096

المتابعة والتنفيذ

السعيد المصرى


هانم

إلـــى هانم قاسم محمد إبراهيم.. أمي

وإلى أم الأمهات.. "مِصـــــــر" .

أمي.. وطني.. حياتي

بعض من السيرة العطرة..

(عمود أُســـرة، قصةُ مدينة، وتاريخُ وطن)

(١)
علاقـــتي بأمـــــــــي

حَمَلَتْنى. وَلَدَتْنى ورَبـــّتْـــنى.

هذا أمرٌ طبيعى.

كل الأمهات يفعلْنَ هذا..

لكنّ أمّي جمعتْ إلى كونها أمى بين صِفتين أُخريَيْن، وَلْيَبْتسم مَن يقـــرأ هذه السطور، فهى أيضاً ابْنَتى، ذلك أنها بعد أن اتفقـــتْ وأبي علـــى تســـــــميتى بـــ "فيصل" تيمُّنًا باسم الأمير العراقى فيصل"، الـــذى صار بعد مولدي بنحو ثماني سنوات أى فى العـــام ١٩٥٣م.. الملـــكَ فيصل الثانى، بعد هذا الاتفاق عادًا فأسمياني باسم جَدّى لأمى الـــذى غادر دنيانا وهو بعد فى الخامسة والعشرين من عمره، ومِن ثم لم يغبْ عنها طيف أبيها، ومن بين أبنائها التسعة كنتُ الأكثرَ التصاقاً بها، ومنذ سن البلوغ سعيتُ إلى تضفير مشاعر البُنوّة بمشاعر الأُبـــوّة؛ فـــأفلح أحياناً وأخفق أحايين.

هذا أمر عاديّ أيضاً، فما أكثر مَن أُطلقت عليهم أسماء أجدادهم لأمهاتهم، وما أكثر أبناء شرقنا الأوسط الذين حاولوا اقتناص صفات

الأبوة فى تعاملهم مع أمهاقم وأخواقم، لكن الأمر مع أمي جِدٌّ مختلف، إذ جمعت بالإضافة إلى كوهُا أمي وابنتي صفةً أخرى لا يمكن نُكرانهـــا، فهى أختى.. أيْ والله أختي.. أختي فعليـــاً لا افتراضـــياً.. أخـــتي في الرضاع..

فقد حدث بعد أن فطمتنى أن اصطحبها أبي وسافرا لشأن ما، وتركانى وأخى الأكبر مع جدتى لأمى.. جدتى التى هى من أعظم إناث الدنيا.. وحدث أننى مع هذه المرأة العظيمة بكيتُ كما لم أبك من قبل أو مـــن بعد فطامى، بكيتُ كما لم يبك طفل فى مثل سنى، ورفضتُ كـــل مـــا بذلته من جهود لإسكاتى، وأضربتُ عن تناول أية أطعمـــة صُـــلبة أو طرية أو مهروسة أو حتى سائلة مؤثراً الاستمرار فى البكاء حتى خشيَتْ أن يصيبنى مكروه كأن يحدث لى "فتاق" مثلاً أو"تبوظ" حنجرتـــى أو يتوقف قلبى عن الخفقان.

فجأة حدثت المعجزة.. صَدرُها "حنّ" وتدفق اللبن هادرًا دافئًا إلى ثدييها الضامرين، وهى تحتضننى لإسكاتى، وإذا بى ألـــتقم حلمتيْهـــا وأرضع منهما أكثر من خمس رضعات مشبعات.. رضـــعات روتـــنى وكفتنى وأشبعتنى.

وإزاء هذه المعجزة، ورؤيتها لملامح الرضا والهناءة مرتسمةً علـــى وجهى لم تملك جدتى لأمى "بدر على خميس" إلا أن تستمر فى إرضاعى حتى عودة أمى وأبى. وبذا أصبحتُ أخًا لأمي..

فهل جَمعتْ أمٌ فى هذه الدنيا بين الأمومة والبنــوة والأخــوة فى علاقتها مع ابن لها.. مثل هذه الأم.. أمي؟..

هل أمكن لمخلوق على هذه الأرض أن يكون مثلى ابنًا لأمّه وأبًا لها وأخًا فى نفس الآن؟!..

رحمةُ الله عليك يا أمي.

(٢)
أمي المتعلمة متمسّكةٌ بكل ما هو شعبيّ

كانت أمي امرأةً متعلّمة، وكانت تُدَرِّس دروسًا ما فى مدارسَ ما، إمرأة "سبور" ترتدى الملابس على الموضة، وتنتعل الكعب العالى انتعالها للـ"فلات" و"الجزم أم رقبة" و"اللى بنص رقبة"، وكانت تستخدم ككل الستات "الذوات" الجواربَ النايْلون، جوارب من كل نوع ولون: الشفافة والثخينة، السادة و"الشبيكة"، المشجرة و"أم وردة"، ولازمت هذه الجوارب بطبيعة الحال أربطتها القماشية ومشابكها و"أساتكها"؛ وما أكثر ما كانت ترسلنى لأشترى لها شِباك و"بنَس الشعر" الملونة بألوان تتناسب وألوان البلوزات والجونلات والبلوفرات والتاييرات والفساتين. دولابها كان عامراً بهذه الملابس. البلوزات كان منها "أبو فتحة مقورة" و"أبو فتحة مضمومة"؛ والبلوفرات فيها "الهاى كول" و"الشورت كول"؛ ومن الجونلات "الأبلسير" و"الهاى ويست" والـ"لوُ ويست"؛ وكانت فى الدولاب فساتين سواريه كثيرة منها "الچبانيسى" والـ"ألافرنكا"؛ وعقب كل حمل ووضع كانت تستعمل

الـ"كورسيه"؛ ومع هذا كله كانت تحتفظ بـ"الملاية اللف" و"البرقع" و"القصبة الدهب".

كانت امرأة عصرية مستمسكة بكل ما هو شعبي؛ وحكاياها هي وجدتي.. كانت هي الزاد الذى اغتذت عليه مُخيّلتي. بشغف الدنيا كلها كانت هذه المُخيلة الغضة تلتهم ما تحكيانه لي عن مغامرات علي الزيبق والأميرة ذات الهمة والسندباد البحرى والسندباد البرى والشاطر حسن. الأخير كان يستوقفنى بإخلاصه فيما يفعل من أجل الفوز بقلب ويد الأميرة التى يتغير اسمها مع كل مَرَّة حكى، فمَرَّة هى بدر البدور وثانية هى ست الحُسن والجمال وثالثة هى شمس النهار ورابعة هى قوت القلوب.. وهكذا دون أن تفرغ قِربة الحكايات التى يسقيانني منها. كانت هذه القِربة ملآنة دوماً. أشربُ منها وأطلب المزيد، حتى دخلت فى خلاياى وتحوصلت فى چيناتى، وصرتُ مقتنعاً بأن العثور على مصباح علاء الدين، والدرفيل الذى يلتهم كل خواتم الغرقى فى بحثه عن خاتم سليمان، وباب مغارة على بابا هى السبل المثلى لتحقيق كل ما هو عصى من أمنياتى وخيالاتى.

كان أبي ينقدني أثمان مجلات الأطفال المصورة والكتب ويشجعنى على القراءة، أما أمي فكانت تسألني عما خرجتُ به من قراءاتى.. تتابعنى وتوجهنى.. تقول لى: احكِ؛ فأحكى حتى صرتُ حكاءً وأنا بعد فى سني المراهقة.

تدخلتْ لدى أبي ليخصص لى غرفة أستقل فيها بسريرى ومكتبى وكتبى، فصارت لى فى البيت صومعة، فيها أقــرأ وأكتــب وأحــاور أفكارى وأفكار الآخرين، وفيها أتبتل للواحد الديان أن يرضى عــنى وعن والدىّ وجدتىّ، أما سطح عمارتنا المحتشد بالدواجن وغيرها من أشياء فكان مرصدى للكون الفــاره العجيــب، المحتشــد بــالنجوم والكواكب والنيازك بالليل.. المفعم بالألق وضوضاء الحياة بالنهار.

لرب المعارف والآداب كنت أتبتل ليلى ونهارى.. وأحمده على أنه أكرمنى بأبوين وجدتين وإخوة فى عائلــة متحابــة محمــودة الســيرة والسمعة. كنت أقلب فيما حصلته من مشاهد الحياة وما لقنتــــنيه كل من جدتى لأمى وأمى من مآثرهما.

أمى كانت سيدة عظيمة.

العادات والتقاليد الشعبية عندها مطوعــة فى غالبــها لتتوافــق ومقتضيات العصر، منها ما ترتضيه كما هو، ومنها ما تُعدّل فيه، ومنها ما ترفضه بكليته. صحيح أن كثير هذه العادات والتقاليــد متواشــج والدين لكن حتى هذا المتواشج والدين منصهرٌ فى أتون الحياة، ومنــذ حداثة سنّى صار لدى اعتقاد راسخ بأن جدتى لأمى هى زارعة هــذه العادات والتقاليد فى بيتنا. فى أمى أولاً، ثم فينا ثانياً.

مما كانت ترتضيه أمى من العادات والتقاليد، وتطبقه كما هــو، عادة رمى السِن المخلوعة عند تبديل أسنان أولادها ــ أنا وأخوتى ــ فى عين الشمس. كانت تدعو الواحد منا إلى تطويح سِنته المخلوعــة

باتجاه الشمس بـــ"عَزم قوته"، فإن كانت تخص واحـــدة مـــن أختيّ الصغيرتين قالت:

"يا شمس يا شموسة.. خدى سِنة الجاموسة.. وهاتى سِنة العروسة".

وإذا كانت السِن تخصنى أو أى من إخوتى الذكور قالت:

"يا شمس يا شموسة.. خدى سِنة الودع.. وهاتى سِنة الجَدَع".

كانت هذه العادة تطمئننا على مستقبل أسناننا، وتلهينا عما نحس به من وجع التبديل.

من العادات التى كانت أمى تأخذ بها كما هى، عادة تبخير البيت بالبخور نفّاذ العطر، خصوصاً وقت صلاة الجمعـــة. منـــه البخـــور الـــ"جاوى" والبخور الهندى. أكثره سائب وقليله مُصمّغ إلى أعـــواد رفيعة أو مُشكّل على هيئة هرم. أمى كانت تقول:

"البخور ريحته جميلة وما بتضرش. بتطهر الجو من الجراثيم، وكمان الحسد مذكور فى القرآن".

من البخور السائب ما أكد لى معلومة أن أغلبه مستخلص مـــن خشب الشجر، وكنتُ أعجب لأنه توجد فى الدنيا أماكن تنبت فيهـــا أشجار ذكية الرائحة لهذه الدرجة، وكم تمنيتُ أن ألهو وأتقافز فـــوق، وأنام تحت، الأشجار التى يؤخذ منها هذا البخور، وكم كانت صدمتى فيما بعد حينما رأيت بعضاً ممن نشتريه منهم يسكب عطراً على نشارة خشب عادية مجلوبة من دكاكين النجارين.

مما كان يلفت انتباهى فى البخور تراب اللبان الذى علمت أنه مسحوق دموع الشجر بعد أن تجف، والشبَّة الشفافة التى كانت أمى تداوى بها الجروح أحياناً، والفاسوخ وهو قطع لينة لونها بنى ضارب إلى السواد أحياناً عادة ما يدخل فى مكونات الأحجبة، وعين العفريت وهى حبات حمراء لامعة بها بقع سوداء. خليط مدهش يُحدِثُ ـ عند وضعه فوق "الردادة" الموضوعة على بابور الجاز ـ فرقعاتٍ وأشكالاً وأدخنة مثيرة.

فى بواكير أيامى كانت أمى ترقينا بالبخور المشتعل، تمرره من فوقنا وتحيط أجسادنا به، وتجعل الواحد منا يمر من فوقه وتقول هى أو جدتى:

"الأوِّلَهْ بِسْمْ اللهْ

والتَانيَةْ بِسْمْ اللهْ

والتَالتَهْ رَقْوِة مَحَمَدْ ابْنْ عَبْدْ اللهْ..

رَقِيتَكْ واسْتَرْقيتَكْ

مِنْ عِيونْ اللِّى شَافُوكْ

ولا صَلُّوشْ عَ النَبِى ..

رَقِيتَكْ مِنْ عِينْ أمَّكْ

ومِنْ عِينْ أبُوكْ

ومَنْ عِينْ جـــدِّتـــَكْ ..

واختك..

وأخـــوُكْ.

ومِنْ عِيُوُنْ كـــُلّ اللّى شـــَافـــَكْ

ولا صَلاّشْ عَ الـــنْـــبَـــِى".

وفى بواكير أيامى أيضاً كانت تصنع العرائس الورقيـــة وتخزهـــا بالإبرة وتردد ذات الرقية، أو تُعدّل فيها، قبل أن تشعلها مع البخور أو بدونه، وغالباً ما يكون ذلك مع البخور.

البخور أيضاً ارتبط بيوم عاشوراء، كانت أمـــى تـــدعو بائعـــة العاشورة العجوز ذات الصوت الأجش لدخول البيت لتضـــع عـــن رأسها صينية مستديرة مرصوصة فوقها أكوام البخور والشيح وتراب اللبان والملح الملون بالأحمر والأصفر والأزرق. الألوان فاقعـــة جـــداً ورص الأكوام بديع، وبأصابع مدربة تأخذ العجوز فى حشـــد الطبـــق الذى تقدمه أمى بالقليل من كل كومة وهى تلهج بـــذكر "الحســـن" و"الحسين" رضى الله عنهما، وترطن بِرُقًى وتعاويذ ضد الحسد والعين "اللى فلقت الحجر نُصّين"، فإذا بالطبق مملوء حتى آخره، المهـــم أنهـــا عندما كانت تهم بالانتقال إلينا كى "ترقينا" أنا وإخوتى كانـــت أمـــى ترفض هذا رفضا جميلاً، لأن الرقية "بتاعتنا" مـــن اختصاصـــها هـــى واختصاص جدتنا.

عندما ترقي أمنا كل واحد منا ـــ نحن أولادها ـــ كانت بعـــد أن تقول كلاماً يتكرر فيه اسما "الحسن" و"الحسين" رضى الله عنهما، تتلو الرقية الشرعية بطريقتها:

"بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك. من شر عين كل حاســد ربنا يحميك. بسم الله أرقيك. بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر كل عين شافتك ولا صلتش على النبى. أعوذ بكلمـــات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة".

أما جدتى لأمى فقد كانت تضيف إلى هذه الرقية جمـــلاً مبهجـــة وجاذبة للأسماع على قدر ما بها من غرابة، فكانت تقول:

".. بارقيك من عين البنت، اللى أحمى من الخُشتْ، ومن عين المَرَة اللى أحمى من الشرشرة، ومن عين الولد اللى أقوى من الزرد، ومـــن عين الراجل اللى أحَدّ من المناجل... وبخرت السلالم من عين أم سالم، وبخرت الكرسى من عين أم مرسي، وبخـــرت اللحـــاف مـــن وجـــع الأكتاف.."..

مع إن سلم بيتنا لم تصعده امرأة اسمها أم سالم قـــط، ولم نعـــرف شخصًا اسمه مرسى سوى مرسى بائع الكرشة الذى لم يتخطّ باب بيتنا قط، ولم يحدث أن شاهدنا أمه على الإطلاق.

كل ما كان يأتي بمخيلتها كانت تقوله فى كلام مسجوع. لم أكن أعرف معنى كلمة "خُشْتْ" إلى أن قرأت بالمصادفة أنها لفظة فارســـية

تعنى "الحربة"، وبالمصادفة أيضاً اكتشفت أن جدات أصدقائى وأمهاهم يقلن عندما يرقينهم معظم الجمل التى تقولها جدتى وأحياناً بالحرف.

إنه إذن الموروث.

غير البخور كانت أمى تصنع لنا فى هذا اليوم ـ يوم عاشوراء ـ طبق عاشورة اللذيذ الذى يشبه المهلبية، إلا أن به قمحاً مقشوراً ومرشوشاً عليه بَشر جوز الهند وحبات من الزبيب، وفى هذا اليوم نأكل زفراً، يكون فى الغالب ذكر بط أو إوزة كبيرة.

الطقوس المصاحبة لإطلاق رائحة البخور تلاشت مع الأيام، إلا أن البخور ظل يُطلق فى البيت لطرد روائح الأسماك والروائح غير المرغوبة.

لم تؤمن أمى بقياس "الأتر"، أو بفتح "المندل"، او بفتح "الكِتاب". كانت تَصُدُّ مَنْ يُكلِّمْنها عن فوائد هذه الأمور وعن مهارات من يقومون بها؛ وأبداً لم تلجأ إلى السحرة والدجالين والمشعوذين طلباً لحماية، أو كشفاً لسرقة، أو علاجاً لمرض، أو سعياً لتوسعة رزق أبى، أو رجاء نجاحنا أنا وإخوتى فى الامتحانات؛ وإذا كانت ترفض اللجوء إلى هؤلاء لقضاء الأمور الخيِّرة فهل تلجأ إليهم لإيقاع الأذى بالغير؟..

أبداً لم تفعل أمى هذا ولا ذاك.

لم تضع فى رقابنا الخرز الأزرق، ولا قرون الشطة الحمراء، ولا الخمسة وخميسة، ولا الأحجبة، ولا الفاسوخة، لتقينا من شرور عيون

الحاسدين والحاسدات، لكنها كانت ترفع كفها اليمنى وتشد أصابعها الخمسة وتقول فيما يشبه التمتمة:

"الله أكبر.. الشر بره وبعيد".

أيضاً لم تكن تؤمن بالعفاريت، وكانت تقول:

"ما عفريت إلا بنى آدم".

طبخت لنا أمنا يوماً ملوخية بالأرانب، فقلت لها "أنا مش هاكل أرانب" لّما سألتنى عن السبب؛ سألتها بدورى لكن مستنكراً:

"إزاى آكل عفاريت يا ماما؟".

وحكيت لها ما حكاه لى "بكير" زميلى فى المدرسة الابتدائية عن أمه التى قالت له:

"خاله اللى فى بلاد الفلاحين شاف شوية أرانب بتتنطط حواليه فأخدهم فى حِجر جلابيته وراح البيت علشان يدبحهم وياكلهم.. بيفرد حِجر جلابيته فى البيت ماالتلقاش غير شوية طوب".

ردت أمى بثلاث كلمات لا غير:

"ده اسمه تخريف"..

وقادتنى إلى الطبلية. أكلتْ وأجبرتنى على أكل العفاريت، وكان طعمها لذيذاً.

موقف أمى من العفاريت جعلنى أكذّب كل الروايات التى تروى لى عنها، ومنها الرجل الذى خاف وفر هارباً من عفريت فى هيئة شيخ

اكتشف أن ساقيْه سَاقَا عَنْزةٍ. فى الطريق قابل شـيخاً وقـوراً سـأله "بتجرى ليه؟"، فقال له "أصل أنا شفت عفريت لابس شيخ ورجليـه رجلين معيز"، فطبطب عليه الشيخ الوقور وقـال لـه: "زى دول؟" وكشف له عن ساقيه فإذا هما ساقا عنْزة!

غير أن إيمانى بما آمنت به أمى بشأن العفاريت تبدد تماماً وأنا أرى بعينيّ الاثنتين مَن كنتُ أظنه خادمَ المسجد يرفع ابتهالاته قبيـل آذان الفجر، فقد استيقظت من نومي وفتحت نافذة حجرتـى لأراه وهـو يبتهل، فإذا بى أرى شبحاً يرتدى الأبيض ويمشى أسفل النافذة بلا رأس أو كفين أو قدمين.. مجرد جلباب أبيض يمشى وحده فى هدأة وظـلام السَحَر. دهمنى خوف شديد واعترتنى ارتعاده قوية. خشيت من إفزاع من فى البيت فأضأتُ النور وظللت حتى الصباح. شاهدتْ أمى شحوبى وبلبلتى ولمّا عرفت الحكاية ابتسمتْ:

"يا عبيط.. هو فيه عفريت حايصحّى الناس لصلاة الفجر؟".

عند سَحَر اليوم التالى، بينما أترقب ظهور العفريت، ظهرت أمى فى حجرتى مع ظهور العفريت وارتفاع صوت ابتهالاته. قالت لى:

"بص ودقق.. ده عم جعفر بيصحى الناس للصلاة.. دماغه وإيده ورجليه مش باينين علشان الفانوس اللى عند بيـت عبـده وِتْ وِتْ مطفى".

ومع أنها كانت تؤمن بأنه "ما عفريت إلا بنى آدم"، وربما بسبب هذا الإيمان كانت تنهانا عن الاقتراب من القطط بقصد إيذائها، وتنهانا عن دخول الحمام وَنُورُهُ مُطْفَأٌ، ولا تسمح بوضع الأحذية والشباشب والقباقيب مقلوبة، ولا تَنْهَى جدتى عن وضع إبرة الخياطة فى المقشة لكى ينصرف الضيف الثقيل.

ما أكثر المرات التى أشارت فيها الجارات والقريبات على أمى، ودعّمتهن جدتى، بالذهاب بالمريض منا إلى الشيخ فلان أو الشيخ علان ليبرئه مما هو فيه، فهذا الشيخ سره باتع، وذاك مكشوف عنه الحجاب، وهذا قرأ على الماء الذى شربه المحسود فزال أثر الحسد، وذاك كشف العمل المدفون فأبطل العكوسات.. وهكذا؛ لكن أمى ظلت ترفض الاستجابة لمثل هذه الإشارات رفضاً مطلقاً.

من العادات والتقاليد التى كانت سائدة فى أيامى الأولى عادة وضع الطفل المريض فى مشنة والسير به فى الشوارع والشحاذة عليه بنداءات من نوع "حسنة يا أم مرسى، خللى المكسح يمشى". أمى رفضت هذه العادة، ورأت فيها جهلاً من الأسر المدقعة، وقلة قيمة من الأسر الموسرة، أما إذا بدرت من الأسر التى تحترف الشحاذة فهو مسلك مشين مهين لآدمية طفلهم، مريضاً كان أم غير مريض، وطبقت هذا عملياً معنا جميعاً، فالطبيب هو المعالج والشافى هو الله.

غير أنه حدث، حينما كنتُ فى اللفة، أن أصبتُ بتمغُّص شديد لم

ينفع معه شراب الكراوية والينسون وماء غريب، ولم تـسُجْدِ أرجحــة أمي لى على الملاءات لأخرج ما بطنى من غــازات، أو لإصــلاح أى التواء فى جسمى الغض إن كان فيه غازات أو التــواءات. كنــت إذ أتمغص يَزْرَّقُ جلدى وآتى بحركات تشى بصعوبة التقاطى لأنفاســى، كعادتها ذهبت بى إلى الفارمشية وإلى طبيب خاص، لكــن الأدويــة لم تــُجْد نفعًا، فقامت بما أشارتْ عليها به جدتى. قالت لى إنهــا علــى مضض ذهبت بى إلى السلخانة وخطت بى فوق ثور يذبح، وإذ يشخب الدم من رقبة الثور ويجأر صوته جأرة وداع الحياة سمعته أمــى كأنــه يقول: " يا رءوف.. يا رءوف"، فأملت أن يشفينى الله، فشفانى.

حدث مع أخى الأكبر "عليّ" ما هو أعجب وأغرب، فقد انتزعته جدتى لأبى وأقاربها عنوة، وأجلسوه فوق ظهر حمار بالمقلوب ووضعوا فوق رأسه تاجاً من ريش، وطافوا به الشوارع القريبة فى تجريسة قوامها الأطفال الذين أخذوا يهتفون:

"يا أبو الريش إن شا لله تعيش.. ونجيب لك عيش قراميش"..

ثم أخذوه وشرَّطوا صدغيه ودقوهما بالدق الأخضر كــى يكــون صحيح البدن ويعيش. وظلت أمى تعلن عن عدم رضاها وغضبها من جدتى لأبى بسبب هذه الفعلة.

أبداً لم تعتقد أمى فى الزار أو فى جدواه، ولم تسمح بأن تــُدق فى منزلنا دَقــّة زار واحدة، بينما شــاهدتُ فى بيــت جــدتى لأبى زاراً

مكتملاً. رأيته حينما أرسلتنى أمى إليها بطعام كثير فيـــه لحـــم وأرز وفطائر. أقيم الزار ليومين متتالين. لم أدخل بيت جدتى وقت إقامة الزار وإنما ظللت أتفرج من الباب. رأيت الكودية سوداء البشرة وقـــارعى الطبل وعازف الطنبورة والنسوة المترنحات والكرسيَّ المُزيَّن بالشموع والتـــُل الأبيض، ورأيتُ الديك ذا الريش الأحمر فى أبيض الذى ذبحته الكودية، وشممتُ رائحة البخور النفاذة ورأيتُ أدخنته غماماً يغطى كل ما فى البيت من ناس وأشياء. فى هذين اليومين لم أتمكن مـــن تســـليم الأكل لجدتى، فسلمته لسيدة من السيدات. جدتى لأبى كانت ترتدى ثوباً أبيض وطرحة بيضاء على غير العادة. لطختها الكودية بدم الديك لمّا ذبحته. أكل اليوم الثانى الذى حملته كان فطيراً وأرزاً بـــاللبن. أمـــى كانت ترسلنى وهى مغتاظة مما يحدث فى بيت جدتى لأبى.. كنتُ أذهب كل يوم مرتين حتى أتمكن من نقل الأكل الذى يكفى المتطوحين. كانت مغتاظة لأنها لا تؤمن بالزار، ولأن الزار ما أقيم إلا لأن جدتى مريضة بالروماتيزم الذى لا تشفى منه، ولأنها ــ أي أمى ــ تضطر فى هـــذين اليومين إلى إطعام جيش من الدجّالين.

(٣)
أمي جابرةُ الخواطر

زرعتْ فيّ وفي أخوتي خِلة جبر الخاطر. ما دخلتْ بيتنا طالبةُ حاجة من الجارات أو القريبات، أو أرسلتْ ابنها أو ابنتها إلينا، إلا خرجت منه هي أو المرسال بما طلبتْ، من حفنة الملح والفلفل وفصوص الثوم و"راس العبد" والـ"هُوُن" و"بخّاخة الفليت" حتى الماجور وعدة الكعك وماكينة البسكويت والأطباق الصيني وكراسي السفرة.

إنْ دخلت الـ"بلاّنة" بيتنا لم تخرج منه إلا متخلية عن نصف ما في بقجتها تقريبا، فليس من بين زبائنها أفضل ولا أكرم من "أم على" ـــ أمي ـــ جابرة الخواطر، وما إن تخرج راضية مرضية بعد ما تدس ما "أخدته من فلوس أمي في "جُزلانها" حتى تركبني وإخوتي شياطين الدنيا؛ فنروح نبعثر ونفرد ونؤرجح ما تركته البلانة من ستائر وملاءات أسِرَّة وبيِّاضات كنب وبفتة للتنجيد، وأقمشة كريب وكشمير وجوخ وحرير هندى وحرير سورى وكستور للشتاء وباتستا ورمش عين للصيف؛ ولفّات خيوط الـ"چانچاه" والـ"لعلاع"، و"بَكَر" و"صوابع" خيوط الـ"سراجة".

وإنْ مَرّت بائعة "القُرَط" بشارعنا وطرقت بابنا، وعادة لا تمر بـه إلا لتطرقه، اشترت أمي القـُرَط بالدستة، إشي تركواز وإشي چانچاه وإشي دم الغزال وأحياناً بَصَلي وفستقي وعنبرى، تشتريه سواء كـان مشغولاً بالآچور والترتر والبيرة أو غير مشغول، وكنا نعلم أنها لـن تحتفظ بما تشتريه.

فـ"القـَرْطة دى للبت نوسة، والقرطة دى للبت فوقيـة، ودى لنجية، ودى لأم عبده". نفس الأمر كانت تفعله مع بائعة "العـيش البيتى"، والبدوية التى تشترى منها بخور وملح "عاشـورا"، ومرسـى "بياع الكروشة"، وعوضين "بياع القشطة".

أما "الداية" أو القابلة فإن دخولها بيتنا، وهى تدخله أكثر من مرة قبل ومع كل واقعة ميلاد، وسواء ناديناها من بيتها فجاءت سائرة على قدميها، كالست "مريم المصرية"، أو استدعيناها مـن المستوصـف، فجاءت راكبة الحنطور، فإنها تعلم علم اليقين أنها لن تخرج من بيـت الست "أم علىَ" مجبورة الخاطر فقط، وإنما سـتخرج غانمـة أيضـاً بالـ"كوم الجازى".

كذلك حال الرجال الذين يصلحون أشياء البيت. عندما تنـادى أمى من الشباك على واحد منهم يقف عند باب العمـارة تحـت ولا يصعد إلى أىَ طابق؛ وكذلك مَن يأتون مِن تلقاء أنفسهم، أو ترسل هى أحدنا ليناديه من محله؛ أو أولئك الذين يرسلون صبيانهم بالأشياء التى

سبق أن أرسلناها إليهم. تشد لهم "سُقاطة" الباب فينتفتح لنهبط إليهم ـــ أنا أو أحد من إخوتى ـــ نعطيهم الأشياء المطلـــوب إصـــلاحها، ونصعد بما تم إصلاحه لنهبط إليهم بما يرضيهم وزيادة.

ممن كانت أمى تناديهم حامل حجر الـــ"تجليخ" الدوار مثير الشرر الذى ينادى"أَسِنّ السكينة.. أسِنّ المقص"؛ وممن يـــأتون مـــن تلقـــاء أنفسهم باعة: اللبن والقشدة والزبادى. يأتون يومياً بناءً على اتفـــاق مسبق ويأخذون أثمان ما نأخذه منهم فورياً؛ وممن ترســـلنا لننـــاديهم الأسطى "يوسف" السمكرى الذى يأتينا بعدته ليصلح بوابير الجاز أو يلحم صفائح السردين المملح، وممن يرسلون صبيانهم بالأشياء الـــتى سبق إرسالها إليهم المكوجى ومبيض النحاس. كل هؤلاء لا ينصرفون من أمام باب بيتنا إلا راضين ومجبورى الخواطر.

كل هؤلاء كنا نلتقيهم تحت عند باب الشارع .

لم يكن يدخل بيتَنا رجالٌ من أهل الحرف سوى الـــمُزيِّنِ وصَبِيِّهِ عند "طهور" أحد إخوتى، أو المُنجِّد وصَبِيِّهِ عن تجديد الفـــرش أو فى مناسبات الزواج. الـــمُزيِّنِ لا يدخل بيتنا إلا لوظيفة محددة (قد جـــاء ذكره ووظيفته التى يؤديها فى بيتنا فى موضع آخر)، أما المنجد فله شأن وأى شأن. تُخلى له أمى إحدى الحجرات فلا يكون فيها سوى "كليم" والمراتب والمخدات والـــ"خُداديات" والألحفة والـــ"مَسَانِد" وأقمشة التنجيد الجديدة من كتان ودَمُّور وبَفْتَة للكسوة الداخلية، والأقمشـــة المشجرة والمقصبة والستان والتفتا والتُّل للكسوات الخارجية؛ يدخلها

المنجد عندما يأتى هو وصَبِيُّهُ ومعهما القوس والمَدَقــّة والكُسْتـــُبَان والإبر والمسلات و"شِلَل" خيط الــ"لعلاع" والحرير والــ"عصــاية". أهم ما فى القوس الوتر الذى يدق عليه القطن ويضربه بالمدقة، تلــك الكتلة الخشبية المصمتة الثقيلة ذات المقبض. عند الضرب بالمدقة تتطاير ندف القطن وشعيراته لتسقط على الــ"كليم" هشة نظيفة ولامعــة. الــ"عصاية" رفيعة من الزان الأملس مهمتها الضرب على القطن المُراد تنجيده لــ"مَزّه" وتفكيكه عن بعضه البعض وتيسير فصل الشــوائب وبذور القطن والفتائل شديدة الاتساخ والخيوط عنه، وهــى خطــوة سابقة على عملية الندف.

موسيقا شجية كان تشيع فى البيت وقت الندف؛ فهو يضرب، فى جلسة القرفصاء الغريبة التى يجلسها، على القوس كما لو كان يعزف على آلة "هَارْب"، لكن السِّحرَ كل السِّحر كان يكمــن فى طريقــة استخدامه للإبر والمسلات وخيوط الــ"لعلاع" والحرير والكُسْتـــُبَان الذى يتوج به إصبعه، فيا لها من براعة تلك التى كان يبديها ليس فقط عند تثبيت الحشو بالكسوة الداخلية، وإنما ـــ وهذا هو الأروع ـــ عند قيامه بعملية التطريز لا سيما الأحفة. بمهارة واقتــدار كــان يرســم بأصابعه وإبره على الأقمشة المشجرة وأقمشة الساتان والتفتا رســوماً آسرة فيها أقمار ونجوم وطواويس وقلوب داخل مستطيلات ومربعات ومثلثات ودوائر هندسية بديعة.

ما لم يكن هناك ما يستوجب التنجيد، كبلوغ أحد أخوتى السن التى يمتنع فيها عن التبول فى الفراش، فعادة ما يدخل المنجد وصبيه بيتنا فى الربيع لتخليص فَرْش البيت من رطوبة الشتاء، وهما لا يأتيانا مع كل حلول لفصل الربيع، وإنما يأتيان كلما طلبت أمى. حينما يأتيانا كنا نفرح ونزيط لأننا سننام بعد أن ينصرفا على مراتب جديدة وثيرة لينه، نغرق فيها ونغوص ونثب ونتنطط؛ وكانت أمى ترضيهما تمام الرضا فتفتح لهما الراديو، وتقدم لهما الشراب الساخن والشراب البارد، والطعام والفواكه، وتفتح لهما المروحة الكهربائية والنوافذ لئلا يتأثر صدراهما بالـ"زغبار"؛ وعند تقديمها الشراب والطعام كانت تعد لهما الـ"فَسَحَة" ليجلسا فيها حتى لا يختلط الـ"هَبْو" بما فى الأكواب والأطباق من نعيم الله؛ وكانت تزيد للأسطى المنجد فى الأجرة والصبى فى البقشيش، وتعطيهما أقمشة الفرْش القديمة على متانتها.

جبر أمى للخواطر تجاوز من نشترى منهم ،أو يقدمون للبيت الخدمات، إلى من لا يدخلونه أو يقفون على عتبته، فحتى عم حسن "السقا" الذى يأتى إلى شارعنا ثلاث مرات فى اليوم، فى الصباح الباكر، وبعد الظهر، وعند الغروب، دافعاً أو جاراً عربته البرميلية ذات الصنبور النحاسى اللامع، يسبقه أو يصحبه نداؤه التليد ذو المفردة الواحدة "ميه"، فتُرفع أغطية الأزيار فى البيوت التى ليس فيها مواسير

ولا حنفيات، ويطلب منه أصحاب المحلات رش الرصيف والأسفلت أمام محلاتهم طلباً للرزق أو ترطيباً للجو، فيحمل الصفائح إلى هذا البيت أو ذاك المحل أو تلك المقهى؛ ومع أننا فى غنى عن "مية" عم "حسن" لأن العمارة "المحندقة" التى بناها أبى، وقصرها علينا وحدنا، بها مواسير وحنفيات وأدشاش وعداد "تبع الكوبانية"، إلا أن أمى لا تنسى عم "حسن" فتعطيه "حَلوَان" نجاح كل منا فى المدرسة، مع أنه لا يطلبه، وتعطيه ملابسنا التى كبرنا عليها لمناسبتها لأولاده، وفى المواسم له أطباقه المخصوص، وفى العيدين له عيدية العيال أولاده.

وكانت ترسلنى بما يجود به البيت إلى "زوزو" بائعة النوجة والعسلية فى الشارع المجاور، و"أم بندق" بائعة الفجل والجرجير القابعة فى هامش سوق الخضار، و"عم جابر" صانع القباقيب الجالس إلى جوار حائط بسوق البلدية، و"عبد الهادى" الصُرَماتىّ الذى نعطيه الـ"جزمة" المقطوعة فيخيطها ويُرَكّب لها "نص نعل كاوتش" (من كاوتش السيارات) ويثبت فيها أكثر من حدوة ولوزة وحمصة حديد حتى لا تبلى بسرعة.

وإلى فقراء المساجد كانت ترسلنى بـ"فتة اللحمة" والـ"فول أبو عفن". إذا كانت فتة اللحمة معروفة بما تحتويه من "هُبَر" اللحم المسلوق والأرز والخبز المفتت والمرقة والخل والثوم، فإن "الفول أبو عفن" هو الفول المستخدم فى التدميس، أى حباته كاملة التكوين،

يُسلق ويُصفى وتضاف إليه التوابل وأهمها الفلفل الأسود والكمون ويوضع فى أرغفة العيش البلدى، وكانت له سمعة طيبة فى ذاك الزمان؛ وكانت توجهنى وإخوتى إلى الجيران والأقارب بأطباق "الكبيبة" وكفتة الجمبرى و"البصارة" و"الفـُطرة" وكعك العيد وبسكويته والـ"عاشورة" ومعنا جملة دبلوماسية "ماما بتقول لكم دوقوا عمايل إيديها".

وقبل هؤلاء كلهم وبعناية خاصة كانت تسلمنى يومياً ـــ أنا أو أحد إخوتى ـــ "عمود الأكل" لأنطلق به مسرعاً إلى جدتى لأبى قبل أن يبرد.

ومع كونها جابرة للخواطر، فإنها كانت تأنف من المنحرفين وأصحاب السمعة السيئة الذين تأكدت أنهم كذلك. من هؤلاء المنادى "أبو شحم" الذى كان أهالى الأطفال التائهين يستأجرونه لينادى عليهم ماشياً أو راكباً حنطوراً، معتمداً على حنجرته أو مستعينا بميكروفون. صوته غليظ أجش، ولعله هو السبب فى تسمية الأهالى له بأبى شحم. كانت نداءاته تشبه نداءات سائر المنادين إلا أن صوته هو الذى ميزه عنهم. حينما ينادى فإنه يحدد أوصاف من يناديه "بنت تايهة يا ولاد الحلال من امبارح.. لابسة جلابية خضرا وفى ودانها حلق حمصى"، "عيل تايه يا ولاد الحلال.. لابس بيجامة مقلمة وصندل بنى". سبب نفور أمى منه كونه حشاشاً ونصاباً، نصب على ناس كتير لما اشتغل كاتباً عمومياً يحرر العرائض ويعمل التوكيلات.

غير "أبي شحم" كان هناك "سيد سبرتو" ساكن بدروم العمارة المهدمة القريبة. كان يغش الخمور التي يصنعها بنفسه من السبرتو ومَنْقُوعِ البصل وبَوْلِهِ، ويضعه فى الزجاجات الفارغة التى يجمعها من الملاهى والبارات ويعيد تعبئتها وتشميع فوهاتها لتصبح كأنها أصلية ومعتقة. كانت أمي تطلق عليه "النجس" وتطلب منا عدم التلصص عليه فى مصنعه وعدم سرد حكاياته على مسمعيها.

بفضل أمي شهد بيتنا الكثير من جلسات الصلح بين نساء الأقارب والجيران، كانت أمي بالطبع هي واسطة العقد فى هذه الجلسات، وأغلبها ما كان ليعقد وأبي فى البيت، فأسرار الستات كثيرة وألسنتهن قد تطول كاشفة عن خبايا لا ينبغى لأبي أن يقف عليها. كانت ترضى هذه وتلك وتلوم هذه وتلك. تحكى عن شيء من هنا وآخر من هناك. تسرد حديثاً نبوياً أو تقرأ آية من القرآن. تضرب مثلاً بما كان من "فلانة" وآخر بما كان من "علانة". تتحدث عن خراب وتعمير البيوت، وعن "عِينين الرجالة الزايغة" و"النسوان المايصة"، وعن الصبر الجميل والعقل الذى هو زينة والضحكة "اللى بتحل مشاكل يا ما". ولا تنتهى الجلسة إلا وهن يقبلن رءوس بعضهن البعض و"يا دار ما دخلك شر؟.. يا دار ما دخلك شر"، ولايخرجن من بيتنا إلا وهُنَّ "زيّ السمن على العسل".

(٤)
أمي والأفراح

البيوت فى كل من حى العرب وحى المناخ ضيقة إن لم تكن ضيقة جداً، على العكس منها بيوت حى الإفرنج، لذا فإن أهـــالى الحيَّـيْن يقيمون أعراسهم فى الشوارع أو بالسطوح أو فى صالات الأفـــراح. المشكلة تكمن فى الترتيبات اللازمة لهذه الأعراس لأنها لا تقوم بغـــير قدر من الزحام تضيق به بيوت العرائس فى هذين الحيَّيْن، لذا فمن لديه عرس من أقاربنا لا يجد أفضل من بيت "سي مسعد" و"أم علـــى" ذى الطوابق الثلاثة مكاناً لإقامة هذه الترتيبات.

من الترتيبات التى شهدها بيتنا فى القديم، تحت رعاية أمي وجدتى لأمى، ما يتعلق بـــ"التـــحْفيف" ـــ أى نزع شعر العروس من جسمها ـــ فالعروس تأتى هى وأمها وسيدات العائلة وصـــديقات العـــروس، وتُستدعى "المحَفِّفَة" التى تأتى بزيوتها وعطورها وجفنتها المكتظة بتلك المادة المصنوعة من السكر والليمون لتحفِّفَ العروس فى الغرفة المغلقة التى لا يدخلها أحد سوى أمي وجدتى بالشاى والقهوة والشـــربات،

والأكل فى كثير من الأحيان، وفيها يكون الغناء والتصفيق وتطرقــع الضحكات.

ومن هذه الترتيبات كذلك يوم "الحِنــّة"، اليوم الــذى كانــت تمارس فيه تلك العادة. هو اليوم الذى يسبق يوم الدخلة، وفيه تــأتى العروس وأمها وأخواها البنات وصديقاها ونســاء الأســرة إلى ذات الحجرة المغلقة فى بيتنا، معهن الحنة والشموع والزيوت العطرة، وتكون الحِنّة "جاوى" أصلية، أو "بلدى" منخولة ومخدومة "مش من النــوع بتاع اليومين دول". لا يبالغن فى التحنية. كَفّا العروسِ وقــدماها ولا شيء أكثر، والنقوش بسيطة غير معقدة، ولا ألوان أخرى تدخل مــع الحِنّاء اللهم إلا الشاى المغلى كى تأخذ الحناء لوناً أغمق. تقوم بالنقش واحدة ذات أصابع مدربة وذائقة فنية عالية. تضع نقوشــاً نباتيــة فى الغالب، هندسية أحياناً، على ظاهر الكفين والقدمين، أما بواطن الكفين والقدمين فلها الغمر بالحناء؛ وقد تأخذ صديقات العروس قطعاً مــن الحناء كهدايا رمزية، ومنهن من تُحنّى كفيها أو قدميها أو كليهما معاً فى نفس اليوم.

فى يوم "التحفيف" يكون الصخب وتكون الهيصة وينطلق الغنــاء ويستمر الرقص ويلتهب التصفيق إلى وقت متأخرمن الليل، وتمنعنا أمنا ـــ نحن أولادها الذكور ـــ من الاقتراب من الحجرة فنبتعــد لنعــود ونتلصص. كذلك الأمر فى يوم "الحِنــّة".

من الأغنيات التى ترددها البنات والنسوة وهن يتحلقن العـــروس "يا حنة يا حنة يا حنة.. يا قطر الندى"، "الليله الحنه.. وبكره الدخله.. وبعده الصباحية"، "دقوا المزاهر.. يا أهل البيت تعالوا"، "كتبوا كتابك يا نقاوة عينى"، وفيما بعد بِـــتْنَ يُردِّدن أغنية مها صبرى "ما تزوقينى يا ماما.. قوام يا ماما" وغيرها، ولا مانع من الإشـــادة بـــالعريس غـــير الموجود بأغانٍ من نوع "مبروك عليكِ.. عريسك الخفة.. يا عروســـة" و"يا طبق بنور يا سيد العرسان.. يا قمر ومنور على الخلان". هذا عن الأغانى المحتشمة، أما الأغانى غير المحتشمة فكثير، لعل أخفها "ادحرج واجري.. يا رُمان، وتعال على حجرى.. يا رمان، أنا حجرى حنين.. يا رمان، ياخدك ويميِّل.. يا رمان، أنا حجرى شديد.. يا رمان، ياخدك لبعيد.. يا رمان".. وهكذا.

وما كان ممكناً لنا إلا أن نتلصص عليهن؛ وذات تلصيصةٍ تحـــتُ جدتى تزغرد وأمى المحتشمة الوقورة تصفق وتغنى معهن.

فوق السطح، أو داخل شادر ينصب خصيصاً فى الشارع، يقـــوم أهل العروس بتنجيد فرش بيت الزوجية. يتم هذا قبل الزفاف بأسبوع على الأقل. يؤتى بالقطن الجديد والأقمشة المتنوعة ما بين دمور وكتان وبفتة وساتان وتفتا، ويحضر المنجد بقوسه ومدقته وخيوطـــه وإبـــره، ويفتح الراديو قبل أن تجتمع سيدات وصديقات وجارات الأســـرتين فيبدأن فى الغناء و"رقع" الزغاريد؛ والتنجيد مناسبة لإظهار التكافـــل

الاجتماعي بين الأقارب والجيران وأهل الحي من خلال النقوط الذي يمنح للأم بغير ما إعلان، وغير نقوط أم العروس هناك نقوط المنجد كـ"حَلَوان" ومحفز لتحسين الأداء. نقوط المنجد أقل بكثير من نقوط أم العروس. وما إن ينتهي المنجد من الحشو والتطريز حتى يكون قد توفر للعروس الفرش اللازم لدخلتها من مراتب ومخدات وخُدَّاديات وألحفة و"دُرَّابيات"، فتبدأ زفة جهاز العروسين ويُضَم ما أبدعه المنجد إلى أطقم الموبيليا والنجف والسجاجيد والستائر والراديو، والنملية ورشاقة الأطباق، وحِلل النحاس و"باستيلية" الغسيل، والطشت والماجور والهون ويده، ومتطلبات المطبخ من مواد غذائية وتوابل؛ وكذا الملابس والبشاكير والشماعات ومشابك الغسيل، ويُحَمَّل كل هذا فوق أكثر من عربة كارو أو أكثر من سيارة نقل؛ وتطوف الزفة بالشوارع قبل وصولها إلى سكن العروسين. مثلها مثل الجارات كانت أمي تحضر التنجيد وتقدم العربون للاثنين، وأحياناً قليلة كانت تسبق زفة جهاز العروسين وتصل إلى مسكنهما لتكون في استقبال الجهاز عند وصوله والمشاركة برأيها ويديها في ترتيبه بالمسكن بما لديها من خبرة وما تتمتع به من ذوق.

كل هذا يكون قبل يوم الزفاف، فإذا جاء هذا اليوم جاءت معه البهجة، وَصَحِبَهُ الصخب، ورُشَّ الشارعُ برمل البحر النظيف ورُسِمَتْ بنشارة الخشب الملونة على الأسفلت رسومٌ هندسية وزهورٌ

آية فى الجمال، وعَمَّتْ التبريكات، وكثرتْ الزغاريــد، وصــدحت الموسيقى، وظهرت البنات بالملابس القشيبة والزينة الكاملة، ومعهــن برز الشباب، الجاد منهم يبحث عمن يمكن أن تشــاركه مســتقبله، والماجن يطمح إلى "تعليق" بنت يلهو بعواطفها.

أغنيات السمسمية كانت هى القاسمَ المشترك فى الأفراح التى تقام فى الشارع. سواء كانت مجرد زفة للعروسين من لحظة الخروج من البيت حتى لحظة ركوب السيارة انتقالاً إلى مكان إقامة الفرح، أو كان الفرح فرحاً كاملاً، فالصحبجية جاهزون بأغنياتهم ورقصاتهم وألحانهم الشجية، وأهل العريس جاهزون للقيام بمتطلبات السهرة بمــا فيهــا متطلبــات الاحتفاظ بالمزاج الرائق ليتفننوا فى إسعاد الحضــور، ونســاء الحــارة الواقفات فى النوافذ والتراسينات للمشاهدة والاستماع ومنهن أمى.

غير صحبجية السمسمية هناك فِرَق الموسيقى النحاسية تلك الــتى صرنا نطلق على كل فرقة منها "فرقة حسب الله"، وكانت تُــستدعى لكل مناسبة مفرحة كحفلات الزفاف والطهــور وافتتــاح المحــلات التجارية والترويج للأفلام السينمائية الجديدة والإفراج عن المسجونين والترويج للسيرك الذى يزور المدينة أو يقام فى حارة العيد. فى أفراح الزفاف كانت الفرقة منها تأتى وأفرادها يرتدون ملابس شبه عسكرية أكل عليها الزمان وشرب، لكنها مزينة بالأزرار النحاسية والشــرائط والــ"قيطان" ، وفوق رءوسهم "بيريهات" أو "كاسيتات"حمراء كَلَــح

لونها وكثرت ثقوبها. أجمل ما كان ينعشني وينعش غـيري هـو آلات النفخ الضخمة والرفيعة والطبلة والترومبيتة والكاسات التي يحملونها. كانت الفرقة تأتي من شارع الشرقية بحي العرب إلى بيت العروس في طابور وبخطوات شبه منتظمة، لتقف أمام باب البيت ويظل أفرادهـا وقوفاً أو يجلسون على مقاعد مجلوبة من محل فراشة هي والـ"كُذلك" الذي يحيطها. تبدأ الفرقة أول ما تبدأ بالسلام الملكـي "وتـربيتّيق.. تربيتّيق.. تربيتّيق"، ثم "شوبش العريس.. شوبش العروسـة"، وبعـد عزف موسيقات أغنية أو أغنيتين ينهال النقوط على الفرقة. فيلوح قائد الفرقة بكل "نقطة" وينطق اسم صاحبها مصحوباً بأفضل الألقـاب ــ كل حسب مقدار نقوطه ــ ويردد خلفة أحد أفراد الفرقة ما يقولـه كلمة كلمة وجملة جملة "الريس أحمد الجنتيري.. الريس أحمد الجنتيري.. أحسن بياع أنتيكات.. أحسن بياع أنتيكات.. بيبعت أحسن سـلام للعروسة والعريس"، "الأسطى لطفي هاشم.. الأسطى لطفي هاشـم.. العجلاتي اللي مفيش زيه.. العجلاتي اللي مفيش زيه.. مَلِك العَجَـل والموتوسيكلات.. مَلِك العَجَل والموتوسيكلات.. بيحيي أهل العروسة وأهل العريس.. وسلام مربع يا جدع "، و"السلام ده حاير طـاير.. السلام ده حاير طاير.. جاي من زينة الحتة.. جاي من زينة الحتـة.. الحاج مسعد عليوة (لم يكن قد حَجَّ).. الحاج مسعد عليوة. بيحيي أهل المنطقة.. بيحيي أهل المنطقة.. الجدعان.. الجدعان.. العترة.. العترة..

أهل الشهامة.. الشهامة.. والمروءة.. المروءة.. وبيقول ألف مبروك.. ألف مبروك.. للعريس والعروسة.. ورقصنى يا جدع". وعند طلب أغنية ما تقدم موسيقاها دون كلماتها فالفرقة ليس من بينها مطربون. والعزف متفاوت حسب تدفق النقوط، فكلما كان التدفق كثيراً كان العزف سريعاً قصيراً، والعكس بالعكس؛ وتعم البهجة الشارع ويسود الرقص بالعصا أو بغير العصا، ومن النوافذ ومشرفيات التراسينات تنظر ربات البيوت، ومنهن أمى وجدتى، وبناتهن ومنهن أختاي.

غير فرق السمسمية والموسيقات النحاسية، كانت هناك فرقتان موسيقيتان شهيرتان جداً فى بورسعيد إبان عَقْدَي الخمسينيات والستينيات هما: فرقة البوليس، وفرقة الملجأ. الأولى تابعة للبوليس المصرى وعزفها كان قاصرًا على مواكب الرؤية ومولد النبى والتشريفات دون الأفراح الخاصة، والثانية مكونة من صبية ملجأ الأيتام بالمدينة. كان الموسرون يأتون بفرقة الملجأ هذه فى أفراحهم كنوع من المباهاة، وواقع الأمر أن استدعاء فرقة الملجأ لأى فرح كان مدعاة للفخر والتباهى، فهم غاية فى التنظيم والنظافة والإتقان. فوق هذا هم يرتدون ملابس بيضاء تشبه ملابس ضباط البحرية ويضعون فوق رءوسهم "كاسكيتات" مثل "كاسكيتات" الضباط، ومعهم لاعب دبوس يحركه بكل الاتجاهات وينطره فى الهواء ثم يتلقفه بمهارة مثلما يفعل لاعبو الدبوس بفرقة موسيقى البوليس.. لكن أشد ما كان يبهرنى

فى فرقة موسيقى الملجأ هو تلك العصا السحرية التى يمسك بها مايسترو الفرقة ويحركها فيعزف هؤلاء الجميلون موسيقاهم الباهرة.

ذات صيف أتيتُ فَعلة لا أنساها أبداً، ولا أسامح نفسى للآن لاقترافى إياها، فقد حدث أن نشبت معركة فى فرح تحييه فرقة الملجأ المبهرة عند ناصية شارعى الجعفرية وروس المجاورة لناصية بيتنا القديم الكائن بعمارة الشرنوبى بشارعى المنيا وروس، وفى القديم قليلة هى الأفراح التى كانت تنقضى بدون معركة تُرفع فيها الشماريخ وتقذف زجاجات الـ"كازوزة" والكراسى والحجارة. فور نشوب هذه المعركة انقضضتُ انقضاضَ الصقر على عصا المايسترو السحرية وخطفتُها من يده وقلت يا "فكيك".

كم كانت مدهشة هذه العصا، قصيرة رشيقة ملساء بها نقوش دقيقة مبهرة وأحد طرفيها مكسوٌّ بمعدن لامع عليه نقوش غائرة جميلة. بهذه العصا سأفعل المستحيل سأحوِّل العيال إلى موسيقيين وسأكون أنا المايسترو أقول لهذا اعزف ولذاك اسكت. هكذا حلمت؛ ولأن الليل جَنَّ كان لا بد من صعودى إلى البيت وإلا عوقبت، لكن كيف أصعد ومعى العصا السحرية؟.. سيسألوننى ويضيّقون علىَّ الخناق إلى أن أعترف بالحقيقة وسيكون العقاب شديداً، فكيف أتصرف؟.. هدانى تفكيرى الطفلىّ إلى صندوق عداد المياه الموجود خلف باب الشارع.

تلفّتُ فى كل اتجاه وتأكدتُ من أن أحداً لا يرانى ثم وضعت العصا فى الصندوق وأغلقته وسحبت ضلفة باب العمارة حتى أخفيه وصـــعدت إلى البيت. فى الصباح قفزت السلم هرولة وفتحت صندوق العـــداد فإذا بى أمام المفاجأة الكبرى. العصا السحرية اختفت. حزنتُ جـــدًا وغضبت جدًا وأنبنى ضميرى تأنيبًا شديدًا لدرجة أن نفســـى عافـــت الأكل فلم أتغدَّ ولم أتعشَّ.

جاءتنى أمى بأرحم وجه تسألنى عما بى، وعمًّا يكدرنى، وظلـــت معى إلى أن حكيت لها ما كان، فما كان منها إلا أن شدتنى مـــن أذنى وقادتنى إلى أبى وقالت له ووجهها ما زال هو أرحم وجه:

"شُف لك حل مع الولد الفلتان ده.. شُف المصيبة اللى عملها مع مزيكة الملجأ اللى كانت فى فرح الليلة اللى فاتت.. ابنك ده ها يعرِّنا ويمرمغ كرامتنا فى الأرض ويغضّب ربنا علينا"..

ويا للكلام العنيف الذى له حَزٌّ كَحَزِّ السكاكين الذى أسمعنيه أبى، ويا لقسوة عقابه. حرمنى من المصروف لأسبوعين كاملين.

الجميل من أمى أنها كانت تأخذنا معها لحضور أفراح الزفاف التى كانت تقام فوق سطوح البيوت وفى الصالات المستأجرة خصيصاً لهذا الغرض. موسيقا التخت الشرقى نوع مغاير عن الموسيقات الأخـــرى، بالإضافة إلى مصاحبة الغناء والرقص لها. هى موسيقى تعزفهـــا آلات أكثرها مغاير لما نراه فى أفراح الشوارع، آلات مثل العود والقـــانون

والناى والرق والصاجات والدَّرَبُكّة، على أنغامهــا يغــنى مطربــون ومطربات وترقص راقصات من نوع مغاير، وهنا أيضــا المونولجــات الضاحكة، وفى الذاكرة للآن أسماء مثل: زينب بغدادى مطربة البيوتات الكبيرة، والباتعة ونعيمة ولعة والراقصة لــواحظ وأختــها محاســن، والأسطى نبوية وعزيزة بنت أم رجب وكريمة أبو زيتون، ومن الرجال المونولوجست حسن صفراته، والرجل ذو الصفات الخاصة (الذى يعد حالة وحده) على زوبة وحسن الزَّجّال ومحمد خلف، وبعدهم غريب أيوب ابن عم أيوب بياع الــ"تَمرية" والعربى سأسأ ومحمد الفطايرى، من منظمى حفلات الأفراح اشتهر الدُّع ولطفى أبو زيتون وصــلاح غازى. وهناك أفراح كان يَستجلِب لها منظموها راقصات من خــارج بورسعيد، أغلبهن كُنَّ يأتين من سُنْبَاط أو المنصورة أو طنطا، وكــان مقدمو الحفلات يقدمونَهن مسبوقاتٍ بأسْماء الأماكن التى جئن منها.

فى واحدة من حفلات السطوح التى حضرتُها مع أمى كان حفل لقريبنا من ناحية أمى اسمه محمد أبو زيد. كان ميسور الحال وأقام حفل زفافه فوق سطح عمارة شهيرة بحارة اليهود، بعد أن دفع مهراً مقداره مئة جنيه دفعة واحدة، وكنتُ أسمع المعازيم وهم يتناقلون هذا الخــبر باندهاش "ياه!.. مية جنيه بحالهم؟!"، وكان الفرح مبهجاً حقا فيه مَغنى ورقص كثير ومشروبات و"بسطة" و"بونبونيرات" وفيرة.. لكننى كنت شديد الغلاسة على أمى وطلبت منها العودة إلى بيتنا وظللــت "أزن"

وأبكي، وأرفع صوتي بالـ"زَن" والبكاء، حتى أفقدها بهجة المتابعة..
والسبب أن الحذاء الجديد الذى ضمت فردتاه قدميّ كان ضيقاً، ومع
هذا تحملتْ "زنّي" وبكائي وحملتني فى طريق العودة.

صالات الأفراح كانت منتشرة فى بورسعيد، من أهمها صالات
"الكواكب" و"النشّار" و"الغزْل". حفل زفاف أخي الأكبر "علِي" أقيم
بصالة الغزل. إلى هذه الصالات كانت أمي تأخذني لحضور الأفراح التي
تقام فيها. الدخول كان بدعوات وكروت مطبوعة، وبداخلها ترابيزات
مخصوصة للمدعوين يجلسون إليها حسب أرقام الدعوات التي فى أيديهم،
وكانت بها خشبات مسرح تتصدرها، وتوضع فى الجانب الأيمن منها
الكوشة المزدانة بالزهور واللمبات الملونة والتُل وتُرص فوقها كراسيّ
العازفين، ويَملأ فراغاتها الراقصون والراقصات والمطربون والمطربات
والمونولوجست من الرجال والنساء؛ ولكل واحد منهم أو منهن موعد
مرتب له يؤدى فيه "نِمْرته". وكانت هناك نِمَرٌ تؤديها راقصات كثيرات
وراقصون كثيرون والرقص قد يكون بالعصا أو بالسيف أو بدونهما.
وكانت الزغاريد تُدوّي داخل هذه الصالات، ولأنها صالات مغلقة فإنه
غالباً ما تختلط الزغاريد بصداها فتكثر وتتكثّف.

من المونولوجست من كان يرتدى ملابس محمود شكوكو
وطرطوره، وأذكر مطلع أغنية ولا أتذكر بقيتها كانت تقال كثيراً فى
هذه الصالات. نص هذا المقطع هو "حازرجى.. بازرجى.. من كل عين

آذرجى" وأظن نهايته محرفة فالـ"أذرجى" وقتها كان هو الاسم الشائع للـ"كنّاس" أو جامع القمامة، والنص من نصوص اتقاء الحسد.

وحدث ذات مرة أن أفسد مسطول الفرح بسبب إصراره على الصعود إلى الراقصة ومراقصتها بفجاجة، فتعامل معه فتوة الصالة وأبعده عنها عنوة لينفجر الهرج والمرج وتطير الكراسيّ وتصرخ النسوة، وإذ تأخذني أمي، وكنتُ وحدى الذى بصحبتها من أخوتى، ارتطمتْ بمؤخرة رأسى زجاجة مياة غازية فإذا بأمى الوديعة تنقلب إلى نمرة هائجة أزاحت بقوة العشرات من الرجال المتشاحنين والنساء المتلاسنات وخرجت بى من هذه الصالة، وعلى بسطة السلم السفلية فحصت رأسى وطمأنتنى"مفيش جرح، لكن طلع لك كالُو". تحسست مكان الإصابة كان كالُو كبير. بكفها الخبيرة أخذتْ تضغط عليه طوال طريق عودتنا حتى لا يزداد ارتفاعًا، وفى البيت وضعت عليه ريالاً فضياً وربطته إلى رأسى بشاش، وأخذتنى فى حضنها حتى الصباح.

الغريب أن حفلتىْ زفاف أختىَّ خَلَتا من كثير من مسببات هذا الصخب، فزفاف أختى "فائزة" اقتصر على زفة بالمشاعل وغناء من فرقة "حسن العشرى" للسمسمية؛ واقتصر زفاف أختى "آمال" على حفل عائلى بعدما تُوفى أبى، فلا حناء ولا موسيقات نحاسية ولا فِرق تخت ولا راقصات ولا صالات أفراح؛ فقد كان لكل حفل منهما ظروفه، وأمى خير من يُقدِّر الظروف.

لم يكن لأمى شأن بـ"الصباحيّة" التى هى اشتقاق اصطلاحى من الصباح، وتكون فى بداية اليوم التالى ليوم الزفاف، اللهم إلا بصباحيّتيْ أختىّ، فالصباحية اختصاص صميم من اختصاصات أسر العرائس، وفيها تقوم أسرة كل عروس بتقديم صينية إفطار للعروسين بها ما لذ وطاب من الأطعمة فى مقدمتها الفطير الغارق فى السمن (المشلتت فى الغالب) والعسل والجبن الأبيض والكعك، وفيها تطمئن أم العروس على حال ابنتها وما تم فى ليلة العرس، وتستلم المنديل المبقع بالدم.

أما "سبوع الفرح" ــ سبوع الزفاف ــ فهو محط اهتمام أمى، ففيه تقدم هدية "عيلة عليوة" ونقوطها. أمر النقوط سهل، فهو مبلغ مالى يتناسب ومكانة الأسرة ومدى اقتراب أسرتى العروس والعريس من أسرتنا، وقيمة النقوط الذى قدمته كلتا الأسرتين فى مناسبات أسرتنا. هى عملية متعددة الأبعاد لكنها فى كل الأحول سهلة ميسورة. الهدية هى التى تشغل بال أمى حتى قبل ليلتى الحنَّاء والدُخلة. ما هو الشىء الذى تحتاجه الأسرة الجديدة؟.. وهذه مشكلة لأن أحداً من أسرتى العروس والعريس لا يُفصح عما ينقص الأسرة الجديدة، فالأفضل أن يعلم الجميع أن الـ"جهاز" كامل من "مجاميعه"، لذا فإن أمى تبذل جهداً كبيراً لتقف على ما يحتاجه العروسين لتقوم بتدبيره فى حدود المتاح لديها من أموال، وبحيث لا تشق عليهما إذا ما أرادا الرد فى المناسبات المستجدة على أسرتنا، فالهدايا والنقوط شكل من أشكال

التضامن الاجتماعي المتبادل؛ فإن وقفتْ أمي على هذه الاحتياجات حسمتْ الأمر واشترتْ ما يُشبعها وقدمته لهما في "سبوع الفرح"، وإن لم تقف عليها اجتهدت في شراء ما تراه لازمًا لهما، ولا حصر لنوعيات هذه الهدايا فقد تكون: طقم سرير، أباجورة، نجفة، أبليكات، مكواة، بلوفر، بلوزة، طقم نوم، طقم بشاكير، مشاية، وغيرها كثير، ومن هذا الكثير زجاجات الكولونيا والعطور وشنط الزيت والسكر والأرز والشاي والصابون..إلخ.

لا يقتصر الاحتفال بـ"سبوع الفرح" على منح الزائرين للعروسين النقوط والهدايا، وإنما هناك عادة أخرى تمارس في هذا السبوع، عادة ارتداء العروس لثوب الزفاف أمام الزوار واصطحابها إياهم ليشاهدوا الجهاز، أي كل ما تجهز به بيت الزوجية من أثاث ومفروشات وأجهزة كهربائية، وملابس، وذلك من قبيل افتخار العروس، خصوصاً تلك التي أحسنت تجهيز شقتها. أمي لم تكن حريصة على هذه العادة باعتبار أن هذه الأشياء من خصوصيات العروسين وأهل كل منهما، ولأنها كانت تعلم أن مثل هذه الرؤية تتبعها في مجلس الستات مقادير لا يُستهان بها من النميمة وإجراء المقارنات بين جهاز العروس الذي شاهدوه لِتَوِّهِنَّ وأجهزة عرائس أخرى.

ومع هذا حدث في "سبوع فرحنا"، أنا وزوجتي، أن استهجنت الحاجة "فهيمة"، التي هي واحدة من أعز قريبات أمي، عدم ارتداء

زوجتى لثوب الزفاف، نظرتْ زوجتى إلى أمى فقالت أمى لقريباها:

"دى عادة وانتهت يا حاجة فهيمة"..

فردَّتْ الحاجة فهيمة مستهولة ما نطقت به أمى:

"وقدرتِ يا أم على تنطقيها؟.. دى عادة ويا رب ما تنقطع أبداً من بيوتنا"..

فانصاعت زوجتى للطلب وارتدتْ ثوب زفافها، فلما رأتها به بسملتْ وصَلّتْ على النبى جميل المُحَيَّا و"اسم النبى حارسك وصاينك"، و"يا أرض احفظى ما عليكِ"، ثم طلبت منها أن تُريها الجهاز والملابس، وقد كان.

(٥)
أمي الطبيبة

بيتنا كان عيادة الشارع الطبية. هى طبيبة العيادة ومُمرّضتُها. إذا ألمت ملمة صحية بالجيران والأقارب كبارًا وصغارًا جاءوا إلى أمـــى، فلديها أجزخانة عامرة بالمطهرات والمســكنات والمــراهم البيضـــاء والسوداء وزيت الكافور وأربطة الشـــاش ولزقـــة "جابـــد" والملـــح الإنجليزى وماء "غريب" وشربة زيت الخـــروع ومحلـــول البلادونـــا وأقراص السلفا جواندين والسلفا ديـــزين والسالســـيلات، وأوراق "التيليو" والجوافة؛ والـــ"سبرتو" الأبيض لازم فى كل الأوقات وأغلب الحالات؛ وجاهزة لديها دائمًا كانت الحقنة الشـــرجية المعدنيـــة ذات الخرطوم، والحقنة ذات البالونة والمبسم البلاستيكى ولوازمهمـــا مـــن "شيح" و"بابونج"، أما "شفاطة السِدر" للمرضعات، ومعهـــا بـــودرة التلك وأقمطة المولود وبودرة السُرَّة "الصـــفرة" فجـــزء مهـــم مـــن الأجزخانة مُخصص لها.

غير الأجزخانة ومحتوياتها وملحقاتها، لديها ما هو أهم.. المهـــارة والدراية بما تفعل.

لم تركن إلى الوصفات البلدية إلا قليلاً، بل قليلاً جداً، فأغلب الأدوية التى استخدمتها كانت عصرية مستجلبة من الصيدليات، ولم تضم أجزخانتها مما يُستجلب من العطار — أو غيره — سوى المجرب مضمون النتيجة كالشيح والبابونج واللبان الذكر والـ"مِستكة" وحبة البركة وزيت الكافور والخروع وكُريّات الحنظل.

كانت تميز الجرح الذى يحتاج علاجه إلى ميكركروم من الجرح الذى لا ينفعه سوى صبغة اليود أو الجنتيانا. وبخبرتها كانت تعرف متى تضيف على الجرح مسحوق السلفا ديازين، ومتى لا تضيفها، وتعرف كذلك ما إذا كان تورُّم العين يحتاج إلى قطرة أو "لبخة".

تأتيها الجارة التى كُسرت الإبرة فى إصبعها ويطرق بابها الولد الذى دخلت قطع الزجاج المستدقة فى قدميه، مثلما تأتيها الأمهات بالأولاد الذين تضخمت فى وجوههم وتحت آباطهم الدمامل والخراريج، وبالصغار الذين ابتلعوا إبر الخياطة، أو شربوا البوتاس.. الدمامل والخراريج الناشئة لها المرهم الأسود وورق الخروع وربطة الشاش وتترك حتى "تستوى"، أما الدمامل والخراريج "المِسْتوِيَّة"، فلها أدواتها ومشارطها وأصابعها التى تعصر الجذور لتخرج "أمهات القيح"؛ أما أولئك الذين بلعوا الإبر فلهم القطن وكتل الأرز وشربة الزيت حتى يخرجوها من أدبارهم. شاربو البوتاس هم المعضلة فشرب البيض

النيىء هو الإسعاف السريع الذى يستتبعه الانتقال الفورى بالحالة إلى "الاسبتالية" مع "كلمتين تلاتة فى عضم الأم المهملة".

أمى كانت حكيمة بالفعل، ومن حكمتها أنها كانت تعالج على الفور ما هى متيقنة من قدرتها على علاجه، أما ما كانت تعرف أنها لن تقدر عليه فكانت تُهيب بالقادم إليها أو بأهله بالإسراع الفورى إلى "الاسبتالية" الأميرى أو مبرة فوزية أو المستوصف إن كانت القادمة إليها تشكو شيئاً من توابع الحمل.

كانت لديها علاجات سريعة مأمونة ومجربة، فالصداع لا يحتاج بعد برشامة "أسكين" أو "الأسبرينة" إلا إلى ربط الرأس بإيشارب أو منديل أبو أوية (القـَرْطة)؛ وارتفاع درجة الحرارة له كمادات الماء البارد المخلوط بالخل والنشا، وشرب النشا المذاب فى الماء؛ والتهابات سقف الفم والحلق واللسان لها الطحينة؛ والخميرة علاج ناجع للجهاز الهضمى وحمو الجوف؛ وعلاج الحصبة يقتضى تلبيس المريض ملابس حمراء وعدم تعريضه للضوء أو البلل. وإن عزّت المطهرات وخلت منها أجزخانة البيت فالبُن علاج مؤقت للجروح لإيقاف نزفها ومنع تلوثها حتى يتم تنظيفه وتطهيره.

كانت تأخذنا نحن أولادها، إذا ما ألمت بالواحد منا ملمة صحية خارج قدرتها العلاجية، إلى "الفارمشية" خصوصاً فى حالات الارتفاع المستمر لدرجات الحرارة؛ وإلى "الإنكلستوما" كانت تقودنا لنتجرع

على مضض الدواء المر الطارد للديدان؛ وتأخذنا إلى مستشفى الرمـــد كل ربيع لحماية أعيننا. لما تيبست ساقا أخى الصغير "مسعد" عقـــب لهوه فى مياه المطر ذات شتاء جعلتنى أحمله من فوره وأنطلق به ـــ معها ـــ إلى عيادة طبيب الروماتيزم؛ وعندما نزفت أختى قادتها إلى مستشفى التضامن. بالفعل كانت تميز باقتدار بين ما يتطلب علاجاً منزلياً ومـــا ينبغى علاجه علاجاً خارجياً، والعلاج الخارجى هذا قد يكون على يد طبيب متخصص فى عيادة أو مستشفى أو يد معالج شعبى ثقة، فمـــثلاً عندما كُسِرت ذراع أخى الأكبر إثر سقوطه فوق حافة حقيبته الخشبية فى مدرسة "الفرير" جُبر كسره فى المستشفى الأميرى؛ فى حين لما انخلع كتفى مرة، والتوى كاحلى أخرى، قادتنى فى المـــرتين إلى "المجبراتـــى" الجالس بإحدى مقاهى شارع كسرى.

إذا ما أصاب أحدَنا رَشحٌ أو زُكامٌ كانت تغطى رأسه بفوطة وتثنيه فوق حلة بها ماء يغلى وتطلب منه أن يستنشق البخار، وأحياناً كانت تضع فى الماء أعشاباً لها روائح عطرية تجعل من الاستنشـــاق عمليـــة لذيذة؛ وإذا كَحّ أيُّنا أعطته مشروب الـــ"تليو" أو ورق "الجوافـــة" أو الـــ"ينسون" مع ملعقة العسل الأسود حسب الحالة؛ إما إذا "غلـــوش السِدر" أو "زَيّق" مما يعنى الإصابة بنزلة شُعبية فإنها كانت تفعل ما كنتُ أراه فى ذلك الوقت سحراً، فعلاوة على المشـــروبات الســـاخنة ذات الزيوت الطيارة، وبالإضافة إلى برشام الـــ"أسكين" و/أو الـــ"أسبرو"

كانت تذيب حبيبات الـ"مستكة" فى ملعقة كبيرة بها زيت عن طريق التسخين فوق الـ"سبرتاية" ثم تقوم بدهان الجزء العلوى من الجسم بما فى الملعقة وهى تبسمل "بسم الله الشافى المعافى"، وتغطيه بورق "جرنان" (استبدل البلاستيك به) ثم تضع الملابس فوق الغطاء الورقى وتأمر من فعلت معه هذا بالتوجه إلى السرير والاندفاس تحت اللحاف والبطانية ليتعرّق. إن فعل يُشفى ويُعفى، وإلا أسرعت به إلى الفارمشية إذا كان الوقت نهاراً أو إلى عيادة الدكتور "أبو الغيط" إنْ كان الوقت لـيلاً. ومع السعال الديكى كانت لا تكتفى بالدواء الذى قـرره الطبيـب المعالج، وإنما كانت تضيف إليه تطبيقاً مهماً وهو تمشية الطفل المـريض منا أمام البحر ليستنشق الهواء المشبع باليود فيُعَجِّل بشفائه.

عِلمٌ هذا أم بركة؟..

كنت أركن إلى الإجابة بكليهما..

بالفعل كانا كليهما.

ومن جميلِ خِلالها أنها احتفظت بعلمها وبركتها إلى أن أَسَنَّتْ، فقد حدث بعد أن تزوجتُ وأنجبتُ ابنى البكرى "سميحاً" أن أُصيب وهـو بعد رضيع بنزلة شُعبية حادة حتى إنه لم يكن ليستطيع التنفس من كثرة الـ"بلغم" اللابد بصدره. وكنا فى ساعة متأخرة جداً مساء يوم جمعـة عندما فاض صبرنا وما عدنا نحتمل رؤية ابننا يمـوت تحـت أعيننـا، فالعيادات الطبية مغلقة ولا توجد مواصلات توصلنا إلى أية مستشفى.

النجدة جاءت من أمى الممسكة بملعقة الزيت المذابــة بــه حبيبيــات الــ"مستكة" وكيس البلاستيك التى جعلته قميصًا و"بسم الله الشــافى المعافى". فعلت أمى شيئاً إضافياً، ببنسة شعر طهرتها على "الســبرتاية" أخرجت المخاط الجاف وغير الجاف من فتحتى أنفه، وما كان لى إلا أن أتركه لها وارتمى فوق بلاط "الفــسَحَة"، راكناً ظهرى إلى الحــائط، ممسكاً بيد أم سميح، داعياً الله أن يبقيه لنا حياً حتى الصباح فنذهب به إلى الطبيب، وبكينا كلانا. وانهمر دمع الرجاء الهتون من أعيننــا، لأن حالة الولد كانت متدهورة للغاية. مع شقشقات الصباح خرجت علينا أمى من حجرتها حاملة "سميحاً" وهو يبتسم لها ولنا.

أذكر أنه عندما أدخلتُ نصفَ إصبع طباشير فى إحــدى فــتحتيْ أنفى، وسال الدم غزيرًا، خافتْ أمى على أغشية أنفى من التهتك إن هى استخدمت لإخراجه المتاح لها من وسائل وأدوات فهرولت بى إلى المستشفى الأميرى.

وحدث أن رطمنى موتوسيكل سريع عند تقاطع شارعى الدقهليــة والحميدى و"نطرتنى" الرطمة من عنفها فى الهواء لأســقط فى الضــفة الأخرى من شارع الحميدى. ومع أنها كانت حادثة كبيرة، لم أدر بهول ما أصابنى من جرائها، فبعد أن غسل الطيبون وجهى بالماء اتجهت إلى مدرستى الكائنة فى أقصى شمال شرق المدينة لأحضر بروفات المسرحية المدرسية التى أمثل فيها؛ استهولتْ الأبلة مظهرى، ويبدو أن وجهــى

كان قد انتفخ من الورم، فطلبتْ منى العودة بسرعة إلى البيت "ومش مهم البروڤة ولا المسرحية".

عند عتبة البيت تلقفتنى أمي بوجهى المتورم وعينىَّ اللتين أغلقتا تماما. بعد أن تفحصتْ وجهى تبين لها أن عظمة أنفى مكسورة، ودماً كثيراً محبوساً فى عينىّ. فحصت جمجمتى لتطمئن عليها، وبعد أن اطمأنت إلى أنه لا يوجد بها كسر ولا "تربنة"، وضعتْ ريالاً فضياً على جبهتى وقرطتْ عليه برباط قاسٍ، ثم أخذتنى فى "حنطور" إلى الدكتور "أبو الغيط" الذى طمأنها وطمأننى، وبعد كم حقنة ومجموعة أقراص"مكلبظة" لا تبلع إلا بصعوبة، وملاعق شراب مُر لا يُزدرد إلا بالعافية، خَفَّ ورم جبهتى وتسرب الدم من فوق بياض عينى، فأخذتنى من يدى ودخلت بى حجرة أبلة الناظرة وقالت لها:

"قاسم جاهز للبروڤات يا حضرة الناظرة".

وحدث ذات عراك نشب بينى وبين صديقى وجارى "السيد الكتاتنى"، بسبب "مراجيح" بنات عم "أحمد الجنتيرى"، أن حَزَّ "السيد" بشفرة حلاقة خدى الأيسر حزًّا طويلاً أغرقنى بالدماء. أخذنى أهلى وأهل الحارة إلى المستشفى الأميرى، وعند تحرير محضر الشرطة رفضتْ اتهام "السيد" بما فعل وأصررتْ على أن يُذكر فى المحضر أننى كنت ألعب فوق "عَجَلة" فسقطتُ فوق قطعة زجاج، ومع أن هيئة الجرح تفضح الكذبة، فإن كل شيء سار فى مساره المرجوّ. خرجتُ

من المستشفى بعد نحو الساعتين بضمادة تخفى جرحاً نال ست غـــرز (اثنتا عشرة غَزّة)، لتعكف هى على تطبيبى، تغير الضمادات وتضـــع المطهرات، وتمنعنى من أكل السمك والوقوف فى الشمس، وتحثنى مع كل هذا على مسامحة "السيد الكتاتنى"، وعدم التهور بإحداث عاهـــة مماثلة بوجهه كما طلب منى بعض إخوتى، وبالأمس القريب التقينا أنا والسيد بالأحضان.

حادثة أخرى لا أنساها وقعت لى وكانت أمى هى بلسمى الشـــافى، فما إن نزلتُ إلى الشارع فى عصر يوم صيفى حتى هجم علـــى كلـــب بوليسى كان يربيه أحد شباب الحارة اسمه "حسنى عبد اللطيف"، هجم علىّ الكلب "من الباب للطاق" بغير معاكسة منى أو حتى اقتراب. هجم وعقرنى العقرة. أحسستُ بانغرازة الناب فى فخذى فعويت ما أتاحت لى حنجرتى العواء، على الفور انبثقتْ أحجار البازلت المرصوفة بها الحـــارة عن أبى، وإذ يحملنى لينطلق بى صوب المستشفى؛ هتفتْ به أمى:

"ما تودهوش المستشفى-لينقلوه مستشفى الكلب بمصر"..

ويا لها من جملة نطقتها أمى، جملة أنقذتنى من الرعب المميت لـــو حدث ووجدت نفسى فى مستشفى الكلب محجـــوزاً ولمـــدة واحـــد وعشرين يوماً تغزنى حقنة فى بطنى. طبيب العيادة الخاصة التى أخـــذنى إليها أبى كان رحيماً بعض الشىء. وصف لى اثنتىْ عشرة حقنة. بكيت فى حضن أمى وقلت:

"مش عايز الحقن"..

فمسحت على رأسى وقالت بصوتها الحنون:

"احمد ربنا.. اتناشر حقنة واللا واحد وعشرين؟.. فى العضل واللا فى السُرَّة؟.. هنا فى بلدنا وفى بيتنا، واللا فى مستشفى الكلب بمصر؟".

وبينما هى تربت على رأسى لتفرخ من روعى، وتسألنى محذرة:

"أوعى تكون أذيت الكلب؟"..

فأجيبها وأنا أسمع وجيب قلبها:

"أبداً يا ماما.. أبداً"..

إذ بضجيج من الشارع يأتينا مضفوراً بصـــوت أبى. انتقلنـــا إلى النافذة لأفاجأ لأول وآخر مرة فى حياتى بأبى مشتبكـــاً فى عراك مـــع "عبد اللطيف" والد "حسنى"، صاحب الكلب، كان يتعارك، وهات يا ضرب فيه. بعد أن هدأ العراك، وصعد إلينا أبى المنتقم، قالت له أمى:

"خلاص يا سى مسعد.. قاسم وافق ياخد الحقن"..

فاتفق أبى مع ممرض أصرتْ هى على أن يقتصر دوره على ضرب الحقن، أما هى فستختص بعلاج العضة. بلسمها لم يقتصر على علاج ثقوب العضة، وإنما امتد إلى علاجى من "فوبيا" الكلاب فقد بـــدأتُ أخافها خوفاً شديداً، فإذا ما رأيت كلبًا عند ثالث ناصية غيرتُ مسرعاً طريقى، وإذا ما اضطرتنى المفاجأة إلى المرور بجوار كلب أو مروره هو بجوارى كنتُ أشفط بطنى وامتقع، وما إن يُهَوْهِوُ ويفتح فكيه حـــتى

أسارع بالجرى وأقول "يا فكيك"؛ لكنها ظلت بى حتى تعودتُ ليس فقط على مجاورة الكلاب، وإنما على مواجهتها، وزرعت فى نفسى عقيدة أن "الكلب بيشم ريحة الخواف.. فيعمل عليه أسد".

قبل بلوغى سن التاسعة عشرة أصبت بأنفلونزا شديدة، ولأن الرشح كان على غير المعتاد، فعلى غير المعتاد كذلك وضعتُ بضع قطرات من دواء الـ"أوتروفين" فى طاقتىْ أنفى لوقف الرشح. لم يتوقف الرشح، لكن حدث لى ما أذهلنى وأذهل أهلى كلهم.. أصبت بتشنج عصبى. نعم.. كبَّروا وقرأوا آيات من القرآن الكريم فى أذنىّ، ودسوا مفاتيح فى كفىّ، لكنهم بسرعة جهزونى وأسلمونى لأبى ليأخذنى إلى أشهر طبيب أمراض عصبية فى ذلك الوقت الدكتور كمال إسحق.

كانت تجربة شديدة الصعوبة علىّ وعلى الأسرة كلها، فأمى كما هو المعتاد فى مثل هذه الملمات هى ممرضتى. تواظب على إعطائى الدواء الذى أعطانيه الطبيب فى مواعيده، وتحيطنى بالرعاية الواجبة وغير الواجبة. تضايقت جداً لَمَّا اكتشفتُ أن الدواء يدفعنى إلى النوم دفعاً، فللوظيفة، وكنتُ قد عينت بديوان عام محافظة بورسعيد قبل هذه الإصابة بعدة أشهر، شروط من أهمها المواظبة وعدم التغيب ولو بسبب المرض، وهناك ما تفرضه هواية الأدب من يقظة لازمة لتصيد الأفكار وسهر ضرورى للانكباب على الكتب قراءةً والورق كتابةً، ثم إنها شهور والتحق بسلك الجندية.

ساورنى يقين أنه لكى أنقذ نفسى، فلا بد من التخلص من هـــذا الدواء. كان اسمه "الليبريوم"، قـــُرْصه صغير مستدق، لكنـــه كمـــا خبرتُ وقتها يُنيم جَمَلاً.

قلتُ: "لن أنام"، وقررتُ مقاومة ضعفى بالمشــــى فى الشــــوارع منفرداً مقاوماً حالات التشنج التى ظلت تواتينى بالرغم مـــن تنـــاول الدواء. هنا جاء دور أمي الحكيمة. قالت لى: "بـــدل مـــا تمشــــى فى الشوارع وتعرض نفسك لدخان العربيات والعُفار، امش على البحر.. هواه نضيف وريحة اليود عنده تنعشك وتقويك". وقد كان، وشفيتُ من التشنجات قبيل تجنيدى بالجيش، وتخلصتُ من "الليبريوم".

امتد نشاط أمي العلاجى إلى الحيوانات.. فإذا ما نقرت الأفـــراخ رقاب ومؤخرات بعضها البعض أمسكتها لها جدتى لتعالجها بالمطهرات والمجففات، وإذا ما داهمتها الـــ"هيَّه" أو الـــ"الفرّة" ســـارعت هـــى وجدتى باتخاذ إجراءات العزل وإذابة الإسبرين فى مياه شربها، وتكسير الأسبرين وأقراص أخرى وخلطها بأعلافها من "غلة" و"ذرة"، و"سمك مطبوخ" إذا كان المرض قد داهم البط، ومع هذا العلاج الدوائى لجأتا إلى العلاج الوقائى فتمسحان العشش بالـــ"فنيك" أو الـــ"ديتول" أو الـــ"يزول" أو حتى الـــ"جاز".

وما أكثر الأعواد الخشبية والأربطة التى وضعت فيها أمي ـــ ولا أحد غيرها ـــ سيقان الإوز والبط والحمام المكسورة.

أذكر أننى دهست فى بيتنا القديم عن غير قصد ـــ وأنا بعد صغير ـــ "فرخ شَمُرت" منفوض الريش فبظَّتْ مصارينه من بطنه وتدلت بين ساقيّه، بسرعة رأيت أمى تفعل العجب العجاب.. جاءت بـإبرة لضمتها بخيط "لعلاع" وأشعلت "السبرتاية" ومررت الإبـرة عليهـا لتطهرها، وأدخلت المصارين بطن الفرخ مراعية إدخال كل مصران فى موضعه، وبالسبرتو الأبيض مسحت الدم وطهرت الجلد المفتـوح ثم خاطته، ونجا الفرخ وكبر، وصار ديكاً أكلناه لما كبر.

هذه هى أمى الطبيبة.

أبى كان "طولاً بعرض"، وكان غزير الشعر، حتى كـاد يغطـى جسمه كله. فحل يغبطه الرجال، لكنه ككل البشر كان يمرض، وأمى هى التى تطببه أحياناً وتمرضه فى كل الأحايين.

حكت لى أمى أن أبى أصيب فى بدايات زواجهما بطفح جلـدى استلزم أن تقوم بحلاقة شعر جسمه كله، وأنها ظلت تمرضه بالمطهرات والمراهم إلى أن شفى تماماً، غير أن الشعر النابت جاء أغزر وأكثـف وأقوى من الشعر المحلوق.

ما أكثر ما رأيتها وهى تعالجه بـ"كاسات الهوا". كان يرقد على السرير ويوليها ظهره فتأتى بالأكواب الزجاجية التى نشـرب فيهـا الشاى. الكوب تلو الكوب تمسحه بالسبرتو من الـداخل ثم تشـعله

وتقلب الكوب فوق جلد الظهر فيقب داخل الكوب مُحْمَرًا ومُزْرَقًا، وتستمر برِصِّ الأكواب ولصقها بظهر أبي حتى يتحول جلده إلى قباب محبوسة بالأكواب. كانت تفعل هذا بسرعة ودربة وتمكن وقدر كبير من الهندسة، وعندما ترفع الأكواب ترفعها بحرفية عالية فتحدث بقبقة خفية وتهبط القبة تلو القبة ببطء شديد إلى أن يستوى جلد الظهر، وإن بقيت الدوائر الدالة على محيطات الأكواب. كان أبي يستريح جداً لـ"كاسات" الهوا التى تعالجه بها أمى، لدرجة أنه أغرانى ذات مرض مشابه بالخضوع لهذا العلاج وخضعتُ وشفيتُ.

ذهب أبي يوماً إلى "الفارماشية" ولم يعد. إلى مستشفى "نمرة ٦" بالإسماعيلية.. أمر الطبيب بأن ينقل. أمره كان فورى التنفيذ، فأخذوه فى سيارة الـ"أمبلانس" إلى الإسماعيلية مباشرة، بعد طول انتظار اتجهتْ إلى "الفارمشية" لكنها كانت قد أغلقتْ، سكن القلق الرهيب بيتنا، وتضعضع كل من فيه إلى أن جاءنا سائق الـ"أمبلاس" بالليل، وقال لأمي إن "عم مسعد" فى "نمرة ٦"، وإنه دخلها لأن ضغط دمه تجاوز كل الحدود الآمنة، وإنه الآن بخير، وانصرف بعدما أعطاها ورقة بها رقم تليفون المستشفى.

فى الصباح أمسكت أمي بيدى واتجهتْ بى إلى مكتب مرفق معديات بورسعيد/ بورفؤاد، وأمام كابينة تليفون تخص هيئة قناة السويس وقفت وأوقفتى. أدارت القرص بالرقم الموجود فى الورقة

وبعد أن تكلمت وتشكل وجهها بأكثر من تعبير أعطـتني السـماعة وقالت لى:

"كلم بابا"..

فخفتُ، خفتُ من التليفون. أدنتْ السماعة منى فحاولتُ الفرار. رفعتنى بيد وبالأخرى وضعت السـماعة فـوق أذنى فبكيـتُ، بـل صرختُ. ظن أبى أننى أصرخ حزناً على ما هو فيه، فسمعتُ صـوته يقول:

" أنا بخير يا قاسم.. بخير"..

لكننى كنت خائفاً من التليفون إلى حد الفزع، فضمتنى بالحضـن الذى يُفرخ من روعى وأطالت الاحتضان.

إلى "نمرة ٦" ذهب أبى مرتين أخريين، إحداهما لإجراء جراحة فى عينيه، جاءنا بعدها واضعاً نظارة طبية فوقهما، والثانية لرتق فتـق إربى وكانت أيام حرب الاستنزاف، وفى المرتين كانت هى المسـئولة عـن البيت والأولاد وكل شىء.

بدا لى أن أبى تعايش وضغط الدم المرتفع وتضخم القلب والأدوية التى كثرت بالبيت، وظل متصالباً ومتفائلاً إلى أن جاءت النوبة الـتى أدخـل بسببها مستشفى المبرة لتنقله بدورها إلى غرفة العناية المركزة بالمستشـفى الأميرى ليودع الحياة فيها، وتصبح أمى منذ هـذا اليـوم (٢٥ يوليـو ١٩٨٠م.) مسئولة عن كل شئون العائلة، وما من معين لها سوى جدتى.

جدتى لأمى، "بدر على خميس"، ملاك جاء متشكلاً فى هيئة بشـــرية ليُعَلِّم أسرة "مسعد على عليوة" معانى الإيثار والتضحية والإخلاص والمحبة والنبل والتفانى فى خدمة المحبوب. توفى زوجها "قاسم محمـــد إبـــراهيم"، جدى، ولم يجاوز من العمر خمسة وعشرين عاما، فما بالنا لســـنها وقـــت وفاته؟.. لقد ترملت فى سن صغيرة جداً؛ ومع هذا أوقفت حياتها، بعـــد وفاة ابنها "رشاد" ــ وهو بعد طفل ــ للعناية بابنتـــها "هـــانم"، أمـــى، وبالأسرة التى كونتها "هانم" بعد زواجها من "مسعد على عليوة"، أبى.

المولود منا يظل مشمولاً بعنايتها منذ أيامه الأولى حتى زواجه وما بعد زواجه. منذ بداية البداية تعد له مع أمى الأقمطة والملابس الداخلية والخارجية، وتجهز الـ"مغات" والحلبة وتطبخ "الفرخة الشَمُرت" فور الوضع، ولا يمر الـ"سبوع" على المولود منا حتى ينتقل إلى حضـــنها وسريرها. أمراض جدتى، مثل أبى، قليلة، أو على الأقل بدت هكذا لنا إذ لا نراها إلا منهمكة فى عمل: "بَسْبَسَة" للكتاكيت، "تزغيط" للبط، كنس، مسح، غسيل؛ وكانت تجلس إلى الغسيل أسبوعاً كاملاً. كيف لنا أن نصدق احتمال إصابة هذه السيدة العظيمة بمرض ما؟..

أقصى ما كنا نراه من أعراض المرض لديها احمرار عين أو التهاب لثة، وأقسى ما كانت تشعرنا به من آلامها ما كان من تأثير تقيح الجلد تحت أظافر يديها من كثرة نقعهما فى ميـــاه الغســـيل وبتـــأثير مـــن الـ"بوتاس" المذاب فيها.

كانت نعمَ المعين لأمي وأبي، ولنا، لنا جميعاً، إلى أن سقطت تلك السقطة التي "كرَّت" بها درجات السلم وهي "نازلة" من السطح فكُسر عظم حوضها. كانت قد هرمت للغاية وفقدت عظامها خاصية الالتئام. مرات قليلة تلك التي ارتضت أن يعودها فيها طبيب، فهي تعلم أن لا التئام لكسرها فالحالة متأخرة.. متأخرة جداً.

لسنوات ظلت تتأبى على النوم الدائم فى الفراش، فطلبت مشاية خشبية وكرسياً خشبياً لقضاء الحاجة صنعهما النجار. لم يكن وصولها إلى الحمام يستغرق بالمشاية سوى خطوات معدودة، بعدها تكون واقفة إلى الحوض، الذى استبدلته بالطشت، لتواصل غسلها للملابسنا أو تكون واقفة أمام الغسالة الكهربائية لمعاودة دعك الغسيل الذى تخرجه منها، فمهما كانت قدرة الغسالة فتنظيفها لا يصل إلى مستوى التنظيف باليد:

"هوه فيه زى دعك الإيد؟.. أهوه انتم شايفين.. الغسالة اللى بالكهربه ما بتنضّفش الياقات والأساور ولا تحت الباط".

كان همها وما يشغل بالها ألا تترك أمى وحدها بعد وفاة أبى، لكن الهم تفاقم بعدما أرقدها المرض. حاولت جاهدة أن تريح أمى من خدمتها إلا أن هذا استحال عليها، فصارت أمى تمرضها وتخدمها وتأتيها بوعاء قضاء الحاجة وتحممها فى الفراش، وعبثاً حاولت جدتى أن تعفيها من هذا، فأصرت على أن تأتيَ بما يمكنها إتيانه، فـ"قشَّرتْ" بطاطس، و"قمّعتْ" البامية، و"قطّفتْ" الملوخية، و"قطّعتْ" الكوسة، و"بَسْبِست" الحمص المطحون المبلول للكتاكيت الموجودة

بالكرتونة الموضوعة على الفراش، وجاءت ساعة الفراق بعد سنوات من رقدها ردت فيه أمي جميل أمها بإخلاص وتفان.

كسائر البشر مرضتْ أمي، لكنني لا أذكر لها من مرَّات مرضها سوى أقل القليل، ففي كل مرة كانت تنهض كأن شيئاً لم يكن، ليس من بين هذه المرَّات السقطة التي جعلتها "تكر" سلم عمارتنا، وهي حامل في شهرها التاسع، فقد قامت ومارست عملها المنزلي كعادتها، فقط جاء المولود ميتاً؛ وليس من بينها قبولها استئصال "بيت الوِلد" في مستشفى "نمرة ٦" بالإسماعيلية، فقبل وبعد الاستئصال مارست حياتها بشكل طبيعي؛ لكنني أذكر أنها حينما أسنَّتْ احتقن زورها وصارتْ به بحة طالت. عالجتْ نفسها بالمسكنات ومخفضات الحرارة باعتبار أن برداً قد لحق بها ألهب حلقها. بالفعل كان حلقها ملتهبًا، لكنه كان مصحوباً بالتهاب لوزيتها، وما أكثر ما تلتهب اللوزتان في الحلوق، لكن التهابهما مع أمي هذه المرة فاق كل الالتهابات، فقد تضخمتا واستمرتا تتضخمان وعطلتا قدرة البلعوم على البلع الجيد والرئتين على التنفس الطبيعي، وهي متحملة كالعادة، باعتبار أن الالتهاب سيأخذ وقته ويمضي، لكنه لم يمض. وفجأة انفجرت اللوزتان في حلقها، فأخذتْ، ويا له من مشهد إنْ دل على شيء فعلى شجاعتها ومهارتها حتى في تَطْبيب نفسها، أخذت تخرج بذراع ملعقة معدنية صغيرة طهرتها بالكحول. ما تبقى من اللوزتين المنفجرتين شرائح

وبصيلات ليمفاوية بصيلات، بعدها تغرغرتْ بأشــياء ثم عــادتْ إلى عملها الذى كانت تعمله.

فى شيخوختها طمست المياه البيضاء ناظريها، فما عــادت تــرى جيداً لدرجة أننا عند زيارتها كنا نمسك لها كفها لإيصالها إلى كفوفنـــا عند المصافحة، استجابتْ لنصائحنا وقبلت أن تُجرى لهمـــا عمليـــتين جراحيتين بأشعة الليزر فى مستشفى القدس التى كان يقوم على شئونها طبيب العيون البارع على الفقى رحمه الله؛ وكم كان جميلاً من أخـــى الصغير مسعد تكفله بتكاليف العمليتين. قمتُ أنا بإجراءات الحجـــز والمرافقة إلى القاهرة، والتف كل أبنائها حولها، حتى المســـافر منـــهم، وكانت هى شجاعة فى كل خطوة من الخطوات التى مرت بها، وكـــم أسعدتنى بعد رفع الضمادات إشارتها إلى فتلة شديدة النحول نفرت من عروة فى قميصى، وقولها لى:

"قرّب علشان أصلح لك العروة المشرشبة دى". إصلاح العـــروة كان يعنى أن تمسك بإبرة وتقوم بلضمها.

المرض الذى فاجأها وفاجأنا هو مرض الاستسقاء الـــذى حـــبس السوائل فى جسمها وضغط على رئتيها، ومع أنها كانت قد خضـــعت للعلاج منه إلا أنه سرعان ما أصاب جسمها بالترهل والذبول لتودع الحياة فى غرفة العناية المركزة بمستشفى بورفؤاد العام فى يوم شـــديد الإيلام يوم الأحد الموافق ٢٠ من يوليو ٢٠٠٨م.

(٦)
أمى والمآتم

عند احتضار العزيزات عليها من الجارات والأقارب، كانت أمى تتطوع لقراءة القرآن فى أذن المحتضرة، وقد تنزل بنفسها وتذهب لشراء الكفن وماء الورد والـ"حَنوط" المتضمن كافورًا وصندلاً ومسكًا — ما كنا نسميه آنذاك "ريحة الميتين" — وقد تتجه إلى مكتب الحانوتى الملحق بالجامع التوفيقى لاستدعاء الـ"مغسِّلة"، وخشبة "الغُسل"، وأحيانا ما يوفر الحانوتى هذا كله، فتحصل عليه أمى فى مشوار واحد. عند صعود الروح إلى بارئها لا تصرخ أمى ولا تولول، ولا تلطم خدًا ولا تمزق ثوبًا؛ ونادراً ما كانت تمشى وراء نعوش الجنازات، وتفضل انتظارها فى الجبانة لئلا تطرق مسامعها ولولات المفجوعات.

كانت ترتدى الأسود وتشارك فى تهوية وتشميس غرفة الميتة ومفروشاتها، فتكنس الحجرة وتمسحها وتبخرها، وترفع مع ذويها المراتب والمخدات والأغطية وتنشرها على حواف النوافذ وأسوار التراسينات، أما شارة الحداد فهى بعض الملابس السوداء تنشر على

أحبال الغسيل، ولمواجهة عزاء ما بعد الدفن كانت تعد فى بيتنا الطعام الذى يكفى المعزين، أغلبه من سمك البورى المشوى والأرز، وترسلنا به إلى بيت الميت أو الميتة من أقاربنا؛ ولم تكن لتجلس فى مكان تجلس فيه ندابة أو معددة أو فيه نساء صبغن وجوههن بالــ"نيلة".

رأيت غير مرة ما يدور خلف الــ"كُذلك" الذى يُسَــوِّر مكــان جلوس المعزيات فى منطقة سُكنى الــ"صعايدة" بحى العرب، قريباً مــن شارع محمد على. وجوه أغلبهن زرقاء غامقة بفعل الــ"نيلة" المطليــة بها. كن يخبطن على أرجلهن وصدورهن ويلطمن خــدودهن بإيقــاع منتظم، وبأصوات مبحوحة نائحة. كن ينشدن مرددات خلف المعددة النائحة كلاماً منظوماً يُقطِّع نياط القلب. فى كل مرة أراهن وأســتمع إليهن فيها كنت أشْدَه وأرتجف من فرط التأثر. ذات مرة عــدتُ إلى البيت مترنما بما لم أعد أتذكره الآن مما كن ينحن به، فنــهرتنى أمــى وقستْ على:

"ماعنتش تقول كده تانى.. حرام.. الله أعطى.. الله خد.. الله عليه العوض.. إحنا أعز على ربنا من الأنبيا والرسل؟!".

كانت تتألم لمشاهد وداع موتانا، لكنها لم تشتط، ولم تخرج عــن جادة الوقار. حافظتْ على المنطقى من الموروث، ونــأت عــن غــير المنطقى. الواجب قدمته على ما عداه. قامت به وتحملت تكاليفه وإن أبهظتها هذه التكاليف، وقتاً وجهداً ومالاً. من المشاهد التى آلمت أمى

وعذبتها كثيراً ـــ غير مشاهد جثث الشهداء فى حرب ١٩٥٦م. ـــ المشهد الذى آلم وعذب نفوس أهالى بورسعيد جميعهم مثلما آلم مصر كلها، وأقصد به المشهد المعروف بحادثة أتوبيس رأس البر التى وقعت إبان فترة التهجير عقب حرب الاستتراف، فى هذه الحادثة مات زهرة شباب العائلة ابن عمى الطالب الجامعى "فؤاد كمال عليوة"، مات ضمن سبعة وسبعين طالباً جامعياً كانوا يستقلون أوتوبيس الموت الذى أقلهم فى الصباح الباكر ليوم الجمعة الموافق ١٨ فبراير من العام ١٩٧٢م. من رأس البر، مهجرهم وأسرهم، إلى القاهرة حيث جامعاتهم، ولأن الأتوبيس الذى حمولته خمسة وأربعين راكباً حمل ثمانين راكباً، فقد انفجر إطاره الأمامى عند هويس مدينة كفر شكر ليسقط بهم إلى الهويس، ولا ينجو منهم سوى ثلاثة فقط أحدهم صديقى ـــ فيما بعد ـــ الطبيب الصيدلى محمود الغرباوى، ومن بين الضحايا السبعة وسبعين طالباً وطالبة كان ابن عمى "فؤاد كمال عليوة"؛ ولما كانت أسرتى مهجرة بمدينة المنصورة فقد آثرت أمى أن تأتى معنا إلى رأس البر لتقديم واجب العزاء لعمى وزوجته.

فى شارع المنيا، حيت يتواجه حد حى العرب الغربى بحد حى المناخ الشرقى، وفى المنطقة المحصورة بين الشارع التجارى (شارع السلطان عبد العزيز) والشارع الثلاثينى (سعد زغلول)، بالقرب من مقهى "السعيدية"، كانت هناك سوق بسيطة منظمة قوامها أعداد من عربات

اليد المحملة بالتمور والخوص (سعف النخيل) والفطير و"الفتوت" والفواكه. هذه السوق كانت مخصصة للراغبين والراغبات فى زيارة الجبانة والتصدق على الفقراء الذين يتخذون من الجبانة مكاناً لتلقى حسنات الزائرين. قمة نشاط هذه السوق كانت تتحقق فى يومى الخميس والجمعة، فيوم الخميس هو الموعد الأسبوعى لزيارة نساء المدينة للجبانة، ويوم الجمعة هو موعد زيارة الرجال، لكن السوق مستمرة للزوار العَرَضِيين، فإقامتها فى المكان ليست من قبيل الصدفة، وإنما لالتصاقه بمكان الـ"مؤاجرة" حيث ينفصل أقرباء الميت المقربون عن الجنازة السائرة فى شارع الثلاثينى، وأغلب جنازات المدينة كانت تُشيع فى هذا الشارع، ويصطفون فى صف واحد ممتد من مقهى "السعيدية" حتى سينما "مصر" لتلقى "مؤاجرة" المشيعين الذين لا يتمكنون أو لا يرغبون فى مواصلة التشييع حتى الجبانة، لأن الجنازة كانت تشيع سيراً على الأقدام حتى مدخل القبر، ثم باتت تشيع سيراً على الأقدام حتى مكان الـ"مؤاجرة" وبعدها ينقل النعش إلى سيارة دفن الموتى ويستقل الراغبون فى المواصلة السيارات، إلا فى الحالات التى يهتاج فيها بعض المشيعين ويصرون على مواصلة السير بالجنازة على الأقدام حباً فى الميت ورغبة فى تعظيم الثواب. المهم من هذا كله أن أمى كانت ترسلنى، أو ترسل أحدًا من إخوتى، إلى هذه السوق لنشترى لها التمر والخوص، أما فطير الرحمة فكانت تعده هى فى البيت

وترسلنا به إلى الفرن. ظلت هذه العادة مستمرة إلى أن تخلت عن عادة الخبيز البيتى ووضعت الـ"ماجور" فى "بير السلم"، فصارت ترسلنا لشراء الفطير والبرتقال مع الخوص والتمر لزوم زيارة الخميس التى تقوم بها هى وجدتى لمقابر الأقارب فى الخميس من كل أسبوع. مما كان يشدنى فى هذه السوق ويشد غيرى بكل تأكيد، عم "عثمان". هكذا كنا نسمى هذا الأسوانى الأسود اللحيم، صاحب الجلباب الأبيض الناصع، والسن الأبيض الباسم، الذى يبيع أجود التمور وأكثرها جفافاً. وكانت نداءاته على بضاعته مميزة ونادراً ما كان يخرج على نداءين هما: "يا ناشف"، و"بالشاكوش والجادوم" والجادوم هو القادوم دلالة على صلابة التمر وعدم وجود رطوبة فيه. كانت أمى تطلب منى دائماً شراء التمر من عم "عثمان" وكنت أنا أحب شراء التمر منه.

فى الجبانة لم أشاهد أمى تندب أو تولول أو تنوح، كما لما أشاهدها تشارك بحمية أو بغير حمية القريبات الجالسات أمام فتحة المقبرة المغلقة التى غطينها بالخوص وغرقن فى الثرثرة والنميمة ومضغ سير فلانة وعلانة وترتانة، أو الشكوى من أفاعيل الأزواج ومصايب الأولاد و"الطبخة اللى باظت" و "الخبيز اللى اتحرق فى الفرن". فقط كانت توزع فطير الرحمة وما معها على "مقاطيع" الجبانة، وتلتفت إلى "الفقى" المستأجَر لقراءة القرآن أمام مقبرة الميت العزيز.

سلكتْ أمى، بعد كل زيارة من ملك الموت لبيتنا، ذات المسلك الذى اعتدناه منها عند زياراته لبيوت الأقارب والجيران. فعلت كل شيء يتفق والأصول والواجب. هوّتْ وشمستْ ونشرتْ وبخرتْ وعلقتْ إشارة الحداد، وجلبتْ الفقى ليقرأ القرآن للمعزيات اللائى يفدن إلى البيت، والواعظة لتعظهن، ووزعتْ المصاحف والصدقات على روح أبى وروح جدتى، وصارتْ تتجه إلى الجبانة حاملة فطير الرحمة وسلة الزيارة والنقود لتوزعها على "مقاطيع" الجبانة كل خميس، ووضعتْ على فتحة مقبرة العائلة خوص النخيل، ورشت الماء عليه، إلى أن أوهنها المرض. وحينما ودعت دنيانا اكتشفنا أنها أعدت لكل شيء عدته، وأنها حرصت على ألا تكلفنا شيئاً يذكر. أقمنا لها المراسم المعتادة، وصرتُ وأخوتى وأختىّ نتردد على مقبرة العائلة التى تضم أصولنا: جدتى لأبى وأبى وجدتى لأمى وأمى وأطفال هبطوا إلى الدنيا موتى، انتظمنا فى البداية ثم ما لبث هذا الانتظام أن تشرذم لأن مشاغل الدنيا جذبتنا.

(٧)
أمي الولود

أعجب لهذه السيدة العظيمة كيف قدرت على تربية تسعة من الأبناء، بينما تشكو الواحدة من أمهات هذه الأيام صعوبة تربية الابن الواحد أو الابنين، ومن رماها قدرها بتربية ثلاثة أبناء تضع نفسها موضع الشهيدات. أمي كانت ولوداً. نحن التسعة من بقينا لها من أولادها فثمة آخرون، منهم من مات بعدما ولد، أو مات فى بطنها، أو هبط إلى الدنيا ميتاً. أذكر أن أمي أطلقتْ على الذى هبط ميتاً اسم "منسي".

"منسي" هذا خرج من بطنها بسبب سقطة سقطتها على السلم.

بينى وبين أخى الأكبر "على" أكثر من سنوات خمس، أنجبت خلالها أمي ثلاثة إخوة: بنت وولدان.. البنت كان اسمها "بدور"، واسما الولدان "فرج" و"أنور".. الثلاثة رأوْا نور الدنيا، وعاشوا فيها أزماناً قصيرة، ثم غادروها قبل أن أولد.

مع ما يجلبه الإنجاب من مشاق استمرت أمى فى تعمـــير الـــدنيا بالذرِّية وفى تدعيم أسرة عليوة بالــ"خِلفة" حتى استأصل لها الأطبـــاء "بيت الوِلْد" فى المستشفى نمرة ٦ بالإسماعيلية.

لماذا كل هذا العدد؟..

إنها ثقافة ذلك الوقت. التباهى بالفحولة والخصـــوبة، و"عـــزوة" الأولاد.

المتعلمون وغير المتعلمين كانوا يفعلون هذا!.

يضاف إلى هذا أن "الكوبانية" التى هى شركة قناة السويس كانت تضيف علاوة مالية إلى مرتب أبى كلما رزق بمولود جديد، وتستمر فى صرف هذه العلاوة حتى يـــبلغ سن الرشد. وهذا فى اعتقادى ســـبب جوهرى، فعندما كان متوسط الراتب السائد هو سبعة جنيهات كـــان راتب أبى يتجاوز المئة جنيه.

العائشون منا تسعة: على، قاسم (الذى هو أنا)، رمضان، فـــائزة، مسعد والسيد العربى (توأمان)، محمد، آمال، ومنتصر أصغرنا.

لم تضع أيًّا منا إلا فى البيت. لم تنتقل إلى مستوصف أو اســـبتالية، ولم تكن لتلد إلا على يد الـــ"داية"، لم يولدها طبيـــب أبـــداً، وكـــل ولاداها طبيعية، ولم يعرف مشرط القيصرية طريقه إلى بطنها، ولم تعرف "محاليل تحمية الطلق" طريقها إلى عروقها. كانت تقوم من فوق طشت

الغسيل إلى سرير الولادة. حتى كرسى الولادة ما كانت تـــدخل بـــه الداية بيتنا.

عندما يأتيها الطمث تكون جدتى لأمى غاية فى التوتر. مع دعواتها تخرج من غرفة النوم بأشياء وتدخل بأشياء. فى الداخل الداية وأقـــل القليلات من القريبات. لسان جدتى لا يتوقف عن بعث الدعوات إلى الله بأن "ينتع" ابنتها بالسلامة. لا تهدأ ولا يهدأ أبى المتطلع إلى ما ورا السقف أملاً ورجاءً، ولا نهدأ نحن إلا حينما نســـمع "وأوأة" المولـــود وتخرج إلينا جدتى لأمى أو الداية أو أية قريبة ممـــن هـــن بالـــداخل بالـــ"بشارة" وتقول لأبى "مبروك يا سى مسعد.. خش بارك للوالدة". ويدخل أبى ليؤذن فى أذنى المولود.

"حِلل" الماء الدافى، وقد اصطبغ بالأحمر، تخرج من غرفـــة النـــوم لتـــُدلق فى الحمام؛ والمشمعات تؤخذ أيضاً إلى الحمام لتـــُغسل ممـــا انسكب عليها من دم أمى؛ أما المشيمة (الـــ"خَلاص") فلـــها طقـــس خاص لا ينبغى التخلى عنه، فلا بد أن يُلقى فى مياه جارية ليظل رزق المولود جارياً، وجريان الماء هو جريان الحياة، وهو تعويض رامز عـــن الماء المضغوط فى تكور البطن؛ ومن يُلقيه يجـــب أن يكـــون ذا وجـــه بشوش ومبتسمًا، فمع اتساع الدوائر الناتجة عن إلقاء الـــ"خَلاص" فى الماء الجارى تتسع ابتسامات المولود فيصير مثل من ألقى بـــ"خَلاصه"، بشوش الوجه باسم السن.

لماذا هو "الخلاص" فى نطق أهل بيتنا وبيـوت النـاس، ولـيس "المشيمة" كما تقول كتب العلوم فى المدرسة؟.. سؤال شغلتُ نفسـى بمحاولة الإجابة عليه لفترة وما توصلت إليه كان احتماليًا وليس يقينيًا. هكذا هو الحال مع أغلب المعتقدات الشعبية. ملخص ما توصلتُ إليه، ويحتمل أن يكون صحيحًا وغير صحيح، هو أن الخلاص يعنى خلاص روح المولود من روح أمه. هل هذا صحيح؟.. لا أعرف.

حينما تختارنى جدتى لأمى للقيام بمهمة التخلص من المشيمة كنتُ أسعد بهذه المهمة. تضع بين يدى صُرَّة قماشية مترجرجة دافئة وتقول لى:

"توكل على الله"..

فأتوكل عليه وأجرى إلى الـ"قنـال الـداخلى" أو إلى البحـر. الـ"قنال الداخلى" أيسر، لأن به سـقالات يمكـن منـها تطـويح الـ"خلاص" إلى وسط القنال حيث العمق العميق؛ أعمق منـه قنـاة السويس لكن الوصول إلى مياهها عسير بسبب أسوار الجمارك، أمـا ركوب المعدية المتجهة إلى بورفؤاد بالصُرَّة التى قد تسيل منها الـدماء فأمر محرج ومثير للشبهات، كذلك محاولة إلقائها من فـوق "حجـر سبس"، وقد لا أتمكن من إلقائها إلى الممر الملاحى إلا بعـد "سـين" و"جيم". لذا أفضل الـ"قنال الداخلى". ماء البحر أكثر جرياناً، لكنه يتطلب الخوض فيه لأتمكن من رمى الـ"خلاص" بعيداً عن البر، ولأن

الموج قد يكون من القوة فيلقى بما رميته على الساحل، لذا فإننى اضطر إلى ارتقاء حجر سعيد فى البعيد للقيام بهذه المهمة؛ وبما أن حجر سعيد لسان صخرى يفصل بين البحر وقناة السويس فإن وجودى فوقه يتيح لى القيام بأحد أمرين إما إلقاء الـ"خلاص" فى البحر أو فى قناة السويس. المهم أننى فى كل مرة كنتُ ألقى فيها بـ"خلاص" كنتُ أفكر لبعض الوقت فى السمك الذي يأكل متعلقات أخى أو أختى وأقول فى نفسى:

"السمك بياكل لحم أخويا أو أختى، وأنا باكل السمك، يبقى أنا باكل لحم أخويا أو أختى"!..

وفى كل مرة أهم بالابتعاد عن أكل السمك كنت أعود إليه لحبى الشديد له.

عقب كل ولادة تشرب أمى الحِلبة المغلية والمُغات، الذى تكون قد أعدّته هى قبل الوضع لتشرب منه وتوزعه على زوارها ممن يأتون للتهنئة والمباركة فى السبوع؛ وأول ما تأكله الفرخة "الشَمُرت" أو الأرنب المسلوق؛ أما الـ"نونو"، ويظل المولود "نونو" إلى أن نكتشف أننا نناديه باسمه من تلقاء أنفسنا، فيُعطىَ شراب الينسون فى البداية ثم ترفعه أمى إلى صدرها ليرضع منها لبن "السرسوب"، ويتم إلباسه الملابس القطنية الأنيقة التى اجتهدت أمى وجدتى فى حياكتها وتطريزها وتجهيزها له قبل مجيئه. إذا كان الـ"نونو" بنتاً فهى "نونّة"، وتجرَى لها عملية كنتُ أراها

شديدة التوحش، فالداية تسخن إبرة حتى تحمر، وبيد ثابتة وفم ضحوك ــ يا للجرأة ــ تثقب بها أذنيها لزوم تركيب الحلق. قاسية القلب كانت تُدخل فتلة فى كل ثقب وتربطها لحين تركيب الحلق. يا للتوحش.. لكن البنت الـ"نونـّة" ما كانت لتهتم بما أهتم به أنا وصراخها من الإبرة المحماة ضائع فى صراخها المعتاد ليأتى موعد السبوع.

موعد السبوع هو موعد السعادة والحبور والطراطير وتوزيع الأكياس التى تحوى خليطـاً من الفول السودانى والحمص واللوز والبندق والملبس والشيكولاته والعملات النقدية الورقية والشموع الملونة وغير الملونة، الرفيعة والغليظة، القصيرة والطويلة، المُزَيَّنة بـ"فُيونْكَة" وغير المُزَيَّنة. هو الموعد الذى تكون صينية المولود قد أُعِدَّتْ فيه ووضعتْ إلى جوار رأس الـ"نونو" أو الـ"نونـّة" وقد حُشدت بالحبوب السبع (قمح وشعير وذرة وفول وعدس وفاصوليا ولوبيا)، والبخور، والملح، والذهب. وتَصَدَّرها جميعاً المصحف الشريف وجاورت المصحف القلة للبنت أوالإبريق "أبو بزبوز" للولد. هو الموعد الذى يوضع فيه الـ"نونو" أو الـ"نونـّة" فى الغربال، ويُحمل ويحاط بكل شىء جميل. فيه تأتى الداية ومعها أوراق تقيد فيها اسم الـ"نونو" أو الـ"نونـّة"، الاسم الذى يستغرق اختياره وقتاً طويلاً فى النقاش بين أمى وأبى. نقاش يبدأ وأمى فى شهور حملها الأولى، وغالبـاً ما لا ينتهى إلا أمام الداية يوم السبوع..

بعد عصر اليوم السابع يبدأ التجهيز الفعلى للسبوع، وما بين صلاتى المغرب والعشاء تحدث الهيصة، توقد الشموع ويُرش الملح فوق الرءوس و"حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى"، ويعم الغناء "الصلاة عليه.. الصلاة عليه.. جبنا المولود وفرحنا بيه"، ويُدق الهون دقات سبع، و"اسمع كلام أمك.. ما تسمعش كلام أبوك"، وتتحرك المبخرة. غيرُنا من الجيران ينزل بمولوده إلى الشارع ويطوف به بين المارة، أما فى بيتنا فالطواف به فى الحجرات، وأقصى ما يُفعل أن يُنزل به السلم ويعاد إلى حضن أمي دون الخروج به إلى الشارع.

وسط كل هذا الضجيج يشرب الكبار الـ"مُغات" ساخناً، ويأكل الصغار الـ"رُزّ بِلَبن"، وتقدم الهدايا للـ"نونو" أو الـ"نونـّة"، وهى متنوعة ما بين سلاسل وغوايش وحلقان وخواتم ومصاحف وملابس داخلية وخارجية أو لعب أطفال، وكلها تصلح للمولود سواء كان ذكرًا أم أنثى باستثناء الغوايش والحلقان فتقدم للمولودة الأنثى فقط؛ وإلى جانب الهدايا تقدم الـ"نقطة" مبالغ نقدية، ولا ينصرف المنصرفون إلا ومعهم أكياس الفول السودانى وما خالطه من أشياء لذيذة، والـ"بونبونيرات" بما فيها من شيكولاتة وملبس لوز وكراملة، وقطع مجهزة من المغات الناشف فى أطباق مغطاة بالقماش النظيف؛ وما إن ينصرف المحتفلون جميعهم حتى تُخْرِج أمي ورقة وقلماً وتبدأ فى

تسجيل اسم كل من قدم هدية أو نقوطـًا والنوع والمقدار حتى يتم الرد لمقدم الهدية والنقوط فى أقرب مناسبة.

هذه هى أمى.. أمى التى لا ترقد فى الفراش أو "تاخد راحتها" مثل سائر الأمهات حتى "ترَبْعَن"، أى تَمضى على وضعها المولود أربعون يومًا، ولا حتى "تسَبْعن"، أى حتى يحين موعد السبوع، وإنما هى تنهض وهى بعد نفساء للعمل فى البيت.

فى القديم كان للختان موسم متصل بيوم عاشوراء. يأتى المزين الذى اتفق معه الأب فى زفة قوامها فرقة من فرق الموسيقات النحاسية الشعبية بملابسها شبه العسكرية إلى بيت الولد الذى سيُختن، المزين دائماً ما يحمل حقيبة جلدية أو خشبية أو قماشية صغيرة فيها عدة الشغل: المقصات والأمواس وجلدة سَن الأمواس والقطن والشاش، الولد يكون إما منكمشاً فى انتظار، أو صارخاً راغباً فى الإفلات.

تأخر ختانى.

فى السابعة من عمرى قرر الثلاثة أمى وأبى وجدتى لأمى أنه لا يصح تأخير ختانى عن هذه السن، وإزاء حالة الرعب التى تلبستنى فقد تفتقتْ أذهان الثلاثة عن فكرتين، أُولاهما تبلورت فى الاستغناء عن الزفة، والثانية ختن أخى "رمضان" (رحمه الله)، الذى يصغرنى بعامين، معى؛ وبدأوا يتحدثون أمامنا عن الطهارة الجميلة والـ"طُهور" الذى يُدخل الولد طوْر الرجولة. أحاديث كهذه ما كان لها إلا أن

تزيدنى رعباً فوق رعب فرُحتُ أتربص بهم وبما يفعلون. صار المحتمـــل يقينـــاً لّما قامتْ أمي بتفصيل قفطانين لى ولأخي، ولأننى أو أخـــى، أو أى واحد من ذكور البيت لا يلبس القفاطين فقد تيقنتُ مما يـــدبرون، وصرتُ أفزع ليس من كل زفة تمر من تحت منزلنا، بل من كل مـــزين يمشي تحت بيتنا، إلى أن جاء اليوم الموعود.

رأيت الأسطى "العوضى" وصبيه "الجمل" أسفل بيتنا فتقـــافزتُ فوق كل شيء حتى خرجت من باب الشـــقة، ولأنهمـــا وأبى كـــانوا يصعدون السلم فقد اتجهتُ إلى السطح هارباً بنفسى، من هتاف أمي بى عرفوا أين أنا؛ فصعدوا إليّ وأنزلونى. ألبستنى أمى القفطان وتركتنى مع أبى والأسطى المزين وصبيه، الذى كتفنى تكتيفة لا فكاك منها، لتقف هى وجدتى خارج الغرفة التى سأجزر فيها، ومعهما "رمضان" انتظاراً لدوره.

بدون بنج تم طهورى، صرختُ و"فلفصت" وجرحـــتُ نفســـى، وقتها تمكن الواجف الخائف الواقف بين أمي وجدتى لأمى فى الخارج من الإفلات منهما وجرى كـــ"السمانة الدايخة" هنا وهناك، لكنـــه لم يتمكن من الوصول إلى الباب الخارجى، فظلّ يقفز مـــن حجـــرة إلى حجرة، إلى أن اقتحم المطبخ فسقط فى حلة شوربة البط وهى فوق النار وأسقطها، ووقع فيها فأمسكتْ به أمى وجدتى، وأســـلماه للأســـطى العوضى وصبية بعدما أسلمانى لهما فزغردتْ جدتى، بينما لفـــّت أمى

الـــ"قلفة" فى شريط قماشي وربطت الشريط على زندى، ورحتُ أسمع صراخ أخي.

ختان البنات مختلف إذ كان يتم فى صمت، ولا يُجرى إلا بعد أن تكبر البنت وتشرف على مرحلة المراهقة، وتقوم به نساء متخصصات، منهن المستكنّات فى بيوقمن اللائى لا يخرجن إلا بالطلب، ومنهن مـــن يجبن الشوارع مناديات على الراغبات والراغبين فى ختان بناقمن. مـــن الأخيرات عجوز كان نداؤها "طاهرْ.. طاهرْ.. طاهرْ"، وأخرى كـــان نداؤها "أدق وأطاهرْ". عند ختان أختىّ فى السن التى رأتْ أمى أنـــه ضرورة لكل منهما، استدعت أمي واحدة من المستكنات فى بيـــوقمن، وطبيعى أن تخرجنا نحن الأولاد الذكور من البيت.

(٨)
أمي الدءوب

ياه يا أمي..

كانت تكنس وتغسل وتطبخ وتربي، وكل ما تفعل كان منضبطاً.

لم تكن المكانس والغسالات والثلاجات الكهربائية قد اخترعتْ، ولم يكن البوتاجاز قد ظهر، والبيت كان كبيراً، عمارة محدودة المساحة مقصورة علينا من بابها، بدأت بطابق ثم صارت ثلاثة طوابق وسطح، كل هذه المساحة وهذا الارتفاع واقع ضمن مسئوليات أمي ومعها أمها.

المقشات كانت وقتها من ليف النخيل والمنافض من الخيزران، والغسيل كانت له حلل مخصوصة وطشت، والثلاجة التي حسدنا عليها الجيران كانت خشبية تُبَرِّد المياه عن طريق مواسير الـ"سبرنتينا" وألواح الثلج التي نشتريها لنضعها فوقها، والمواقد كانت بوابير الجاز الـ"بريموس" بالطاسة العادية والطاسة الساكتة، وللشاى والقهوة الـ"سبرتاية"، وأوانى الطبيخ من نحاس، والهون يقوم بما يقوم به الخلاط الآن.

وفوق كل هذا كانت تحيك لنا ملابسنا المترلية بالماكينة الـ"سنجر" ــ أم رجلين ــ الموجودة بالبيت، وتفد إليها بنات الأسرة ليتعلمن على يديها الحياكة والتطريز. يفدن إليها أيضاً كي تنقذ لهن الفساتين والجونلات والتاييرات التى لا يفلحن فى حياكتها بلمساتها السحرية وتطريزاتها البديعة، خرز وترتر وآچور. كان للأچور "طارة" من "الأبلكاش" الرقيق الناعم مكونة من حلقتين. حلقة داخل حلقة لا يفصل بينهما ثمة فراغ. بهذه الـ"طارة" كانت تطرز الستائر وأكياس المخدات وملايات الأسِرّة؛ ومثلها ياقات وصدور وأكمام وأذيال الفساتين والصديريات والجونلات والتاييرات والقمصان.

أجمل البيچامات الصيفية والشتوية والطواقى "أم حيطة" كانت تفصلها لنا أمنا، لنفسها ولجدتى وأختى كانت تفصل أيضاً أجمل قمصان النوم وفساتين "البيت" وفساتين "الخروج". أحب البيچامات إلى نفسى هى البيچامات التى تشبه زى ضباط جيش أحمد عرابى. كنتُ أشعر بالزهو وأنا أرتديها، ولاستكمال الأبهة كنت أصنع سيفاً من جريد الأقفاص وأثبته إلى أحد جنبىّ كأننى واحد من ضباطه، أو كأننى "عرابى" شخصياً.

وكانت لديها إبرتان طويلتان سحريتان تصنع بهما وبكريات خيوط الصوف الملون ما نحتاجه ويحتاجه الرضع من إخوتى من أعمال التريكو: الـ"لاكاليك" والطواقى والـ"جوانتيات" والـ"شيزات" والـ"بلوفرات".

ما من شتاء جاء إلا كان لدينا من هذه الأشياء الجميلة ما يكفينا.

كانت أمي تفعل كـل هـذا، وكانـت تطيـل الـ"شـيرزات" والـ"بلوفرات" حسب سن الواحد منا ونموه الجسـمانى، وكانـت تقصرها إذا ما زهد فيه الكبير لأنه ضاق عليه، أو لأن الصـغير أراده بالرغم من أنه واسع عليه. الـ"شيرزات" على بسـاطتها، حيـث لا أكمام لها ولا ياقات، كانت معقدة الزركشات؛ على العكـس منـها الـ"بلوفرات" فلها أكمام وأساور وياقات طويلة وقصيرة، وفى المقابل فإن الزركشات فى البلوفرات أقل منها فى الشيرزات، ومنها ما ليس به زركشات على الإطلاق. ظلت أمى تنسج لنا بهاتين الإبرتين وبكريات الصوف التى كنا نبتاعها من محل "التابعى لبن" الخردواتـى الكـائن بشارعى السواحل والدقهلية أعواماً تلو أعـوام إلى أن توقفـتْ، لأن الصوف أضحى رديئاً، والبلوفر صار "يكش" من أول غسلة، أو لأنه ألوانه "بتبهت"، أو لأنه "بقى غالى واللى بنشتريه جـاهز أرخـص"؛ والحقيقة أن مشغوليات البيت مع مضى الزمن كثرت إلى حد الإرهاق.

فى مرحلةٍ أصابتنا "طوشة" تربية القطط فى البيت على الرغم من اعتراض أمى وجدتى لأمى. "نعطف عليها.. آه.. نربيها فى البيـت.. لأ". كنا نأتى بالقطط من السلم وندخلها البيت، ونشـترى القطـط السيامى الصغيرة بقروش قليلة، ونضع لها اللبن فى الأطباق ونراقبـها وهى تلحسه، ونعطيها السمك الصغير ونتابعها وهى تأكله. أمى كانت

تقول: "عايزين تأكّلوا القطط وتشربوها أكّلوها وشربوها بره البيت"، لجدتي أسبابها الأسطورية، أما أمي فلم تكن تكف عن سرد الأمـــراض التي تصيب الصدور والجلود بسبب القطط، و:

"ماتنسوش البراغيت.. حد منكم يحب يقعد يتهرش طول النـــهار والليل؟"..

لكنّ سببًا آخر كان يدفعها لرفض وجود القطط داخل البيت هو عبثها بكريات الصوف وشدها الخيوط و"كعبلتها" في بعضها البعض. لمّا قالت أمي بلهجة حاسمة:

"من النهاردة مفيش بلوفرات ولا سويترات ولا جوانتيات"..

من فورنا طردنا القطط وأبعدناها عن بـــاب البيـــت والعمـــارة والشارع.

اعتزاز أبي بآخر بلوفر صوف صنعته له أمي كان كـــبيراً. كـــم اشترى لنا ولنفسه بلوفرات كثيرة، لكنه داوم على ارتداء هذا البلوفر الكحلي كل شتاء، به يذهب إلى العمل، وبه يخرج إلى المقهـــى، أو إلى أي مكان آخر. طبيعي والأمر هكذا أن تتهرأ خيوطه مرة مـــن عنـــد الكوعين وأخرى من عند طـــرفي أســـورتي الكمـــين، فصـــارت لا تـــخـــرج إبرتي التريكو إلا لإصلاح بلوفر أبي بإضافة ســـطور مـــن الغـــرَز إليه بدلاً من سطور الخيوط التي تهرأت، وقد يحدث ألا تجـــد خيوط صوف من نفس النوع أو نفس درجة اللون. حدث هذا فعـــلاً

عندما هرأت خيوط منه فى منطقة البطن واختفت تماماً خيوط الصوف التى حيك بها البلوفر فأدخلت على البلوفر خيوطاً أخرى بيضاء ومتدرجة الزرقة وأعادت تشكيل البلوفر وكُمَّيه، فصار جديداً تماماً. وظل أبي يرتدى هذا البلوفر من باب الاعتزاز، وظل على اعتزازه به حتى هرأ تماماً، وأَسَنَّ هو وأمي، فاستخدم بقاياه كرباط صوفيّ لمنطقة الخَصر يرتديه تحت ملابس الشتاء.

لقد كان لدينا يقين بأن أمنا، من فرط مهارتها، تمتلك مهارة تحويل الجورب إلى بالطو.

وعلى السطح كان الحمام والدجاج والبط والإوز والكتاكيت، وفرن لفقس البيض، وكانت هى وجدتى ترعيان كل هذا، وإن تمكنت جدتى من تحويل السطح إلى مملكتها الخاصة، مملكة شعبها من الكتاكيت والفراخ والبط والإوز والأرانب والحمام. مملكة هى أبهى ما تكون نظافة وترتيبًا، لدرجة أننى لما نالتنى حرفة الأدب وصرتُ ميالاً إلى التأمل كنتُ لا أترك غرفتى إلا إلى هذا السطح.

فى صِغَرنا كان لكل واحد منا كتكوته الخاص يسمى باسمه، ولا يشاركه فيه أحد آخر. ما إن تفقس البيضة ويخرج الكتكوت بزغبه الأصفر الجميل ومنقاره البديع، حتى تتم مراسم التسمية والتنبيه على من صار الكتكوت كتكوته برعايته ما أمكن. بطبيعة الحال لم تكن

رعاية أى منا لكتكوته سوى مناجاته بألفاظ التدليل أما الرعاية والعناية الحقة فمن نصيب جدتى وأمى.

لم تتوقف هذه العادة على ما يخرج مفقوسًا من بيض الدجاج، وإنما امتد كذلك إلى ما يخرج إلى النور من بيض الإوز والـبط والحمـام. المشكلة الكبرى قد تحدث مع صغار الأرانب، فقد تلد الأرنبة عدداً لا يكفينا جميعاً، فيحدث التصارع، كل منا يريد أرنبه الـ"نونو"، ويتعجل الحصول عليه، وتظل أمنا تتعامل معنا باللين والحنو، والحسم أحيانـاً، حتى يقنع من لن يربح تسمية أرنب باسمه بانتظار الولادة الثانية مـن ذات الأرنبة أو من أرنبة أخرى.

(٩)
أمى الطاهية

لم يحدث يوماً أن تأخرتْ وجبةٌ عن موعدها.

يأتي حامل أعمدة الأكل بدراجته و"مارينته" المتوازنة على كتفه، المعلقة بها أعمدة أكل عمال "الكوبانية" فتناوله، بعد أن يهبط من دراجته بأعجوبة لاعب الأكروبات دون أن يهتز ما يحمله، عمود الأكل الخاص بأبى مع وصية:

"خللى بالك.. فيه شوربة أوعى تِتْدَلدق".

أو:

"الأكل سُخن أهوه.. أوعى توصله بارد لسي مسعد".

سي مسعد هو أبى، ويومياً، بعد عودتى من المدرسة، وقبيل موعد غدائنا، ترسلنى بعمود الأكل إلى جدتى لأبى، هناك بين شارعى الروضة والمقدس وشارعى كسرى والبلدية بُعَيْد سوق السمك باتجاه شارع محمد على، أذهب إليها بعمود الأكل فتعطينى الجدة التعريفة أو القرش أو الملبسة. إن تأخرت ترسل أحدًا من أخوتى فيفوز هو بما كانت تعطينيه.

فى الشتاء، نعود من مدارسنا فنجد الغداء جاهزًا، وفى الصيف تطل علينا من الشباك، مجرد إطلاله تكفى لنترك زملاء اللعب فى الشـــارع ونصعد لتناول طعام الغداء. وعلى الرغم من أن لدينا "ترابيزة سفرة" عظيمة الشأن فإن "الطبلية" الخشبية كانت ـــ وقت أن كنا صغاراً ـــ هى الفائزة بشرف جلوسنا إليها.

كل ما فى عالم الطهى من ممتعات كان يخرج من مطبخ أمـــى. اللحوم الحمراء واللحوم البيضاء والأسماك، تلـــك الأصـــناف الـــتى وصفتها الذائقة الشعبية داخل المدينة بالـــ"زَفَرْ"، وأكلنـــا فى أغلبـــه "زفر"، وفى نادره "تفليتة"، و"تفليتة" تعنى أن الوجبـــة أفلتـــت مـــن الـــ"زفر" أو أن الـــ"زفر" أفلت من الوجبة. ولا تكون هناك "تفليتة" إلا فى حالة الشُّح المالى أو عند ندرة وجود "الزفر" ـــ بأنواعـــه ـــ فى السوق، أو ويحدث هذا كثيرًا من فرط الزهق من أكل الزفر.

طبيخ اللحوم الحمراء أشكال وألوان، مشويٌّ ومسلوقٌ ومُحَمَّرٌ؛ منقوع فى بصل ومرشوش بزعتر ومُخَلـــلٌ بفصوص ثَوْم؛ منه المدقوق بالمطرقة والمفروم بالمفرمة؛ ومنه المعمول شيش كباب على الفحم، ومنه المعمول كباب حلة بالبصل؛ قد يغطس فى سلطانيات الشوربة وقـــد يقبع فى طواجن الـــ"يخنى"، وأمى تتفنن فى تجهيز وتطييب كل ذلك. لا يهمنا من اللحوم كونها لحوم عجول: "علف" أو "مسكارى" أو "بتلو"، لحوم خرفان وكباش ضانى، أو حتى لحوم الجمال والمعيز؛ من يهتم بهذه

المسألة هم الكبار، خصوصاً أمي، وكانت تفضل لحوم العجول بصنفيها الـ"مسكارى" والـ"بتلو" وتأنف من الـ"علف" لأنها "عجوزة" و"العيال بتمضغها بالعافية"، أما اللحوم الضانى فجميلة خصوصاً الـ"رِيَشْ" المشوية والـ"الليّة" مع الطواجن والطبيخ المسبك.

ما فى البيت من دجاج وبط وإوز وأرانب وحمام، تذبحه أمى ذبحًا شرعيًّا وهى تُبَسْمِلُ وتدعو للذبيحة بالصبر على ما "بلاها" ثم تكفى فوق المذبوح طبق الغسيل الغويط داخل الحمام حتى لا "يطرطش" على الجدران والأشياء، وفى الماء المغلى تغمسه، ثم تبدأ هى وجدتى فى نزع ريشه. الأرانب تعفيها أمى من الماء الساخن لتقوّم بسلخها قبل التنظيف. والحمام تنتف ريشه دون ماء مغلى.

الشوربة أساسية فى طبخ "الحِوان"، بعدها التحمير والوضع فى الصواني. بمرقة البط تصنع لنا أمنا الـ"أمَمَة"، ويا لروعة "أمَمَتك" يا أمى، رقائق الجلاش الذى غالباً ما كانت تصنعه هى بنفسها منفردة أو بمساعدة جدتى بفرد العجين المخصوص فوق "الطَبْليّة" بالـ"نشّابة" حتى يصبح فى رِقّةِ وَرَقَةِ "السيجارة" ثم ترصه فى الصينية المدهونة بالسمن وتسقى الرقائق بالمَرَقة "الرّاقة بعد الرّاقة" مع وضع الحشو اللذيذ الجامع بين البصل الـمُحَمَّرِ فى الزيت وقطع الكبد والقوانص والزبيب والمكسرات ثم نذهب بها إلى الفرن وتُقطّع "سمبوسكات".

أما البط ذاته فغالباً ما يُحشى بالـ"مَرْتة"، سواء كان من الـبط

البلدى أو المُرجان أو من الطيور الخريفية كالبط الـــ"بلبـــول" أو الـــ"شرشير" أو حتى الـــ"سِمَّان" والـــ"بكاتشين" والـــ"عصافير". كله باستثناء الـــ"باكتشين" والـــ"عصافير" يأتى إلى بحيرة المنزلة كل خريف مهاجرًا من برد أوروبا، لتنتهى به رحلته محشواً بالـــ"مَرْتة" وراقداً فوق طبليّتنا؛ والـــ"مَرْتة" بصل مفروم مدعوك بالكمون والملـــح ومخلـــوط بالزبيب. تسلق فيه هذه الطيور المحشوة ببصلها المخصوص هذا فتنتج شوربة ذات أريج خاص، فتنتشلها أمى من الشوربة وتحمرها بالسمن، أما الشوربة فتأخذ بعضها لتطبخ به الأرز فيكتسب نكهـــة مغـــايرة. العصافير تعامل نفس المعاملة، وكنا ونحن صغار نحب أكل العصـــافير، يشتريها أبى هى والسمان بالـــ"طُورَة" أو بالـــ"طزِّينة" (الدزِّينـــة) ـــ الـــ"طُورَةُ" مكوَّنة من أربعة، والـــ"الطَزِّينة" دستة ـــ ما كان يشتريه أبى لا يقل عن "سبع طورات" أو "طزينتين ونص"، وتنهدُّ هى وجدتى فى نتف الريش والتنظيف والطهى.

بريش الطيور المهاجرة الناعم، ريش البطن والصدر، كانت أمـــى تصنع لنا الوسائد والمخدات المريحة، أما ريش الأجنحة فكانت تصـــنع لنا منه المراوح.

ألذ "زفر" بالنسبة لى كان "زفر" السمك الذى تطبخه أمى. كلما كان هذا "الزفر" من أسماك القاع ـــ على كثرة أنواعها وقلة كمياتهـــا وارتفاع أثمانها ـــ كانت درجة الالْتِذاذ بأكلها أعلى منها عند أكـــل

أسماك السطح. أنواع أسماك القاع، والقريبة فى حياها من القاع، كثيرة، منها: الوقار، الدنيس، القاروص، اللوت، البورى، النُقـــْـط، غطــا موسى، الساورديا "السفرديا"، البلاميطة، القرش، الإشبين "الشبين"، الحِدَّاية، السيوف، الحنشان، البربونى، المرجان، السارغوس؛ والمهدبات أيضاً تعيش فى القاع أو قريبـــة منـــه كــــ"الســـيبيا"، "الســـبيط"، الكاليمارى، والأخطبوط؛ كذلك القشريات وفى مقدمتها الجمـــبرى "الريبيان"، والكابوريا "أبو جلمبو أو الحنجل"؛ أما أسماك السطح ففى مقدمتها السردين، الشـــبار "البُلطـــى" بأنواعـــه، "أبـــو منقـــار"، الـــ"بطحوش"، الـــ"زلغانة"، و"أبو كرش". السردين والشبار هما أميرا هذه النوعية من الأسماك. أما القواقع فبعضها مُتيسِّر كالـــــ"خلـــول" والـــ"بكلويز" وبعضها نادر كــ"الاختنيا" والـــ"سُرنباق". كل هـــذا كانت تقدمه لنا أمنا لذيذاً وممتعاً.

السمك المشويُّ يُشوَى فى الفرن حسب طلبها، إما "على البلاط" وإما فى الـــ"صاج"، وَشَيُّ السردين فى الـــ"صاج" يعطى طعماً ألـــذ، وللسمك المقلى رائحة مشتهاة بفعل الثوم والتوابل و"طشـــة" الخـــل الساخن، وتشوى كل الأسماك باستثناء "الشبار" الأبيض والمهـــدبات والقواقع والقشريات.

الأسماك الكبيرة والمتوسطة تنظف وتقطَّع وتقلى فى الزيت، إلا أن أطيبها مذاقاً سمك الوقار، أما السمك المسلوق فَصِحِّيٌّ وخفيفٌ علـــى

المعدة، ولا تسلق كل الأسماك، فالشَّبار الـ"جوابى" الأخضر لا يسلق، لا هو ولا الـ"الحنشـان" ولا "السـردين". ولا الـ"اختينيـا" أو الـ"سُرُنْباقْ". وأمي تجيد طهي السمك بالـ"الدِّمْعَة" (أيْ فى الصلصة) وجميعها يصلح للـ"دِمْعَة" باستثناءات.

غير أن الأكلتين اللتين تفرضان نفسيهما عليّ إذا ما خيرتنا أمنـا "ناكل إيه النهاردة يا ولاد"، فأسبق إخوتى وأنطـق بإحـداهما همـا الـ"صيادية" والـ"سنجارى" وكلتاهما أكلة لذيذة، شتائية فى الأصل، لكنهما تطبخان طول العام. وأصلح سمك لهما هو السـمك الـدهنى كـ"البورى" و"اللوت" و"القاروص" و"النقط". "الصيادية" أكلة بنية اللون بسبب البصل الذى يحمر فى الزيت حتى "يغمق لونه" فيطهى به السمك وبشوربته البنية يطهى الأرز فيأخذ ذات اللون؛ أما السـمك "السنجارى" فيتبل بالثوم والليمون والكرفس والخل ليخرج من الفرن ذهبى اللون شهى المنظر والرائحة، وأرزه أبيض.

وصينية "الحنشان" كنا نحتفى بها احتفاءً خاصًّا فالـ"حنشان" لا بد أن يكون كبيراً وكثيراً ليكفينا، والصينية لا بد أن تكون عريضة وعميقة لتستوعب لفات الـ"حنشان" وشرائح البصل و"خَرْطـَات" البطاطس والـ"دِمْعَة". كنا نتحلق حول أمي وهى تعد هذه الصـينية بحرص شديد فى كل مرحلة من مراحل الإعداد بـدءاً مـن غسـل

الـ"حنشان" وسلخه وتقطيعه إلى أجزاء منفصلة ومتصلة فى نفس الآن، و"تخريط البطاطس والبصل بإتقان يجعل كل "خَرْطَـة" فى حجم الأخرى ـ تقريباً ـ حتى يكون "السِوَى" واحدًا. كل هذا يُـرَصُّ فى الصينية بطريقة منظمة هندسياً بحيث يظهر الـ"حنشان" باعتباره سيد الصينية وتزيد الـ"دِمْعَة" الحمراء الصينية بهاء ورونقاً. حمْل الصينية إلى الفرن يتطلب الحرص الشديد خشية الـ"دَلْدَقَة".

فُـزْتُ ذات مرة بشرف نقلها إلى الفرن وبسبب العذاب الـذى عانيْتُه كى أوصلها إلى الفران غير "مدلوقة" توقفتُ عن المنافسة على نقلها، واكتفيتُ بالمنافسة على أكلها، لكن ما من مرة نأكـل فيها الحنشان إلا هبط علينا مَلَك النوم مسرعاً، فَمِنّا من يلحـق بالكـاد سريره، ومنا من ينام وهو جالس إلى الطبلية.

أى طقس من طقوس طبيخ السمك فى بيتنا لا يعادل طقوس عمل "كبيبة" و"كفتة" الجمبرى. ذلك أن كميات الجمبرى، وما أضـخمها من كميات، كانت تدلق فى طشت الغسيل الكبير الذى يوضع علـى "بسطة" السلم وتتحلقه أمى وجدتى لأمى و"أم عبده" خالة أمى وابنتها "فاطمة نصير" وأولادها وأختاى لتقشيره ـ كان وقتها يُعرف شـعبياً بالبرغوت ـ ثم تحمل أمى كل الكمية المقشرة لتغسلها، وبعدها يـأتى دور الدَّق، فالأرز المغسول المجفف، يوضع فى الهون هـو والبرغـوت المقشر، المُصَفَّى من الماء بعد غسيله، ومعهمـا البقـدونس الأخضـر

والبهارات والملح و"هات يا دق" إلى أن يصبح كالعجينة فـيقمن ـــ مجتمعات ـــ بتشيكله فى هيئات مختلفة منها ما هو على هيئة أقراص أو على هيئة مصبعات أو عرائس أو أية أشكال يهواها إخوتى. تكون أمى قد "حَمَّرتْ" البصل الـ"مُخَرَّط" فتضعه هو وما تم تشكيله فى المـاء الذى يغلى ليسلق ويصبح بنى اللون فتنتشله وتقليه فى الزيت، ومنها ما يؤكل هكذا أو يُطبخ فى الـ"دمعة". يوم كبيبة وكفتة الجمبرى هو يوم مهرجانى تجتمع فيه "العيلة واللمة" للمعاونة والمساعدة، وهو يـوم طوافنا نحن الأولاد على الجيران والأقارب بالأطباق المغطـاة بمناديـل السُفرة البيضاء و"ماما بتسلم عليك، وبتقولك دوقى عمايل إيديها".

ما يحدث مع كبيبة وكفتة الجمبرى يحدث كـذلك مـع محشـى الكرنب وورق العنب.

مما عمرت به الطبلية وترابيزة السفرة فى بيتنا "مطبقيات" البكلويز والخلول. كلاهما ينتمى إلى القواقع المصراعية، لكن شتان بينهما فغير كبر حجم البكلويز قياساً إلى الخلول فإن البكلويز نصف دائـرى ذو شكل مروحى، أما الخلول فمثلثة وعلى شيء من الضمور، البكلـويز يُربَّى ويُصادُ من بحيرة المنزلة بـ"خُديدة" معقوفة، والخلول تـُصاد من البحر المتوسط بـ"خَلاَّلة" ذات سلاح حديـدى، البكلـويز يؤكـل مسلوقاً مع تتبيلة خاصة وسلطة الطحينة، والخلول تؤكل مثل البكلـويز مسلوقة مع تتبيلة خاصة، لكن تميز على البكلويز بأنهـا تؤكـل كـذلك

مطهوة بالـ"دِمْعَة" ومملحة. وكانت أمى تبدع فى طهيهما، وقد يكون من المفيد الإشارة إلى أن الخلول ليست هى أم الخلول، فأم الخلول التى أعرفها ويعرفها أبناء جيلى قوقعة حلزونية صغيرة على شيء من الانتفاخ لا يؤكل ما بداخلها بعد طهيه إلا بعد استخراجه بدبوس، لكن شاع هذه الأيـام إطلاق وصف أم الخلول على الخلول التى ما سميت بـالخلول إلا لأنهـا تتخلل قاع البحر فى المنطقة القريبة من الساحل.

أعجب الآن لكميات الحلويات التى كانت تصنعها لنا فى المناسبات وغير المناسبات. كأنها كانت تصنعها لجيش جرار، فأفْواهُ تسـعة أولاد وزوج وجدّتين ــ وفاهها هي نفسها ــ تنتظر "الحِلوْ" المصنوع بيديها.

أطباق "المهلبية" و"البرز بلبن" و"العاشورة" كانت كـثيرة جـداً وكبيرة الأحجام وليست كأطباق هذه الأيام، ومحيط صوانى البسبوسة والبقلاوة كان واسعاً، وقوارب بلح الشام و"اللوكامادس" التى هـى التسمية الـ"اجريجى" للقمة القاضى كانت كبيرة وعميقة؛ وكانـت تطهو لنا المربى فى حلل تشبه القزانات، أكثر أنواع المربى التى كانـت تصنعها لنا كانت مربى: البرتقال، "اللارنج"، المشمش، التين، الجـزر، والطماطم، والبلح، وكانت تتفنن فى صناعة مربى البلح، فتارة تحشوه باللوز وأخرى بالفول السودانى وأخرى بالكرفس المُسَكّر، وأحسب أن الفراولة لو كانت متوفرة فى ذلك الزمان لصنعتها لنا.

"الحلاوة السودة"، التى يسميها القاهريون وغـير البورسـعيديين

بالـ"مفـتـقـة"، لها طقوس خاصة، وعشق خاص، وكنت أتنافس مع إخوتى كى أحظى بشرف إرسالي لشراء مستلزماتها من عطاري الشارع "التجارى" الذى له اسم لم ننطقه أبداً هو شارع "السلطان عبد العزيز".

كانت تحدد لى العطار الذى أشترى منه، وهم محدودون، "العليمى"، "البلاسى"، "الأطروش"، و"البهائى"، ومستلزمات "الحلاوة السودة" مختلفة تماماً عن مستلزمات الحلويات الأخرى، فقوامها العسل الأسود التى تشتريه بالـ"بلاص" من الباعة المتوافدين على الشارع تسبقهم نداءاتهم "العسل الجديد.. عسل الصعيد يا عسل"، أو ترسلنا لشرائه بالـ"الصفيحة" من العلاف أحياناً ومن البقال أخرى، ومع أن العسل الأسود هو قوام هذه الحلاوة فإن شراءه لم يكن يستهوينى استهواء شراء المستلزمات الأخرى، فالعسل موجود فى بيتنا طوال العام أما الأشياء الأخرى فلا نشتريها إلا عند عمل "الحلاوة السودة"، و"الحلاوة السودة" لا تُعمل إلا فى ذروة كل شتاء. إلى العطار الذى تحدده كنت أهرول قابضا على النقود والورقة المكتوبة فيها الأصناف والكميات، ويا لها من أصناف لا نشتريها إلا بشكل دورى حولى، وإن كان ذهابي إلى العطارين له أسباب متعددة طوال العام.

ما أشتريه للـ"حلاوة السودة" متعدد الأسماء والمقادير: "تحويجة"، "عِرْق حلاوة"، "حَبَّة سودة"، "حَبَّة خَضْرة"، "كِتيرة"، "سمسم"، "جوز هند"، و"بُندق". متعتى تكتمل عندما تطلب منى شراء التحويجة وعِرق الحلاوة "حَصَى"، أى بهيئتهما الصلبة، ثم تطلب منى طحنهما، تفعل

ذلك احترازاً من شبهة خلط أى شيء بالمطحون الجاهز. عندما أطلب من العطار طحن ما اشتريته منه يطلب أجرة الطحن حسب أعداد وكميات ما يُطحن، وتتراوح هذه الأجرة عادة ما بين قرشين وخمسة قروش، وما إن أنقده إياها حتى ينادى على صبيه، وغالباً ما يكون هذا الصبى كهلاً أو شيخاً، فيأخذ المطلوب طحنه ويتجه إلى المدق الجرانيتى الموجود إلى جوار المحل فى الشارع ليبدأ أفضل إيقاع موسيقى ممزوج بأفضل الروائح العطرية.

كل هذه المتع لا تُضارِع متعة الجلوس إلى أمى وهى تعد "الحلاوة السودة" داخل الحلة التى تشبه القزان ضخامة، فطريقة سكبها للعسل فى هذه الحلة والكيفية التى تضع بها ما اشتريته لها فى هذا العسل مبهرة، هى وطريقة التقليب، واختبار تمام النضج من عدمه، والوقوف على ملاءمة "العِرْق"، إذ لا ينبغي أن يكون "صَارِتْ" ولا "شادِدْ" أو "مَمْطوط". وقتٌ طويل كانت تقضيه أمى أمام البابور.. وكل مدة تُزيد من قوة دفع الجاز إلى "طاسة" البابور بـ"كام بومبة" وأنا وأخوتى نتابعها مسحورين بما تفعل.

سعادتى التى لا تدانيها أية سعادة أخرى كانت تأتى بعد انتهائها من تفريغ المربى والـ"حلاوة السودة" من الحلل إلى البرطمانات، فقد كنت أهجم على الحلل مسابقاً أخوتى لأقوم بمهمة تخليصها من البواقى العالقة بقيعانها وجدرانها بالملعقة أو بأصابعى التى تعرف طريقها جيداً إلى فمى.

يا لَها من متعة كانت تستحوذ على اهتمامى كله وقتها غير ملتفــت إلى استنكار أمى لِما أفعل: "إنت إيه يا وَلَهْ؟!.. مَحروم؟!".

المواعين كانت من النحاس، والنحاس يصدأ صدأً أخضر "يجترر"، لذا يتم تلميعها هى والملاعق والشوَك بالــ"أزِّير" (القصــدير) عنــد مبيض النحاس ــ مهنة انقرضت ــ ليس هذا هو المهم، فهذه المهمــة كانت تتم خارج البيت وليست من اختصاص أمى. المهم هو تنظيفها. نعم كانت هناك دائماً الليفة والصابونة، لكن لم يكن متــوفراً وقتــها السلك، كــ"سلك الألمونيا" المستخدم هذه الأيام، فكيف إذن يــتم التخلص مما يلتصق بالحلل والمواعين من أطعمــة شــديدة الالتصــاق أوالمحترقة؟.. لم يكن فى بورسعيد كلها فى هذا الوقت سوى الاســتعانة بواحدة من مادتين هما "تراب الفرن" و"رمل البحر"، ولم يكــن أمــام زوجات وأمهات ذلك الوقت من محيص إلا استخدام أيهما، مدقعات كن أو موسرات؛ ولزوجات وأمهات هذه الأيام أن يتفكرن فى النعيم الذى يَرْفُلْنَ فيه. كانت أمى ترسلنى أنا أو أحد إخوتى لنأتيها بأيّهمــا وتقوم هى بتنقيته وغربلته ثم تدعك به قلب وظهر الحلة أو الماعون، ويا لها من مهمة جد شاقة.

ومع كل هذا كانت أمى قادرة على توفير الوقت اللازم لمتابعتنا فى مدارسنا ولمراجعة استذكارنا لدروسنا، فضــلاً عــن اعتنائهــا بنــا وبأصدقائنا الذين يأتون إلى بيتنا لاستذكار دروسهم معنا.

(١٠)
أمى ومتعنا الصغيرة.. الكثيرة

شقاواتُنا ونحن صغار لا حدود لأنواعهـا، ولا أوقـات محـددة لممارساتها، كيفما ووقتما حلت فلا مناص من مزاولتها إلى أن يلتفـت إلينا الكبار الثلاثة: أمى وجدتى لأمى وأبى.

شقاواتنا، التى نحصل منها على متعنا، كانت تبدأ من الـ"تنطيط" فوق الأسِرَّة والكنب، والـ"دَرْمَغَة" فوق السجاد، والجرى بين قطـع الأثاث، وقرقشة السكر "الماكنة" وَ"سَفّ" السكر الناعم؛ ولا تنتـهى بالصياح والصراخ وضرب بعضنا البعض بالـ"بوانى" والـ"شلاليت".

حدث منى أن فررت من بعض إخوتى ودخلت "فاترينة الصـينى والفضيات" لأختبئ منهم، ويا لسذاجتى وقتها، كيف أختبئ فى فاترينة ضلفتها وجانبيها من الزجاج الشفاف وظهرها، الذى إلى الحائط، مرآة بلجيكى من المرايا البلجيكية الأصلية؟.. لكن "زناخة" المخ حكمـت واستحكمت فسقطت الفاترينة وأنا بداخلها، وتهشم الصينى كلـه ـــ ويا له من صينى بديع ما زلت أترحّم عليه ـــ هو وزجـاج الضـلفة والجانبين والأرفف والمرآة فوقى. بعد صرخة من أمى ظننتـها علـى

الصينى وزجاج ومرآة الفاترينة؛ انْحنت عليَّ وانتشلتنى من وسط الحطام الخطر وأخذت تتفحص جسمي، فلما اطمأنت أخذتنى فى حضنها الذى يُفرخ من روعى وقالت بصوت حنون:

"ما عدتش تعمل كده تانى".

كانت متعتى بسماع هذه العبارة تضارع متعتى بممارسة الشقاوة ذاتها.

وإذا كانت فى الشقاوة والعفرتة والشقلبة وإثارة الضجيج ثمة متع على حساب راحة أمى، فما أكثر المتع الصغيرة التى كانت تحظى بمباركة أمى.

كان يأتى إلى شارعنا المُبْهِرُون، فآخذ من أمى "المِلِّيمَ" وأهبط إلى من يأتى منهم.

حامل "صندوق الدنيا" العجيب الذى فيه ثلاث أو خمس فتحات بكل فتحة عدسة مكبرة، وكل العدسات مغطاة بقطعة قماش ثقيلة سوداء أو ملونة بلون غامق وصور. ينصب الصندوق على قوائمه الأربعة ويضع الدكة وينادى "اتفرج يا سلام، شوف الحكايات أشكال وألوان"، فنسرع إليه نجلس فوق الدكة، وندس رؤوسنا تحت قطعة القماش بعد أن نعطى صاحب الصندوق ملاليمنا، ونلصق أعيننا بالفتحات، لنشاهد الصور التى تتحرك من بَكَرَة إلى بَكَرَة ومعها يحكى آخذ الملاليم بكلام مسجوع منغم أحياناً، غير منغم أخرى، حكايات

خروج آدم من الجنة وعنترة بن شداد والظاهر بيبرس وأطراف من سيرة أبو زيد الهلالى وقصة عزيزة ويونس. كان صندوقاً مبهراً حقاً؛ وعلى قِصَرِها كانت الحكايات شيقة، ولمّا صار صاحب الصندوق يستصغر المليم، أعطتنى أمى الـ"تعريفة" ثم "القرش". مرات أعطتنى رغيفاً لأناوله إياه أو بيضة لأدسها فى جرابه، ومرات أنزلتنى إليه بكوب الشاى أو فنجان القهوة. كنت أحب صندوق الدنيا، وكانت أمى حريصة على عدم حرمانى من مشاهدة وسماع حكاياته.

حامل صندوق آخر كان يأتى إلى شارعنا. يأتى حاملاً أياه على ظهره. صندوق مختلف اختلافاً بيناً عن صندوق الدنيا شكلاً ووظيفة، فإذا كان صندوق الدنيا أفقياً وعلى شيء من الاستطالة، فصندوق "البِيانُولاّ" رأسيّ فى استطالته، ويكاد يكون دولابَ ملابس صغيرًا، وإذا كانت لصندوق الدنيا ألوان متعددة، بنى مثلاً أو أحمر أو أصفر فإن البيانولاّ لونها الدائم هو الأسود، ودائماً تتوسطه أيقونه بيضاوية بداخلها صورة لبنت جميلة فى الغالب، وإذا كان صاحب صندوق الدنيا يدير أحد البَكَرَتين، اللتين تتحرك بينهما الصور، بيده؛ فإن للبيانولاّ "مَنَافِيلاّ" فى أحد جانبيها وللبيانولا حامل قصير قابل للطّيِّ والفَرْدِ. ولا يأتى صاحب البيانولاّ إلا مصطحبًا فتاة صغيرة أو ولدًا صغيرًا فى يدها أو يده رق بشخاليل. بعد أن توضع البيانولا فوق الحامل يدير صاحبها المنافيلا بعد أن يختار من رافعٍ بسيط فى الجانب

المقابل قطعة الموسيقى التى يريد إسماعنا إياها، ومع إدارته هذه نبدأ فى سماع الموسيقى الرائقة، وتأخذ الفتاة أو الولد فى الطرق على الرق والرقص وأحياناً، بل كثيراً، ما تقوم أو يقوم ببعض الحركات الأكروباتية الدالة على الرشاقة والتناغم مع الموسيقى. دائماً ما كنتُ أشعر بأن عازف البيانولا فنان راق، ربما بسبب البدلة السوداء والقبعة الإفرنجية التى يتقبَّعُها، وربما بسبب أن الموسيقى المنبعثة من صندوقه موسيقى غير بلدية، وعلى أية حال لم يحدث أن أعطتنى أمى له رغيف عيش أو بيضة، وإنما المليم ثم التعريفة ثم القرش صاغ تبعاً لدرجة الغلاء التى تعم المجتمع.

ومَن كان منا يستطِيع مقاومة رغبته فى مشاهدة الأراجوز بطرطوره وجلبابه المربوط من الوسط وعصاه التى يضرب بها حماته والبواب البربرى الأسود "تُونُّو تُونُّو" والحرامى "الضِلِمْ" قبل أن يسلمه للعسكرى "أبو شنبات". كنا نضحك ونصفق مع الأرجواز الساخر المهذار، الذكى، كاشف كل الخدع، القوى، المنتصر على الدوام. لمجرد مرآه كنا نضحك ونتابع بشغف هزه لزر طرطوره وتعليقاته المرحة وكلماته المؤنِّبة أو الهازئة. كان صوته القريب من الصفير من أميز صفاته. صوت مختلف عن أصوات الأراجوزة مراته وحماته وسائر المتحركين بالفتحة المستطيلة فى الكشك الذى يقوم الأراجوزاتى بتركيبه فى الشارع قبل أن يبدأ العرض ثم يفكه بعد

انتهائه. وما كنا لنعرف وقتها أن هذا الأراجوزاتى كان هو محرك كل ما يدور أمام أبصارنا ويتكلم بألسنتها على اختلاف أصـــواتها، إلا أن الصوت المميز كان صوت الأراجوز نفسه، واكتشفنا أن الأراجوزاتى يضع فى فمه، وبالتحديد فى منتصف حلقه، قطعة مزدوجة من النحاس أو الصفيح أسميناها الـ"زُمَّارة" بينما الأراجــوزاتى كـــان يســـميها الـــ"أمانة"، وكان الأراجوز يحادثنا ونحادثه، يطلـــب منـــا التصـــفيق فنصفق، ويأمرنا بترديد بعض مما يقول فنردد، وأحياناً ما كان يصحب الأراجوزاتى رجل آخر يقف خارج الكشك، يسأل الأراجوز فيجيبه الرجل، أو يسأله الرجل فيجيبه الأرجواز. والأراجوزاتى دائماً متواضع يرضى بقليله، يلم من العيال ما يعطونه، ولا يمانع إن جاءته الأجرة فى شكل زجاجة كازوزة أو رغيف عيش أو حتى حَبّتَيْ طماطم.

قد أكتفى بالفرجة على الحاوى من أحـــد شـــبابيك البيـــت أو التراسينة. إخوتى وأمى وجدتى قد يشاركوننى الفرجة. ما إن نســـمع نقرات الـــ"نقرزان" المتتابعة حتى نعلم بمقدمه، فنجرى نحن الصـــغار للمشاهدة، ثم على مهل تأتى أمى وجدتى. بعد صلاة النبى ومقدمـــة طويلة عن أكل العيش واللقمة الحلال والمهاراة "اللى إدهاله ربنـــا"، و"اللى يحب النبى يقول هيه.. وكمان هيه"، و"اللى بيحب أمه وأبـــوه يسَقف.. سَقفة جامدة.. جامدة أوى" وبعد أن يستشـــيط الأطفـــال حماسة يبدأ بعرض بعض ألعابه، مستعيناً بما هو فى جرابـــه، وبأرنبـــه،

وورق الكوتشينة، و"شوية الجاز اللى بيحطهم فى بقه وينفخ بيهم النار ويولع الهوا"، أما اللعبة الكبيرة فلا يقوم بها إلا بعد أن يطوف هـو أو أحد معاونيه على دائرة الأولاد ليضعوا فى الـ"طار" أو المنديل المفرود ما يجودون به، ويشير إلى الواقفين فى النوافذ والتراسينات فيقذفون إليه بالعملات المعدنية.

أمى كانت تضع ما تجود به فى الـ"سَبَتْ" وتُدَلِّيه له، فإن كـان الحبل معقوداً بفعل شقاوتنا وتطلب فكه وقتاً، لفت المبلـغ فى ورقـة تربط عليها بفتلة لكى لا تتناثر العملات المعدنية أو تطـير العمـلات الورقية وهى تلقى بها إليه. بعد أن ينتهى من جمـع الحصـيلة يقـوم بإحصائها، فإن رآها معقولة قام بأداء اللعبة، وإلا فإنه يجمع أشـياءه ويمضى. من أهم اللعبات الخطيرة التى لا يؤديها إلا بعد جَمْعه للأجرة: قيامه بـ"قرقشة القزاز" وقد رأيتُ أكثر من واحد يقوم بقضم أكواب الزجاج ويمضغ ما قضمه ويطلب الماء ليبلع ما مضغه، ومنها كـذلك القفز من دائرة النار المشتعلة، أو النوم فوق مرتبة المسامير بظهـره أو ببطنه مع وضع قالب طوب على جسمه وتكسيره بمطرقة بواسطة أحد مساعديه، أو أن يطلب أربع "جدعان" يكتفوه بالجنزير، أو بالحبـال حسب الأحوال، ليحل نفسه بنفسه.

عند مقدم القُرَداتِيّة إلى شارعنا كانت أمى تحذرنى من الاقتراب من القرود، حتى وهى مربوطة إلى السلاسل، ليس تحرزاً مـن خـدش أو

إصابة، وإنما خشية الإصابة بمرض الجرب، وتوقياً من انتقال حشـــرة الـــ"قراد" من جلد القرد إلى شعرى.. وكانت تقول لى: "إذا كان ولا بد، اتفرج عليه من شباك التراسينة أو شباك الأوضه". أمـــا ألعـــاب القرود فقد ظلت ــــ على طرافتها ــــ تتكرر على ذات الوتيرة حـــتى مللتُ منها. نعم كنت أضحك لها، لكنها ظلت مع كل قرداتى هى هى التى يكررها القُرداتية الآخرون. أحياناً يلبس القرد جلباباً من خـــيش، وأحياناً يلبس فستان عروسة. يضرب له القُرَداتيُّ على الرِّقِّ فيرقـــص وهو يغنى له "الليل الليل.. يا الله يا ميمون". يشير إليه بعصاه الرفيعة ويأمره فيقلد الفلاحة إذ تعجن، وبإشارة وأمر آخـــرين يُرينـــا نوْمَـــة العازب، وبإشارة يؤدى تحية العسكرى، وإذا ما أمره اختر لك عروسة جرى إلى أجمل طفلة فى المتحلقين حوله واختارها.

وكانت لنا ألعابنا التى نحصل من أدائها على متعنا الخاصة، منها ما يمكن لعبه فى البيت، ومنها ما لا يلعب إلا فى الشارع. ألعاب البيـــت تصلح للعب خارجه فوق بسطات السلالم أو على الأرصـــفة، منـــها: الآل، الضَامَة، الدومينو، الطُـــرَّة والـــوزير، اليُويُـــو، والكوتشـــينة (وللكوتشينة ألعاب منوعة مثل: الكومي والأليت والسيف والجـــوكر والبوكر)، أما ألعاب الشارع فلا تصلح للعب إلا فى الشارع، وهـــى كثيرة، منها: السبع طوبات، نط الحبل، شد الحبل، الأولى، عســـكر وحرامية، جندر، اللجُم، العُقلة والمضراب، ركبتوا خلولها؟، ســـلطح، النحل، البلى؛ واللعب بـــ"الكظاظيظ" ونوى المشمش، ولكل لعبـــة

قواعدها وقانونها الخاص بها، والتعرض لها بالتفصيل يحتاج إلى كتـــاب مستقل. المهم أنها كلها ألعاب جالبة للمتعة، ومتسببة كذلك فى إشعال نيران المعارك، إلا أن متعة لَعِبِ كرة القدم تَجُبُّ متع سائر الألعاب. لم تكن أمي تبدى ممانعات تذكر حيال ممارستى أنا وأخوتى الـــذكور لأى من هذه اللعبات، أما أختايَ "فائزة" و"آمال" فلهما لُعبتا "الأُولى" ونط الحبل، وسائر الألعاب البيتية والألعاب المصحوبة بالأغانى.

كانت أمي تسمح لى بمزاولة سائر الألعاب بشروط:

"ما تبعدش عن البيت، ما تلعبش مـــع العيـــال الوِحشـــين، مـــا تتشاكلش مع حد، وتطلع البيت فى ميعاد الأكل".

بعض هذه التعليمات كانت تنفذ أحياناً، لكن كثيرها ـــ وأحيانـــاً كلها ـــ لم يكن لينفذ، وكيف ينفذ والإغراءات كثيرة وحجم المتعـــة المتحققة مع المخالفة أكثر ضخامة من المتع المتحققة مع الإذعان. لـــذا كنتُ كثيراً ما أخرج فى لعبى عن محيط البيت، والعيال الوحشـــين لا يمكن تفادى اللعب معهم، وإلا كنتُ خوافاً وخِرِعَاً، وما دمتُ ألعـــب مع العيال الوحشين؛ فلا بد من نشوء المعارك التى لا يعلم إلا الله وحده إلى أية نهاية ستنتهى، أما ترك اللعب والرجوع إلى البيت لتناول الطعام فى موعد فأمر يحتاج من أمي مناداة وإلحاحاً فى المنـــاداة وأحيانـــا مـــا يتطلب ظهور أبى فى النافذة بما يعنى أن المماطلة فى عدم ترك اللعب لم تعد ذات جدوى.

مع أننا كنا نأخذ منها ما نكمل به مصروفنا لنشترى مستلزمات صناعة الطائرات الورقية، وبالرغم أنها كانت تعلم ذلك، فإنها لا تنى تلوم نفسها، المَرَّة تلو المَرَّة، فصناعة الطائرات الورقية وتطييرها مجلبة للمخاطر التى يؤرقها التفكير فيها ويتعبها علاجها، فتطيير ما نصنعه يتطلب براحاً وهواءً متحركاً، وهما غير متوفرين إلا فى مكانين: ساحل البحر وأسطح البيوت، وكلاهما فيه الخطر، فالبحر يبعدنا عن بصرها وسمعها، والأسطح تحمل هاجس السقوط وحدوث ما لا تُحمَد عقباه، فضلاً عما يترتب على التنافس من شجار ومنازعات و"تقطيع هدوم".

الطائرات الورقية التى كنا نصنعها نوعان: "بطة" و"غاب". النوع الأول ـــ وله اسم آخر يعرف به فى المدن الأخرى هو "دَبُّـــور" ـــ لم يكن يحتاج إلا للخيوط الرفيعة، أما باقى مستلزمتها فمتوفر فى حقائبنا المدرسية أو فى مخلفات السنة الدراسية من كراريس وكتب، وصناعتها هى الأبسط إجراءً فهى تصنع بمجرد عمل ثنيات معينة لورقة الكراسة أو الكتاب وثلاثة "أخرام"، إثنان منها للميزان والثالث للذيل، وهـــى الأرخص تكلفة فلن ندفع نقوداً إلا ثمناً لـــ"شلاَّت" الخيط "اللعلاع"، وهى الأيسر فى تطييرها، فلا تحتاج إلى حركة هواء شديدة لترفعها، بل إن التيارات الهوائية الشديدة قد تمزقها، لذا فمن الممكن تطييرهـــا فى الشارع ومن الشبابيك أو التراسينات، بالإضافة إلى ســـاحل البحـــر والسطوح طبعاً، وتطييرها على كل حال يوفر قدرًا من الطمأنينة لأمى، لأن المشاجرات المحتملة من جراء التنافس عند وبعد تطييرها قليل جداً.

طائرات الـــ"غاب"صناعتها أعقد، فهى تحتاج إلى غاب بمواصفات معينة: سُمْكاً وطولاً وقابلية للشق، وتحتاج ورقاً ملوناً كبيراً ومتعدداً، كما تحتاج إلى دوبار متين، و"كُلـــّة" نصنعها مـــن تقليـــب الـــدقيق والشـــبَّة والملح فى ماء يوضع فوق النار؛ وصناعة هذه الطائرات تحتاج إلى دربة وخبرة وإلا ضَرَبَتْ "روسى" فى الجو، أى انقلبت وعملـــت "شقلباظ"، فضبط مقاييس أعواد الغاب الثلاثة، بعد شقها أو بـــدون شقها، وربطها بالدوبار إلى بعضها البعض، ولصق الورق الملون عليها بالـــ"كُلـــّة"، وعمل الـــ"ديل" بالثقل المناسب، وضبط ميزانه وميزان الطائرة نفسها عمليات تتطلب الدقة والمهارة؛ والأكثر مهارة منا يُنَوِّع فى شكل الطائرة فتكون على هيئة مركب أو نجمة أو يجعل للطـــائرة أولاداً (من خلال امتدادات الغاب وتشكيلها على هيئـــة طـــائرات مشابهة غير منفصلة لكنها صغيرة الحجم) ، أو يلون الـــورق الملـــون بأشكال ورسوم شتى.

التنافس هنا حماسي وخطير. تنافس فى صناعات الطائرات كـــبيرة الحجم، جميلة المنظر، وتنافس فى مستوى العلو الذى تصله هذه الطائرات عند تطييرها؛ وكثيراً ما يتخطى هذا التنافس حواجز الجنون ليصبح هو الجنون ذاته فتقوم حروب بين الطائرات بعضها الـــبعض عـــن طريـــق التحكم فى الدوبار الذى يمسكه الفرد منا، المهـــاجم يحتـــك بالطـــائرة الأخرى، وإن أفلح فى إسقاطها وجعلها "تضرب روسى" فهو الفـــائز فى

المنافسة، ولأنه فى مثل هذه الحروب غالباً ما يلتف دوبار الطائرتين فقــد تفتقتْ أذهان المتنافسين على تركيب أمواس (أمواس الحلاقة) فى مكــان معين من الدوبار يبعد بمسافة عن دوبار الميزان ليحز دوبــار الطــائرة المنافسة. وكان شباب العائلات يُحَمِّى من وطيس نيران هذه المنافســة؛ من ذلك نيران المنافسة التى ظلت مشبوبة حتى الستينيات فى منطقتنا بين شباب عائلات"عويلة" و"عليوة" ـــ عائلتى ـــ و"شرعان" و"بيِّوض".

من فوق الأسطح وفى الشوارع كان يتم التنافس، وكان هنــاك متفرجون كثيرون يشاهدون معارك طائرات الــ"غاب"، فــإذا قطــع الموس دوبار الطائرة الأخرى و"سَوَّحَت" فى الجو جرى الكل ناحيتــها بغية اللحاق بها إن ارتطمت بسور سطح أو عمود نور، أمــا خــيط الطائرة فعلى الخاسر أن يلحق بلمه قبــل أن يــتم الهجــوم عليــه و"كــَرْيَنــَتــُه" أى الاستيلاء عليه وسرقته كغنيمة حــرب، وكنــا نتنادى إذ ذاك "الحق يا له.. كَرْيــِن يا له.. كَرْيِن قوام"، أى "اجْرِ يا ولد.. اسرقْ يا ولد.. اسرق بسرعة"؛ وغالباً ما يشتط بنــا الحمــاس فنأتى بأعمال مجنونة فعلاً، كأن نربط فى دوبار الطائرة كوزاً به مــاء ونُطيِّر "الطيَّارة" حتى يكون الكوز فوق الشارع القريب، فإذا مر مارة صفــَّر شاب مراقب لحركة الشارع فندلق الكوز عليهم بمجرد ميلــة للدوبار؛ ومن باب الافتراء ربط أخى الأكبر ديكاً هندياً أحمر فى دوبار "الطيارة" وطيره بها.

وما أكثر المعارك التى نشبت بسبب المنافسة الشديدة أو الإفراط فى التصرفات المجنونة، وهذا كان أشد ما يقلق أمى، فالمشكلات الناجمة عن تطيير "طيارات الغاب" لا حصر لها، وأحياناً ما تغلــق الشــوارع بسببها فالكراسى تطير وزجاجات الكــازوزة تــُقذف، والطــوب يــُلقىَ؛ بل إن البوليس أحياناً ما كان يأتى ومعــه الــــ"بــوكس" و"يــقــَفــّش" فى العيال. ما أكثر ما صعدنا إلى أمى وجدتى بقمصان مُمَزَّعَة وأعين متورمة بسبب معارك طائرات الــ"غاب". قلق كــبير آخر كنا نسببه لأمنا بسبب صعودنا إلى سطح العمارة لتطيير طائراتنا، فاحتمالات مخاطر السقوط من فوق السطح واردة، والقصــص الــتى تتناقلها المدينة عن سقوط أولاد من فوق سطوح أخرى لا تنى ترددها أمنا وهى تحاول منعنا من الصعود إلى السطح، لكن هيهات؛ والحقيقة أنه لولا سور الخشب البغدادلى الذى يعلو سور سطح عمارتنا المبنى من الأسمنت والجص لوقعت المآسى التى طالما حذرتنا أمنا منها، فما أكثر ما شدت الطائرة المدفوعة بقوة الريح ممسك دوبار الطائرة منا لولا السور الذى يحمى من الانجراف والسقوط إلى الشارع؛ وعلى الرغم من كل هذا القلق فهى تمنحنا النقود لنــُصَنــّعها ونــُطَيّرها، لأنها لا تحــب رؤية نظرات خيبة الأمل تطل من عيوننا.

مُتع من نوع مغاير كنتُ أسعى إلى تحقيقها مع أقرانى فى الشارع، أو بالأصح فى الشوارع، لأنه لم يكن ممكنــاً العثور عليها فى شــارعنا

وحده، هذه المتع مرتبطة بالصيد، ليس صيد الأسماك فهذه المتعة تقتضى الذهاب إلى البحر أو البحيرة أو قناة السويس أو القنـــال الـــداخلى، وكلها بعيدة جداً عن بيتنا. الصيد الذى أقصده مـــرتبط بـــالطيور، وتحديداً بثلاثة أنواع منها، هذه الأنواع الثلاثة هى: الخفافيش.. نعـــم الخفافيش.. والعصافير، والسمان.

الخفافيش كنا نصيدها فى شارع رقم ١٠٠ الموازى لشارع روس (الأنصار حالياً) الذى ولدتُ فيه ولا يفصله عنه سوى شـــارع رقـــم ٩٩. أما لماذا شارع رقم ١٠٠ فلأنه كان الحد الجنوبى لحيى العـــرب والمناخ، وكان هو الحد الفاصل بينهما وبين مناطق عـــزب "فـــاروق" و"النحاس" و"الحرية" حيث العشوائيات والفقر والظلام الـــدامس.. وفى الظلام تحوم الخافيش، لذا كنا نقف لها بالمرصاد عند هذا الشارع لنقلل من تسربها إلى حيث نلعب وحيث يعيش أهالينا، لأنها إن لصقت بوجه آدمى، تمص دمه ولا تتركه "ولا بالزمر البلدى"، وكنا نصطادها بأبسط أداة، بأعواد الغاب الطويلة. الواحد منا يمسك بها مـــن أحـــد طرفيها، ويرفعها بزاوية قائمة باتجاه الفضاء الأسود الذى يفصلنا عـــن السماء، ويتخير خفاشاً من الخافيش الكثيرة المحومة فى الظلام ثم يلسعه بطرف عود الغاب بضربة مفاجئة فيترنح من هول الضـــربة ويســـقط لنجهز عليه بأحذيتنا، وكلما كانت الغابة طويلة ورفيعة كـــان هـــذا أفضل مراوغة لأجهزة الخفافيش الرادارية. أمى لم تكن راضية أبداً عن

انغمارى فى عمليات صيد الخفافيش هذه، فهى لا تتفـق وشـروطها الأربعة بالإضافة إلى أنها تفرض وجودى خارج البيت أثناء الليل، ولأن التصاق خفاش بوجهى صار أكثر احتمالاً.. وظلـت بى، وحرَّضـتْ جدتى وأبى علىّ حتى زهدت هذه الهواية.

كل خريف كان السمان يأتينا من الضفة الأخرى للبحر المتوسط.

ككل مسافر لمسافات طويلة كان يأتينا مجهداً مترنحاً وطائراً علـى مسافات منخفضة من الأرض فتصدمه جدران البيـوت ليسـقط فى أيادينا، ولم يكن بغريب أبداً أن نشاهد فى بيتنا بعض السمان، وقد حطّ على أرضية التراسينة أو ارتطم بحبال الغسيل فانحشـر بينـها؛ ومـن السمان ما كان يسعى إلى نيل بعض الراحة بعد سفره الطويـل بـأن "يخَنِّن" فى أى "خُن" برمال الساحل أو وسط نجيل الحدائق أو يظل فى طيرانه المترنح عبر الشوارع، وفى كل الأحوال كنا نتتبعه لنقبض عليه، وما أيسر قبضنا عليه، حتى إن حاول الفرار والطيران من جديد، فمـا هى إلا "جَرْيَة" أو اثنتين وتكون الطريدة بين يدى أحدنا.

متعة كبيرة كان فصل الخريف يوصلها لنا مع كل مقدم له. مـع السمان كان يأتى طائر جميل فى لون اليمام المصرى، لكنه أكثر رشاقة وجمالاً منه. من فرط جماله أطلق عليه أهالى بورسعيد اسم "الْمُلِّيح" أي مَلِيحَ المنظر وجميلَهُ.

كانت أعداده التى تصاحب السمان فى هجرته إلى المدينة قليلـــة، ومثله مثل السمان كان يأتى مجهداً متعباً وينالهه ما ينال الســـمان مـــن مصير، لكن للــ"مُلّيح" خلة عجيبة اشتهرت بيننا، فهو لا يحـــب أن يكون وحيداً، فإن صار وحيداً، ولأنه يصير وحيداً بحكم قلة عـــدده، فإنه يرفع مخالب إحدى ساقيه ويخنق نفسه بنفسه، لذا كنا نكسب ثوابه ونقوم بذبحه مُعجَّلاً.

السمان العفى الذى لا يُسقط نفسه بأيدينا من تلقاء نفســـه، ولا ييسر لنا القبض عليه وقنصه قبضًا سهلاً وقنصًا ميسوراً، كنا نصطاده بالـــ"كُبْ". هذا الـــ"كُبْ" مصنوع من البوص الغلـــيظ والشـــباك الخيطية، بالبوص كنا نصنع ـــ الحقيقة أن الشباب هم الـــذين كـــانوا يصنعون ونحن مجرد مساعدين لهم نناولهم الغاب والدوبار ونلـــبى مـــا يطلبونه ـــ كان الشباب يصنعون من البوص إطارًا مفرغـــًا له تثبـــت فيه الشبكة الأمامية وتشد إلى أضلاعه الأربعة، وهى شـــبكة واســـعة الفتحات، أما الشبكة الخلفية ففتحاتها ضيقة، وعلى شىء من الارتخاء، وتصبح أشبه بالجراب حين دخول السمان المَصيد إليها فـــلا يمكنـــه الخروج؛ والسمان لا يدخل الـــ"كُبْ" طواعية، وإنما بالترصـــد لـــه والتحرك صوبه. عند كل ناصية كان الشباب يقفون انتظارًا وترصدًا، ويجرى الواحد منهم بالـــ"كُب" صوب السمانة التى تلوح له ونحـــن خلفه نتابعه ونصفق له مع كل سمانة يصطادها.

غير الـ"كُبْ" كانت هناك طريقة أخرى لصيده عن طريق الـ"شَرَكْ"، هذا الشرك لا ينصب إلا عند ساحل البحر ليستقبل السمان فور قدومه. قوام الشرك الرئيسى هو الشباك، الفرق بينه وبين الـ"كُبْ" أن الـ"كُبْ" محمول بيد الصائد، أما الـ"شَرَكْ" فمثبت فى رمال الساحل. وإذا كان حجم الإطار المثبت إليه الشبك فى الـ"كُبْ" غير كبير لتسهل الحركة به، فإن الـ"شَرَكْ" الواحد يمتد لحوالى كيلو متر بأكمله، وهو أيضاً أكثر ارتفاعاً من الـ"كُبْ" إذ يتروواح ارتفاعه بين مترين وثلاثة أمتار، والغالب أن يكون ارتفاعه ثلاثة أمتار، أما نظام وضع الشبك فهو مماثل للـ"كُبْ" شبكة أمامية واسعة الفتحات مشدودة وأخرى خلفية ضيقة الفتحات مرخاة إذا دخلها السمان لم يخرج منها، وبامتداد ساحل البحر يُرص الشَرَك إلى جوار الشَرَك فإذا بالساحل كله مُسَيَّج فى انتظار قدوم السمان.

أمى لا علاقة لها بصيد السمان، اللهم إلا من زاوية الشراء والذبح والتنظيف والحشو بالـ"مَرْته"، لكننى وإخوتى الذكور كنا نجعل عينيها "فى وِسط راسها" من شدة قلقها علينا من مطاردتنا للسمان فى الشوارع ومشاجرتنا مع من ينازعوننا على ما نصطاده منه، بادعاءات شتى منها أن المُطالِب بالسمانة، التى فى يدي أو أى من إخوتى، هو الذى طاردها أولاً، أو أنه ألقاها بحصاة فأداخها، أو أنها أفلتت من الـ"كُبْ" الذى يحمله.

صيد العصافير بالنبال والفخاخ أمر معروف. بالنبال كنا نضع الحصاة وسط الأستك ونتربص بالعصفور الواقف فوق سلك الكهرباء أو فوق غصن لشجرة. نحدد مكانه بالضبط ثم نشد الأستك من الموضع الذى فيه الحصاة ثم نتركه فتنطلق الحصاة لتصيب العصفور الغافل، أما العصفور المنتبه فما إن يُحس بنا أو يحس بخفيف انطلاق الحصاة حتى يفر طائراً وينهكنا بالجرى خلفه وتتبعه.

الفِخاخُ نوع آخر فهى مصنوعة من السلك، والفخ الواحد منها مكون من مصراعين نصف دائريّين يُفردان ويَنطويان ويربط بينهما "يَاي" شديد، وإذا تم فردُهما؛ أخذ الفخُّ شكل الدائرة المكتملة. عند "الياي" وفى المنتصف بروز نضع فيه الدود والحشرات التى نستخرجها من المناطق الترابية الرطبة، ونفتح الفخ ونداريه بحيث لا يظهر منه سوى الدودة أو الحشرة، فإذا ما جاء العصفور الغرير ليلتقط الـ"طُعْم" انطبق عليه الفخ ووقع فى أيدينا.

الرش وسيلة أخرى لصيد العصافير، نستأجر البندقية الرش ونشترى الذخيرة ونهيم فى المناطق المحتشدة بالأشجار لنصطاد العصافير، وما أكثر الحوادث التى أحدثناها بطلقات الرش، وما أقل العصافير التى اصطدناها بها.

متعة أكبر كنا نحققها بصيد العصافير بطريقة أخرى أكثر أماناً. إنه الصيد بالـ"مُخيِّط"، والـ"مُخيِّط" مادة لزجة كنا نستخرجها من حَبِ

يشبه حَبَ النبق. كنا نعمل "مناصب" من أغصان الشجر التى نقصفها ونضعها على أسطح البيوت ثم ندهن أطرافها بالـ"مُخَيِّط" والعسل الأسود الذى وضع على النار حتى غلظ، فإذا ما حط العصفور عليه التصق به وقبضنا عليه. هذه الطريقة هى الأفضل فالعصفور يكون بين أيدينا سليماً، فكل ما يحدث هو التصاقه بالـ"مُخَيِّط" والعسل، على العكس من الطرق الأخرى التى كانت تحطم أجزاءً فيه أو تُسَيِّل دمه، ولكى نرحم العصفور كان علينا أن نذبحه، وكنا نذبح العصافير بريش ننتزعه من أجنحتها. كانت متعة كبيرة أن نصطاد العصافير.

يا لنا من متوحشين.

أفقتُ إلى هذه الحقيقة مبكراً، فقد شاهدتُ أمي تنثر الأرز والقمح فى التراسينة والعصافير تحط على ما تنثره أمي وتلتقط منه ما يشبعها وتمضى، ياه.. أتعب نفسى وألهث وراء العصافير فى الشوارع، وهى هنا فى تراسينة بيتنا؟!.. بل إنى رأيت عصفوراً واقفاً على كف أمى المبسوطة يلتقط مما وضعته فيه من قمح. انتظرتُ ذات مرة حتى تركتْ أمي التراسينة إلى شأن من شئونها وأحضرتُ النبلة وثنيتُ مجموعة من دبابيس الإبرة ووضعت دبوساً مثنياً فى وسط الأستك وشددتُ، وإذا بكف أمي يقبض على النبلة و"هات يا توبيخ"، ولم تتركنى حتى وعدتها بأن أكف عن صيد العصافير. أكثر من هذا بِتُّ وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى أشترى العصافير وأقوم بتطييرها فور شرائى لها، لدرجة أن

باعة العصافير صاروا ينظرون إلىّ نظرهم إلى شخص مجنون أو يعانى من حالة نفسية.

قبل الثالثة عشرة من عمرى، تلك السن التى بدأت منـها الـتفكير الجدى فى الأمور الميتافيزيقية والمثالية والمادية والانكباب الكلـى علـى الكتب، قبل تلك السن كنتُ لا أرعوى عن ممارسة أنشطة لهو منطويـة على "شيطنة" وبعض من الأفعال الشريرة، مثل مشاركتي لِدَاتِي فى سرقة ما كنا نطلق عليه الـ"كهرمان"، وكان هذا الـ"كهرمان" مادة تشـبه الـ"شَبَّـة" فى صلابتها وشفافيتها. كنا نسرقها من "بابور النـوَر"، أى محطة توليد الكهرباء، ونجرى إلى شارعنا قبل أن يلحـق بنـا حـراس الـ"بابور"؛ وفى شارعنا كنا نحفر الأسفلت ونعمل "بيكو"، أى حفـرة، نضع فيها بعض الماء وقطعة من هذا الـ"كهرمان" ثم نقلب عليه كـوزاً مفتوحاً من أعلى مثقوباً من أسفل، بحيث يكون الجزء المفتـوح داخـل الـ"بيكو" والقاع المثقوب فى الأعلى. بعد أن نطمئن إلى وضع الكـوز ندنّى لهبًا من الثقب فيَحدث انفجارٌ وَدَوِيٌّ هائلٌ، ويرتفـع الكـوز إلى أعلى الأعالى، ويا لها من متعة كانت تستحوذ علينا ونحن نشاهد ذلـك الانفجار ونسمع ذاك الدوى، إلا أنه مع كل التدابير الاحترازية التى كنا نقوم بها فإن الحوادث كانت تقع بسبب الكوز الطائر وصدماته.

متعة أخرى مصحوبة بالأعمال الشريرة كنتُ أمارسها مع لِدَاتى، هى "كَرْيَنَة" أقفاص الجريد وقش الأرز وأية أخشاب نجـدها بسـوق

الخضار والفاكهة، أو عند سوق الجملة أو بجوار أفران شَيِّ السمك وخَبْز العيش، كنا "نِكَرْيِن" هذه الأشياء ونكدسها فى منطقتنا استعداداً لـ"وَلاَيِعْ" شم النسيم، فضخامة أقطار النيران التى سنشعلها، ومدى ارتفاع ألسنتها، هما عنصرا التمايز اللذان يرجحان شارعًا على شارع، وحارة على حارة، لذا كنا نجمع القش فى كوْمَات، والأقفاص فى رصَّات، وامتدت الـ"كَرْيَنَة" إلى "كاوتشات" السيارات والـ"بُلاك" المستخدم فى رصف الطرق بغية إطالة زمن الـ"وليعة" وسرعة تأجيجها وإن أخرجتْ من الدخان ما هو أسود خانق.. وحتى تأتى لحظة الحرق كنا نحرسها. الصغار ـ مثلى ـ بالنهار، والكبار بالليل، والحراسة كانت أمراً ضروريا بسبب الإغارات المتبادلة على المخزون فى كل الحارات والشوارع، ويا بخت الحارة أو الشارع التى توجد بها خرابة مسورة، فأمر الحراسة عليها ميسور.

خطفنا ذات ليلة حارس إحدى هذه الخرابات وأبعدناه عن الكنز الذى نبتغيه. من فوره اعتلى شاب منا سورها وأخذ يناولنا الأقفاص والكاوتشات وكل ما طالته يداه، وجريًا نقلنا هذا "الوِقِيد" إلى مخزن منطقتنا، ليأتى المجنى عليهم بالعصى وزجاجات الكازوزة والطوب وتدور واحدة من عشرات المعارك التى تُخَاض فى مثل هذه المناسبة، وليهبط أبى وينتشلنى من أتون المعركة ويصعد بى إلى البيت حيث نلتُ من تنبيهاته ومن دعوات جدتى وأمى لى بالهداية الكثير.

مع هذا كانوا يتركوننى وإخوتى لنشعل النيران ونمارس طقــوس الاحتفال الشعبى بيوم شم النسيم كباقى أولاد الشارع، خصوصاً أن أمى كانت تصنع مبكرًا لكل واحد منا: ذكوراً وإناثًــا "الألنْبِــــي" الخاص به من القماش المحشو بالقصاقيص والهلاهيل وتلبس كل ألــنبى الملابس القديمة التى استغنينا عنها، وكانت تربط كل الألنبيات فى حبل تثبته بامتداد التراسينة إلى أن يأتى موعد الــ"وِليعة" الكبرى فنهبط بها لنلقيها فى النار، بينما تلقى كل من أختى فائزة وأختى أمسـال بــالألنبى الخاص بكل منهما إلى النار من النافذة، ولا بأس من أن تلقى أمى مع "ألنبيّات" أختىّ ببعض الكراكيب والعفش المُستَغنَى عنه.

(١١)
أمى المتدينة

أمى تعودنى على الصلاة:

أمام بيتنا القديم الكائن عند تقاطع شارعى المنيا وروس (الأنصار)، حيث ولدتُ وعشتُ السنين التسع الأولى من عمرى، جامع كبير هو "جامع إمام". لذا كان الأذان داخل بيتنا فى أوقات الصلوات الخمس، هو والإقامة والقراءات الجهيرة، وابتهالات ما قبل أذان الفجر وخُطب أيام الجمع ودروس وعظ ما بعد صلاة المغرب. كانت أمى وجدتى لأمى تصليان بالبيت وأبى يصلى فى "جامع إمام" إن لم يصلِّ فى "الكوبانية" وأغلب أوقاته كانت فى الـ"كوبانية" أو فى مقهى "أبو جمعة" البعيد عن البيت بعدد من الشوارع، وكنتُ وأقرانى قبل سن التعليم الإلزامى نلعب أمام باب الجامع ونلعب ونصخب فيخرج من يوبخنا ويأمرنا بالابتعاد، وكانت أمى تحثّنى على دخول الجامع لكننى كنت أخجل.

منذ بداية التحاقى بالمدرسة الابتدائية الحكومية تعودتُ على حمل شنطة مصنوعة هى ومقبضيها من قماش الكتان. كانت أثقل من شنطة "الكراريس" والكتب، لأن أمى كانت تضع لى فيها فوطة وقبقابًا

خشبيًا.. نعم.. هو قُبْقابٌ خشبيٌّ.. إذ أن "أبلة" حصة الدين تعلمنا الوضوء والصلاة، ولأننى كنت أعود بها دائماً مبلولة بماء الوضوء الذى نشع من الفوطة ونقع على قماشها خشب القبقاب المبتل، فكان لا بد من غسلها بعد كل أوبة من المدرسة، فما من مرة عدتُ بها إلا متسخة نتيجة اللعب مع العيال. لهذا صنعتْ أمى شنطة كتانية أخرى للتبديل بينهما، ريثما تجف الشنطة المغسولة. وفى كل مرة أحمل هذه الشنطة وأعود، كانت تسألنى:

"هيه.. علمتك إيه أبلة الدين النهاردة؟.. اتوضِّيت كويس؟.. عِرفت تصلى؟.. حفظت القرآن؟"..

ولا تكتفى بإجاباتى وإنما تطلب التطبيق العملى:

"ورِّينى اتوضيت إزاى.. سَمّعنى التشهد.. صلّى جنبى ركعتين لربنا.. اقرا المعوِّذتين"..

وهكذا.

موكبان دينيان سنويان كانا هما شغلى الشاغل فى مناسبتيهما إبان طفولتى الباكرة هما موكبا: المَوْلِدُ النبويُّ والرُّؤية. كنتُ مولعاً، ليس فقط بمشاهدة هذين الموكبين، وإنما أيضاً بالسير فيهما وسط الدراويش والمُريدين. جدتى لأمى هى مصدر هذا الولع، فقد كانت ـــ بإذن من أمى ـــ تصحبنى وتنتظر بى على رصيف الشارع الذى يسير فيه الموكب حتى يمر من أمامنا. فيهما كنت أشاهد مشايخ ورجال الطرق

الصوفية، وما أكثر هذه الطرق، أذكر منـها: الرفاعيـة، الشـاذلية، القادرية، الأحمدية، والبرهانية الدسوقية. مشايخ كل طريقـة كـانوا يشبكون أذرعهم ببعضها البعض ويقرأون الأوراد، بينما رجالهم مـن ورائهم، منهم من يتطوحون يمنة ويسرة على إيقاع الصاجات وقـرع الطبول والأوراد المنغمة المسجوعة، ومنهم من ينشد الأناشيد.

فى الصدارة كانت دائماً فرقة موسيقى البوليس وعساكر وخيول السوارى، وفى صدارة الصدارة "ملك الفقر" ممتطياً جـواده ممسـكاً بسيفه الخشبى ومثقلاً سترته العسكرية بنياشين مصنوعة من "غُطيـان الكازوزة"، أى أغطية زجاجات المياه الغازية.

البيارق خضراء وحمراء وسوداء، مكتوب عليها "لا إلـه إلا الله.. مُحمّد رسول الله"، وفى كل ركن من أركانها الأربعة اسم واحد مـن الخلفاء الراشدين "أبوبكر"، "عمر"، "على"، و"عثمان". بيارق عريضة، عالية، وضخمة. ترفرف فوق الرؤوس بفعل الرياح أو بحركات أيدى حامليها. وقد يعقد بيرقان فيصنعان ما يشبه قوس النصر يمشى تحتهما كبار الطريقة.

كانت جدتى حريصة فى كل مرة تصحبنى فيها على أن تحملـنى وتمسح وجهى ووجهها بأقمشة ما تيسر لها من الإمساك بأطراف مـن هذه البيارق طلباً للبركة. عندما نعود إلى البيت وتعلم أمى بأمر هـذا المسح تنظر إلى جدتى وتقول:

"يا ماما صدقينى.. البركة ماتجيش كده أبداً".

ومع هذا كانت تهيب بأبى ليشترى لنا حلوى المولد فى المولد، وحلوى المعراج فى مناسبة الإسراء والمعراج، ولا فرق بين الحلويين، سمسمية وحمصية وفولية ولديدة وجوزية وجزرية وبسيمة وحلقوم وبندقية ولوزية وغيرها كثير مما يندرج تحت وصف "الحلاوة الطرية"، الأهم فيها جميعاً هو العروسة الحلاوة والحصان الحلاوة. العروسة لكل واحدة من أختىّ، أما الأحصنة فلكل واحد منا نحن الذكور. العروسة مزينة بورق الـ"كُريشة" الملون الزاهى، أما الحصان فيمتطيه فارس مطربش شاهرًا سيفه. الغريب أن علم مصر الخديوية الأحمر ظل مرفوعاً فوقه لآماد على الرغم من تغيره لأكثر من مرة. روعة العروسة والحصان كانت كامنة فى أمرين أولهما أننا إذا أردنا أكلناهما، ويا له من طعم حلو طعمهما، وثانيهما أنهما إذا كُسرا وأرادت أمنا أن تكرمنا طبخت لنا بهما مهلبية، وما ألذها من مهلبية.

أمى وشهر رمضان:

منذ بلغت السابعة من عمرى وأنا أصوم.

قبل السابعة جعلتنى أمى أصوم "صيام الحاجّة اللى لما تجوع تتغدا"، ولأننى اكتشفتُ أن الحاجّات لا يتغدين عندما يجعن، فقد عاندتُ وأصررتُ أن أصوم صيام الكبار، شجعتنى أمى وطلبت من أبى مباركة

هذه الخطوة فصمتُ. صيام الشتاء لذيذ، نهاره قصير وفيه نلعب الكرة عصرًا، أما صيام الصيف فطويل مرهق، كنتُ أتغلب عليه بغسيل وجهي أو الاستحمام أثناء النهار أو حتى النوم. طبعاً كانت هناك قراءة ما تيسر لي من القرآن، وما تيسر لم يكن يخرج عن قصار السور. في البداية كانت أمي تجلس إليّ و"تسمَّع لي" ما حفظته في المدرسة، ثم بعد أن تأكدتْ من أنني قد أجدت الوضوء صارت تسمح لي بالإمساك بالمصحف. تـُصلح لي أحياناً ما أُخطئ به، وكثيراً ما تنصرف إلى مشاغل شهر رمضان وما أكثرها، لكنها كانت تطلقني بعد المغرب ومعي الفانوس "أبو شَمعة" لأطوف مع الأولاد والبنات بالشقق القريبة وأغني معهم:

"لولا البيت ده ما أجينا.. الله حي
ولا وقفنا ولا حوينا.. الله حي
حِل الكيس وادينا.. الله حي
ادينا ما تدينا.. الله حي....."

و

"حاللـُّـو .. يَا حللـُّـو
رَمَضَانْ كَرِيمْ يَاحَاللـُّـو
حِلّ الكِيسْ وادِّينَا بَقـْشِيشْ
لَنْرُوُحْ ما نـْجِـيشْ يا حَاللـُّـوْ".

هاتان الأغنيتان وغيرهما لم أحفظهما من احتكاكي بالعيال فقط، ولكن بتلقين ومراجعة وتنقيح من أمي.

ما من ناصية من نواصي مدينة بورسعيد إلا اشتملت فى شهر رمضان على سبيل مرصوصة فوقه القلل الفخارية المملوءة بالماء البارد، وهو ليس ماءً بارداً فقط، لكنه ماء ممزوج بالـ"مَاوَرْدْ"، والفكرة من وراء هذه الأسبلة هى إتاحة شرب الماء للصائمين الذين أدركهم مِدْفعُ الإفطار وهم بعدُ فى الطريق، وكان كل من أقام سبيلاً تنافس مع الآخرين فى تجميل سبيله، فأصبحت الأَسبلة علامات ابتكارية يتفنن صانعوها فى الإتيان بها على غير المألوف. لذا، فقد مثّلتْ إغراءً قوياً لى للشرب منها كلما خرجت إلى الشارع مع الأولاد بعد كل غروب؛ لكن مسلكى هذا لم يكن يعجب أمي. كم حذرتنى وأخوتى من الشرب منها خشية العدوى:

"إنتم مش عارفين اللى شرب منها عيان واللا مش عيان"..

وإزاء عدم استجابتنا لنصائحها وعدم انصياعنا لتحذيراتها أنشأتْ لنا سبيلاً رمضانيا فى تراسينة بيتنا، وأضافتْ إلى مياه القلل الـ"ماورد".

رمضان بطبيعة الحال، بالنسبة لها، هو شهر الانهماك فى أداء الشعائر الدينية والانكباب على تفعيل العادات المرتبطة به، سواء

ارتبطت هذه العادات بإعداد الأطعمة والمشروبات، أو تنفيض الجدران والأسقف، أو تبديل الستائر والسجاد وسائر المفروشات، أو حياكة البيچامات والفساتين وشراء ملابس وأحذية العيد، فضلاً عن الطقوس الشعبية الخاصة بشهر رمضان وحده. يا إلهى كل هذا تقوم به أمى بخلاف العمل اليومى المعتاد من ترتيب أسِرَّة وتنظيف حجرات وغسيل هدوم وتحميم الأولاد، وعلاجهم هم وغيرهم.. تُرى لو لم تكن جدتى معها هل كانت تستطيع القيام بهذا كله؟.. نعم تستطيع..

هكذا كنتُ أجيب نفسي.. ليقينى من أن أمى إنسانة ككل البشر، هذا صحيح، لكنها أيضاً غير كل البشر.

وقبل هذا كله كانت تعمل معنا، يدًا بيد، فى الإعداد لما سنقوم بتزيين البيت والبلكونات والشارع به من رايات وحلقات وشراشيب. تلك التى كانت تشاركنا صنعها من ورق "الجلاَّد" (ورق تجليد الكتب والكراريس) الملون وأحياناً ورق المجلات القديمة والجرائد. من بداية النصف الثانى من شهر شعبان تعطينا ما نشتريه به من مكتبات: "السنبارى" و"عرفان" و"الشامى"، هو والدوبار، وبهمتها كانت تشاركنا ــ بل تقودنا إلى ــ صناعة الفوانيس الخشبية، وتصنع لنا الـ"كُلَّة" من الدقيق والشبَّة، وأحيانا من النشا، لنلصق بها أوراق الزينة بالدوبار ولا تتركنا لنعلقها وحدنا بل كانت تساعدنا فى تعليق هذه الزينات داخل البيت وعلى تراسينتنا. الشىء الوحيد الذى لم تكن

تشاركنا فيه هو تعليق الزينات بعرض الشارع فهذه مهمة الصـــبيان، ومع هذا إن تطلب الأمر ربط طرف دوبارة بشباك أو تراسينة بِبَيْتنا؛ كانت هى التى تدق المسامير وتربط طرف الدوبار به، فلا يأتى شـــهر رمضان إلا وبيتنا وشارعنا "على سنجة عشرة".

من أحلى ما عودتنا عليه أمنا فى شهر رمضان انتظار مدفع الإفطار ونحن جلوس إلى الطبلية، لا السفرة، حيث الطبق "المسلطح" (المسطح) الواحد، أو "الغويط" الواحد، وكل الملاعق تمتد إلى هذا الطبق أو ذاك؛ وكذا الجلوس المترنح إلى ذات الطبلية ــ بعد إيقاظ صعب ــ لتناول طعام السحور. أحياناً ما كانت تبكر بإيقاظنا لتناول سحورنا فنســمع المسحراتى وهو يدق على الــ"بازة" ويترنم بأغانيه وابتهالاته وينـــادى على أفراد المنطقة بأسمائهم الحقيقية. كان صوته يشجينا، لدرجة أننـــا كنا نأتى بالكراسى ــ أحياناً ــ ونميل إلى الشباك الــذى يتــيح لنـــا مشاهدته وهو يمشى فى الشارع، وكانت أمنا تأمرنا بترك الشباك لئلا نصاب بالبرد؛ وأحياناً ما كنا نستيقظ متأخرين فنقفز إلى الطبلية قفزاً لنلحق بما هو مرصوص عليها من خبز وجبن وفول وقطايف وكنافـــة، وَنَزْدَرِدُهُ متعجِّلين مستعينين بالخشاف والماء وصوت خادم "جامع إمام" يبتهل إلى الله ثم يأمر المتسحرين بصوت حازم منغم: "إرفع.. إرفـــع.. إرفع وصلّ على النبى"، ويستمر بترديد أمره المُنَغَّم هذا حتى يُــدَوّي مِدفعُ الإمساك.

فى رمضان للطبلية استخدامات أخرى غير الأكل، منــها وضــع "مناقش وقوالب الكحك" عليها وتثبيت ماكينة البســكويت بهــا فى أواخر شهر رمضان استعداداً للعيد، ولم يحدث أن اشترتْ أمى الكحك والبسكويت جاهزاً من محلات الحلويات، كل ما كانت ترسلنا لنشتريه من محل عم "عوكل" أو محل "العياشى" أو محل "كِسْبه" هو مستلزمات الحشو والتزيين من كاكاو وملبن وعجمية وزبيب وجوز الهند وصنيبر "صنوبر" وملبس "عفريت الست" والملبس المُذهَّب والملبس المُفضَّــض وما شابه.

على الطبلية كانت تصنع هى وجــدتى الكحــك والبســكويت والغُرَيِّبَة والقُــرْصَة والفطير والمِنِين والسُفوف، وكلما تكالبتْ أيادينا على الطبلية كانتا تبعدانا حتى لا نفسد ما تصنعانه، ويا لفرحة الواحد منا حينما تسمح له أمى بتلقى عجينة البسكويت فوق راحتــه لحظــة خروجها متشكلة من الماكينة، لنضعها فى الصاج، أو حينما تطلب منه أن يدير الذراع المعدنية ذات المقبض الخشبى لتتفرغ هى لأمر ما، وكنا ننظر باعتزاز نحو الصاجات السوداء المستجلبة من الفرن إذ تتراكم فى شكل هندسي جميل فوق بعضها البعض ليأتى صبى الفرن فيأخذها على عــدة مرات ويعيدها على عدة مرات، فإن جاء بها كاملة جيدة النضج شكرته وأعطته منه ما فيه النصيب فوق الأجرة، وإن جاء محروقاً فالعتاب على

الجهد الذى ضاع سدى، والعبارة الجاهزة لديها مثلما هى جاهزة لدى الأهل والجيران "العيب فى الفرن مش فى العجينة"، وإن جاء غير محروق لكنه ناشف أو "معَجِّن" فالعيب فى الدقيق أو فى "البيكنج بَوْدَر"، أما إن جاء ناقصاً فـ"اعط العيش لخبازه ولو أكل نصه".

وتختار أمى أفضل ما جاء من الفرن، تضعه فى الأطباق وتغطيه بمناديل السفرة النظيفة، وترسلنا بها إلى الأقارب والجيران، و"ماما بتسلم عليكم وبتقول لكم كل سنة وانتم طيبين ودوقوا عمايل إيديها".

وللطبلية استخدام رمضانى آخر فعليها توضع صوانى الكنافة والبقلاوة ليُضغط عليها حتى ترق، وأيضاً صوانى الرقاق المعمول بمرقة البط أو الأوز.

فى كل جمعة يتيمة، الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، اعتدنا التسابق للحصول على الأحجبة التى توزع علينا أمام "جامع إمام" والجوامع القريبة من عمارتنا الخندقة التى بناها أبى وانتقلنا إليها فى العام ١٩٥٤م. الكل كان يعرف أن هذه الأحجبة توزع للحماية من الحسد والنجاة من النكبات، وهى أحجبة عامة وليست أحجبة أشخاص أى تكتب للشخص باسمه.

كانت تصنع من الورق وأحياناً تغلف بالقماش المَخيط.. وسواء كان الحجاب من ورق بحت أو من ورق مغلف بقماش، وقد يكون الحشو مغلفاً بقماش هو الآخر، فكانت تُكتب داخله إما "السبع

آيات المنجيات"، وإما البسملة وبدايات السور القرآنيـــة، وبعضـــها اقتصر ما يحتويه على حروف ورسوم ورموز، أحبارُها كانت حمـــراء وأحياناً برتقالية، وعرفنا أهّا إنما تكتب بمنقوع الزعفران وماء الـــورد؛ وكنا نتهافت عليها لعلمنا بأن هذه الحروف والرسوم والرموز ليست سوى تعاويذ درء السحر والـــ"عكوسات"، وكم ذهبـــت محـــاولاتى ومحاولات أقرانى لفك شفراهّا سدى، وجاء وقت صرنا نتهافت فيـــه على صنع الأحجبة بطريقتنا ونوزعها على الأطفال الأصغر منا.

عكفت على كراساتى الجديدة التى لم أكتب فيها كلمة وفككتها ورحت أقلد فيها ما كنت أجده فى الأحجبة سواء فهمته أم لم أفهمه، نعم لم يكن بإمكانى الحصول على منقوع الزعفران وماء الـــورد، ولم تقرر علينا فى المدرسة الكتابة بالأقلام الحبر بعد، لذا فقد استخدمت فى الكتابة من أقلام التلوين (الجرافيت) القلم الأحمر، المهم هو تطبيقة الورقة وطريقة ثنيها، فالحجاب يجب أن يكون مثلثاً وداخلاً فى بعضـــه البعض بشكل متفن.

أمى تابعتنى من النافذة فرأتنى أوزع الأحجبة بعد انتهاء الصـــلاة على الأولاد. حينما عدت وجدتُ بيدها حجابا مفتوحـــاً. إذن هـــى علمتْ بما فعلتُ واحتفظتْ بحجاب لنفسها. هذا ما ظننتـــه. لكنـــها خيبتْ ظنى. وضعت الحجاب المفتوح وقد تعرجت ثنياته فوق ترابيزة السفرة وقالت:

"اللى عملته ده يا قاسم اسمه دجل وشعوذة وجهل.. إياك تعمل كده تانى.. فاهم؟".

ومع هذا أتت أمي وجدتي بما هو متناقض مع تحذيرها الحاسم هذا، وفعلته فى شهر رمضان، فى ختامه بالتحديد.

فلأن الشياطين تُصفد و"تُسلسل" فى شهر رمضان، "إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطين ومَرَدة الجن.." (الحديث الشريف)، فإطلاق سراحها حتمي بعد انقضائه، وبما أن الجماعة الشعبية تتوخى تجنب ما عساه أن يحدث بعد هذا الانقضاء، لذا فإن الأسرة منها تضع ليلة عيد الفطر كسرة خبز، عليها قدر من الملح، ومسمارًا وسكيناً تحت عقب الباب، وتُخرج الهُوَن ويأخذ أحد أفرادها فى دقه لمنع الشياطين من دخول البيت؛ ومع أن أمى كانت ترى فى هذه العادة تخريفاً وخيبة عقل، فإنها لم تتخذ موقفاً حازماً منها مثل ذلك الذى وقفته معى عندما منعتنى من صناعة الأحجبة، ربما لأن جدتى، التى هى أم أمى، حريصة على أدائها فى توقيتها كل عام، وهذا ما لم أجد له تفسيراً من أمى المتعلمة سوى أنها تقدر جدتى المتفانية فى خدمتنا ولا تريد إغضابها؛ لذا فهى لم تسمح فقط بأداء هذا الطقس بل شاركت فيه، فتركتْ لجدتى عملية دق الهون ووضعتْ هى كسرة العيش وحبة الملح والمسمار والسكين تحت عقب الباب. أما أنا فيشدنى إيقاع ضربات الهون فى شقق الحى كله ويا له من إيقاع.

أمي وعيد الفطر:

لا تخرج أمي من الدولاب جلباب أبي الحريرى المقلم بالأخضر إلا كل صلاة عيد. لم أَرَ أبي فى حياتى مرتدياً جلباباً سواه، ولم أره مرتدياً إياه سوى فى صلاة العيدين: الفطر والأضحى؛ وللحقيقة فإنه جلباب أنيق ومميز.

توقظنا أمنا فى صباح العيد فنقفز من أسرتنا ببيچاماتنا الجديـــدة ونتسابق إلى الحمام، نتوضأ كما تعلمنا فى المدرسة ودَرّبتْـــا أُمّنـــا، ثم نستسلم لها وهى تلبسنا ملابس العيد وتدس أقدامنا فى الــــــ"جـــزم" والــ"صنادل" الجديدة التى نامت الليل فى أحضاننا.

قبل أن نهبط ممسكين بجلباب أبي لأداء صلاة العيد معه فى الجامع كنتُ التفت دائماً إلى "أودة" الصالون لأنظر إلى باقة الورد البلدى التى يحرص أبي على شرائها كل عيد وتتفنن أمى فى تنسيقها داخل أجمـــل فازة بالبيت. سمعتُ أمى تقول لأبى ذات عيد:

"أجمل حاجة بتعملها كل عيد صحبة الورد الطبيعى اللى بتجيبها لنا"..

فرد عليها أبى: " وأجمل وردة فى البيت ده هى إنتِ".

فى الجامع نكبِّر ونصلى، ونعود لتلقى العيديات ولنفتح جيوبنـــا لأمى لتملأها لنا بالنُقل والــ"فـُـطرة"، "تكـــبش" منـــها وتعطينـــا،

والفُطرة تضم النُقل من لوز وبندق وجوز عين الجمل كما تضم التمر الجاف والملبس والشيكولاته. فى فورنا نقضم الشيكولاتة ونقرقش الملبس، وإذا استعصى علينا كسر قشور النُقل بأسناننا لصلابتها لم نكن نلجأ إلى كسَّارة البندق الموجودة بدرج فى المطبخ، وإنما كنا نسارع بتكسيرها بوضعها بين مفصلات الأبواب ثم نضغط كل باب على ما زنقناه بينه وبين مفصلاته فتنكسر القشور، وأحيانًا تتأبى على الكسر وتكسر هى قطعًا من خشب الضلفة.

وتبدأ مظاهر العيد.

يأتى المسحراتى جارًّا أو دافعًا ببطء عربةَ يدٍ مُسوَّرةً بقماش أبيض أو مُلاءاتِ سرير نظيفة. يقف أمام كل عمارة ويدق على البازة فتهبط إليه من الشبابيك والتراسينات الأسبتة بالمعلوم النقدى وأطباق الكحك والبسكويت والغُرَيِّبة وخلافه، إلا أمى فإن أطباقها تضيق عنها أسبتة البيت فتحملنى أو الموجود من إخوتى بما ستعطيه للمسحراتى من كحك وبسكويت وفُطرة ونقود، فيُفرغ الأطباق فى صوانٍ داخل السور القماشى لتتحول العربة إلى مخزن متحرك بتلال ما أُعطِيَ له.

يفتح عم "لطفى" و"السندس" محلهما لتأجير البسكليتات "أم تلات عجلات" للصغار، و"أم عجلتين للكبار"، وتتوافد عربات الـ"بكّاش"، فنتصايح بعد أن نصعد إلى إحداها ونهلل على العربة الأخرى "البكاش أهوه.. البكاش أهوه"، والـ"بكاش" هو سائق عربة الكارو المزودة

بدكك للجلوس وأربعة أعمدة تربط إليها الزينات الورقية ويجرها حمار أو بغل أو حصان، وهناك تنافس أزلى بين كل الـ"بكاشين" يدفع زبائن كل "بكاش" من الأطفال بالتهليل على الـ"بكاش" الآخر وزبائنه؛ وحينما يهتف بنا سائقها: "اللى يحب النبى يقول هيى"، نجأر بكل ما نملك من طاقة "هيييييى"، ونصير كلنا أفراداً فى كورال يقودُه سائق العربة؛ فنغنى خلفه أغانى العيد المبهجة، منها على سبيل المثال لا الحصر "أبو على .. يا صياد"، ومع سيارة عم "حسن زنجير" أم موتور هُتف "بيلفّف.. عند سبس"، وفى الحالين نترنم بأغنيات العيد الشعبية، وعندما نعود إلى الموضع الذى ركبنا منه نهبط من أيهما وننظر إلى أمنا الواقفة فى الشباك ونُلَوِّحُ لها؛ فتُلَوِّح لنا.

إلى سن معينة كانت تأخذنا إلى حارة العيد. بذراعيها كانت ترفعنا لنمتطى الـ"أحصنة" الخشبية أو تضعنا فى المراكب الصغيرة بالـ"دُوَّارِيَّة" والمراجيح ولا تسمح بركوبنا "الساقية القلابة". تجيز لنا مشاهدة "الأراجواز" والساحر اللى بيخللى الست تطيييير فى الهواا" ولا تجيز مشاهدة رقص "العوالم". تشترى لنا لعبة "شكوكو" بقرش و"سميحة" بقرش، ولا تشترى لنا الطبل ولا "الزمامير"؛ وما كانت لتستطيع أن توقف إلحاحنا من أجل مشاهدة "بريللو" ذلك البهلوان الذى يؤدى ألعابه شديدة الخطورة وهو راكب الموتوسيكل داخل كرة من شرائح الحديد أو الخشب ـــ ربما ـــ إلا بعد أن تقطع لنا التذاكر

وتدخل بنا الصيوان المنصوب له لمشاهدته، وسواء كان هو "بريللـــو" الأصلى أو "التقليد" كنا ننبهر. "بريللو" الأصلى إيطـــالى، أول مـــا شاهدته كان داخل سينما "الأهلى" فى بـــدايات خمســـينيات القـــرن العشرين. كانوا قد نصبوا كرته الحديدية الضخمة فوق خشبة المسرح، ومن داخلها راح يصعد جدارها راكباً موتوسيكله، يهـــبط ويـــدور، ويدور ويهبط، فإذا بنا نراه بسرعته الهائلة يندفع مقلوباً فى قمة الكرة، عجلات الموتوسيكل فوق، وجسمه ورأسه تحت، ويعود فيدور ويلف ويصعد ويهبط، ويصير رأسه مقلوباً ليلهب حماسنا أكثر برفعه ليديه عن مقود الموتوسيكل، وإبعاده لقدميه عن الدواستين.. وهكـــذا. شـــىء مذهل. كنتُ معجباً به أشد الإعجاب. أمى أيضاً أعجبتْ به، لكن ما أكثر ما حذرتنى من تقليده:

"أوعى يا قاسم تقل عقلك وتقول أعمل زيه.. ده علشان يعمـــل كده اتدرب آلاف المرات!".

ومع أنها كانت تسمح لنا بامتطاء الحمير فإنها لم تسمح لنا أبـــداً بامتطاء الـــ"أحصنة" فهى عاليه وسريعة وحمقاء، أما الحمـــير فهادئـــة ومنقادة و"ضهرها واطى".

مع أننى كنتُ واثقاً من صحة تحذيرات أمى، وكذلك أبى وجدتى لأمى، فقد لعب بى الشيطان وأغرانى بأخذ "لفة" على حصان ركبته فى الشارع المجاور لعمارتنا، لكن الحصان المشاكس ما إن أحس بى فـــوق

ظهره حتى رمح مفلتاً الحبل من يد صاحبه. تشبثتُ بكلتا ساقى بظهره وشددتُ اللجام، لكنه أسرع فى ركضه وأنا أترنح بكل اتجاه، وذات ترنح وجدتنى منكفئـــًا على رقبته. حاولتُ إحاطتها بذراعىّ فلم أفلح. فى فزعى أمسكتُ بشعر معرفته فشَمَسَ وحمحم وجرى أكثـــر، وراح ينحرف من هذا الشارع وذاك الشارع وصاحبه يجرى خلفنا ويستنجد بالمارة فلا ينجدونه، بل لا ينجدوننى، فأحسست بأننى هالكٌ هالـــك، أفقتُ إلى أننى لا أصرخ.. فصرختُ بأعلى صوتى:

"إلحقونى.. هاقع.. إلحقونى.. هاموت".

دفع بعض رجال بعربة كارو بعرض الطريق فاستدار الحصـــان فى جريه ليعود من نفس الطريق إلا أنه اصطدم بعمود تراسينة فتوقـــف لحظة كانت كافية لأن أتعلق بالعمود وأهبط إلى الرصيف، بلا دم وبلا قلب أو مفاصل. لما استرددت أنفاسى عدتُ إلى البيت، ولم أكن بحاجة إلى تعليمات أمى وأبى وجدتى بعدم تكرار التجربة، فقد قررتُ مـــن تلقاء نفسى وأنا أستسلم لحضن أمى مقاطعة هذه "الغية" تماماً، وقـــد حدث.

أمى وعيد الأضحى:

مَزِيَّةُ عيد الأضحى أن عيديّته أكبر لأن أيامه أكثر، لكن هدومـــه الجديدة ليست كثيرة كهدوم عيد الفطر، ولا كحك فيه ولا فـــُطرة،

فقط لحوم تأتينا ولحوم نوزعها. ومشاهد نحـــر الأضـــاحى، وأطبـــاق الـــ"فَتَّة بالكوارع"، والــ"فِشَّة"، والــ"كِرشة"، والــ"كِبدة" أكثر مما تكون عليه فى غير أيام هذا العيد، هى واللحوم المُحَمَّـــرة والمســـلوقة والمطبوخة بالــ"دمْعَة".. "هُبَر.. هُبَر".. غير هذا فصلاة العيد هى نفس صلاة العيد، والعيدية هى ذات العيدية والبكّاش والــ"بِـــسكليتات" و"حارة العيد"، وبشاشة الكبار والصغار، وكل ما يصاحب عيد الفطر هو هو نفس ما يصاحب عيد الأضحى.

ذات عيد أضحى بَعيد، جاءنا أبى بكبش أقرن ليكون هو أضحيةَ الأسرة، ربُط الكبش فى المطبخ وصرنا نطعمه بالفول والــ"دريس"حتى يحين موعد التضحية به، فنلطخ الجدران ببصمات أكفنا المغموســـة فى دمه درءًا للحسد، فإذا به ذات ليلة، ونحن نيام، يتخلص مـــن قيـــده ويأتى إلى غرفة النوم ويبدأ فى "قرقضة" أذن أختى "فائزة"، فكفتْ أمى عن مطالبة أبى بإحضار الأضاحى الحية.

إلا أن حنانها وحزمها ورقتها وقسوتها ومتناقضات مشـــاعر الأم الإنسانية اجتمعت كلها فى صوتها وملامحها وتصرفاتها وقت أن تملص "طور" ذات عيد من الجزار وصبيانه وأخذ يتكعبل وينهض ويبرطـــع أمام عمارتنا هائجًا ملتمسًا النجاة بحياته، وهم خلفـــه بســـكاكينهم ومسناتهم وحبالهم، فارتطم بمنفاخ الجزار وأشيائه، واصطدم بالعربات المركونة على جانبى الشارع، ونطح أعمدة الـــ"تراسينات" والجدران،

ولأننى كنت على مقربة أرقب عملية الذبح، فقد فررتُ من أمامه مفزوعاً، إلا أنه دهمنى فسقطتُ على الأسفلت، وبالتفاتة يسيرة ـ منه أو منى ـ انزلقتُ من بين قائميه الخلفيين فلم ينالنى من عنفه سوى نشة ذيل "شعْوَطتْ" وجهى لكنها لم تعقنى عن النهوض والـ"فلسعة" من أمامه لتقابلنى أمى بكل المشاعر المتناقضة وتأخذنى فى الحضن الذى يفرخ روعى وتقول لأبى:

"كتر له العيدية المرة دى يا سى مسعد".

بعد عيد الأضحى تبدأ عودة الحجيج إلى المدينة. فى القديم كانوا يهبطون من البواخر فى ميناء السويس ثم يستقلون القطارات إلى بورسعيد، وبعد ذلك صار جزءٌ منهم يهبط فى مطار القاهرة، ومن القاهرة تكون العودة إلى بورسعيد بالسيارات أو بالقطارات؛ وسواء عاد الحجيج بالقطارات أو بالسيارات كنا نستقبلهم ونحتفى بهم أفضل استقبال وأجمل احتفاء.

"طه شحاتة" الفنان التلقائى كان يُزين جدران بيوت حجاج الرحمن برسوم آية فى الروعة والإبداع لمفردات رحلة الحج من جمال وقطارات وبواخر وسيارات وطائرات ونخيل وجنيات بحر وثعابين والحرمين المكى والنبوى والحجيج فى زى الإحرام، وفوقهم عبارات من قبيل"حج مبرور وذنب مغفور"، "الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة"، "من زار قبرى وجبت له شفاعتى". وسواء سمحتْ لنا

أمنا أم لم تسمح، كنا نطوف على الجدران التى يرسم عليها "طه شحاته" رسومه ونقف أمامها مبهورين.

سواء عاد الحاجُّ بالقطار أو بالسيارة كان ذَوُوهُ يستقبلونه فور وصوله ببيارق ورايات الطرق الصوفية. كنتُ أخفى عن أمى وأبى وجدتى لأمى أخبار ذهابى مع صبيان كثيرين إلى مقار الطرق الصوفية لأحظى برفع بيرق أو راية، أو أنال شرف الضرب على الطبلة، أو الطرق بالصاجات النحاسية لقاء قرشين أو "مية فضة" (قرشان ونصف القرش). أحياناً كنت أمشى فى مقدمة موكب الحاج، وأحياناً أكون فى الخلف أو الجنبين، حينما أكون فى المقدمة يمشى ورائى صف أو صفّان من أهل الطريقة ينشدون أوراداً ويقولون أذكارًا ومن ورائهم يمشى الحاج مترجلاً متصدرًا مستقبليه، وإلى يمينه ويساره أقرب أقاربه وأصدقاؤه وجيرانه، وقد يُقدم له هؤلاء أو أحدهم حصاناً مُطَهَّمًا ليركبه، أو حنطورًا مزينًا بالزهور وسعف النخيل ليستقله، وفى أغلب الأحوال يضع الحاج فوق رأسه الكوفية والعقال؛ وأثناء المسير يُقذف الموكب بالملبس والمِلح والورود، فإذا وصلنا بيت الحاج نُحر الكبش أو الـ"طور" وخطا الحاج من فوقه، وغُمِسَتْ الأكف بدم الذبيحة ولطِّخت ببصماتها جدران البيت المزينة برسوم "طه شحاتة"، وإذا بأكواب الشربات وأكياس "الطوفى" تُوزع علينا، وإذا بالزائرين الداخلين شقة الحاج يخرجون منها ومعهم هدايا الحاج الموزعة ما بين

قفطان وكوفية وعقال وسِبحة وطاقية، أما الشُرب من ماء زمزم الذى يأتي به معه فلخاصة الخاصة. كنتُ أخفى هذا عن أهلى، وكنتُ أظن أن أمي لن تعلم، لكنها علمتْ ووبختنى: "بقي علشان ملاليم تتـــهك نفسك وتبهدل كرامتك بالشكل ده؟.. إحنا حرمينك من حاجـــة؟!"، وما كان المبلغ الضئيل ليهمنى، لكن كان يهمنى الاعتـــزاز بشـــرف المشاركة فى مواكب الحجيج.

***

تَدَيُّنُ أمي وفترة مراهقتى وشبابى:

بلغت سن الحلم فى الحادية عشرة، وكمراهق بدأتُ فى الانشغال بأمور كثيرة منها الكونى ومنها الغريزى، ومـــع اخشوشـــان صـــوتى والتغيرات البيولوجية التى بدأت ألحظها، والخجل الذى صار يعتـــريني، وانهماك ذهنى بالتعرف إلى أسرار الوجود وطبائع الحياة. قبل بلـــوغى هذه السن بمدة كفت أمي وجدتى عن تحميمى..لكننى لا أنسى نظرات أمي وجدتى وهما تتفحصان ملابسى الداخلية قبل غســـلها. كانـــت نظرات فرح مضفورة بنظرات افتخار.

بعد حرب ١٩٥٦م، وكنت قد تجاوزتُ الثانية عشرة ونـــاهزتُ الثالثة عشرة، تلك السنة الحاسمة في عمرى، فاجـــأنى قـــريبى"رأفـــت العشرى" بسؤال مباغت:

"إنت ليه ما بتصليش فى الجامع؟".

كان سؤالاً مربكاً.

خجلتُ من نفسى. حقاً لماذا لا أدخل الجوامع والزوايا، وقد صرت على مشارف الرجولة؟.. خجلتُ من دخول الزاوية القريبة من بيتنا حتى لا يرانى أحد فيظن أحد أننى أتظاهر بالتقوى، فاخترتُ جامعاً بعيداً، وعندما نطقتُ بكلمة "آمين" مع جموع المصلين؛ إذا بالدموع تنهمر من عينىّ، وظلتْ فى انهمار حتى انتهتْ الصلاة.

فى البيت سألتْنى أمى:

"مش عوايدك.. فيه إيه يا حبيبى؟".

أجبتها:

"مفيش"..

وفجأة رأيتها تحتضننى الحضن الذى يُفرخ من روعى وتدعو لى بالخير والرضا الإلهى، وقبل أن تخلّينى مدت إصبعين إلى جبهتى وانتزعت قَشَّةً من حصير الجامع كانت قد التصقت بها:

"ربنا يهديك وينور لك طريقك يا بنى".

ظللتُ أصلى بالجوامع والزوايا حيثما لحقنى الآذان، إلى أن التقيت فى مسجد حمزة بـ"إبراهيم عوض" (أظن هذا كان اسمه)، كان عمرى وقتها قد تجاوز الرابعة عشرة بقليل؛ وكان شاباً نحيلاً بشوش الوجه حلو الحديث مهذبًا. جمع عددًا ممن يماثلوننى فى العمر وحدد لنا موعدًا

ثابتـًا نلتقى فيه، وراح يُدَرِّس لنا طرق أداء العبادات، ويعودنا علـى قراءة الكتب الدينية، ثم كلمنا عن جماعة الإخوان المسلمين، وصـار ينتقد الأداء الدينى لأعضاء جمعية أنصار السنة المحمدية، وحدثنا عن أن الجماعة لديها فرق كشفية، ثم بدأ يحدثنا فى السياسة وأمور الاعتقـال والمطاردة، وقال لنا ذات يوم إنه عاد إلى منزله فوجد مراتـبَ غرفـة النوم والمخدات مبقورة، وكلّ شىء فى بيته مبعثرًا.

كان ممنهجًا، وعلى رقة لهجته معنا كان صارمًا إلى حد القسـوة وهو يمتدح الإخوان المسلمين ويسفّه من هم دونهم من أهل الـدين، وكان حادًا وعنيفـًا فى انتقاده لأهل السياسة؛ وبدأت أشعر بأنه إنمـا يبغى توجيهنا إلى تبنى أفكاره.

فى بدايات العقد الستينى من القرن الفائت شاهدتُ مجموعة نشيطة من دعاة ملتحين يرتدون الجلابيب القصـيرة والسـراويل الطويلـة وينتعلون شباشب وصنادل. قائدهم كان شاباً أغلب ظـنى أن اسمـه "خالد"، كان ربعة جهورى الصوت بليغ البيان. بالمساجد، سواء كانت مساجد جامعة أو مجرد زوايا، كانوا يطوفون. التقيتُ بهم فى الجـامع التوفيقى فأعجبنى حماسهم وصرتُ أتبعهم، فإنْ جاء موعدى فى مسجد حمزة اتجهت إليه. "خالد" كان يعلم الناس أيضـاً أمـور العبـادات والعقيدة؛ وفى إحدى الزوايا جلست إليه إذ يلقى درسًا من دروسـه، وإذ به ينتقد الأخوان المسلمين انتقادًا مريرًا.

كان طبيعياً لعقلي الغض أن يقوم بالمقارنة.. يجمع المشتركات ويصنف الفوارق. كلاهما جاذب بما يُحَدِّث به عن الدين ممارسات وعقيدة، وكلاهما يَنفرُ عن الآخر ويُنَفِّر مستمعيه منه، فأيهما أختار؟.

لجأت إلى أبي فقال لي: "ربنا أنعم عليك بالعقل، فانتَ ليه تسلم عقلك لدول أو لدول؟"، وسألت أمي فقالت: "اللي عايز يعرف ربنا مش محتاج وصاية من حد"؛ وكان أن بزغ في المدينة نجم شيخ أزهري كفيف اسمه "محسن"، شاب متحمس وعقلاني، فصرتُ أرتاد مجالسه واستمع إلى خطبه بمسجد المغربي الدمياطي، وبدأت أشعر برضا أهلي عني.

مرحلة المراهقة هي مرحلة الجمع بين المتناقضات حقاً، فمع مداومتي الصلاة في المساجد وشرائي للحصير بمصروفي الشخصي وتوزيعه على المساجد والزوايا، كنتُ أرتاد دور السينما، وأطالع الروايات والكتب، وأواعد الفتيات، وأتمشى على البلاج، وأقرض ما كنت أظنه شِعرًا، وأجتهد مع التأليف الأدبي السرديّ، وبالتوازي مع هذا كله كنتُ أبحثُ عن عمل. كل هذا مع وقوعي أسير خِلة الخجل؛ وحدث أن حصلتُ بعد عام ونصف العام من تخرجي في مدرسة بورسعيد الثانوية التجارية على وظيفة بديوان عام المحافظة. كنتُ فتى رومانتيكياً، ثماني عشرة سنة وستة أشهر فقط هي كل المدة التي سلختها من عمري، شاربي أخضر، وفي رأسي من كل شيء طرف.

فى مكان عملى تحادثتُ فى أمور الدين والصلاة والطهر والفساد الخلقيين مع زميل لى اسمه "على العطوى"، واقترحتُ إنشاء زاوية للصلاة أمام مكتبنا، وقد كان. اشتريتُ الحصير وصرتُ أؤذن لكل صلاة ظهر وأقيمها لنؤم المصلين من الموظفين والجمهور بالتبادل.. "على العطوى" وأنا. اكتشفتُ بعد ذلك أن "على العطوى" عضو فى جمعية أنصار السنة، وكان يحمل دفاتر مختومة باسم الجمعية لجمع التبرعات فتبرعتُ تحت اسم فاعل خير، وما لبث أن طلب انضمامى إلى هذه الجمعية فتذكرتُ كلام "إبراهيم عوض" و"خالد" وأبى وأمى، وكان أن ترددتُ، وساعد على عدم تكرار الطلب تجنيدى السريع بالقوات المسلحة (على العطوى صار فيما بعد الحاج على العطوى، عضو مجلس الشعب، وجمع بين زوجتين).

مارستُ منذ بداية تجنيدى بالقوات المسلحة هواية فرش مساجد الوحدات العسكرية التى تنقلتُ إليها بالحُصر، فى الإجازات كنتُ أشتريها، ولم يحدث أن اعترضنى أفراد الشرطة العسكرية إذا ما رأوها معى. وكنتُ أشعر بأن هذا بفضل رضاء أهلى عنى ودعائهم لى. بهذا الإحساس أسستُ مسجداً بوحدتى التابعة لمحطة فايد العسكرية على الضفة الغربية للبحيرات المرة وصرتُ خطيبَهُ منذ العام ١٩٦٨م. حتى يوليو من العام ١٩٧٢م. واشتهرتُ بالمنطقة بـ"الشيخ جاسم"، ونلتُ مباركة أبى وجدتى لأمى وأمى.

حقيقة تديُّن أمي:

تديُّن أمي، كتديّن أغلب المصريات والمصريين، معتـــدل. تنطـــق الشهادتين فى كل وقت، وتصلى الصلوات الخمس فى أوقاها، وتصوم صوم الوجوب وصوم السنن، وتزكى فى أوقات الزكاة وتتصـــدق فى غيرها؛ وحجت إلى بيت الله الحرام وزارت رسوله.

مثلها مثل الملايين تقدم المشيئة، وتحمد الله فى السراء والضـــراء. تُعَذْبِلُ من الشيطان الرجيم، وتُبَسْمِلُ بالرحمن الرحيم. تُحَوْقَلُ فى كل مُلِمَّة، وتوُتِر فى كل عدد. تحمد الله عند العطس، وتشمِّت العـــاطس. تحب الرسول حباً جماً وتوقر آل البيت توقيراً عظيماً. عودتنا أن نصلى على النبى كلما مرت من أمامنا عجول أو أغنام فى طريقها إلى المذبح، وكلما رأينا أشياء كبيرة أو جميلة أو غاليـــة لا نســـتطيع اقتناءهـــا؛ وغرستْ فينا عادة تقبيل كسر الخبز الملقى فى الشارع ووضعه حيث لا تطأه الأقدام، إلى جوار إفريز الطريق أو إلى جـــوار حـــائط أو تحـــت شجرة؛ وعلمتنا أن الثواب الذى نجنيه يكون عظيماً إذا ما رفعنا قشر الموز وهشيم الزجاج والمسامير من الطريق، أو غطينا غـــائط النـــاس "قليلى الأدب" بالرمل، ووضعنا الإشارات المحذرة من المخاطر. إنـــه التدين الفطرى المجدول بالموروث الشعبى الحى.

(١٢)
أمي وتعليمي

فى المدرسة الابتدائية كانت تشجعنى على التمثيل المسرحى، وفى المدرسة الإعدادية كانت تحثنى على القراءة وتسألنى عما قـرأت، وفى المدرسة الثانوية كانت تدفعنى لممارسة الرياضة.

كانت تعتنى بى وبإخوتى أيّما اعتناء. فرؤوسنا ممشطة ومسرحة، كل حسب نوعية شعره، ما بين "بوجـودين" و"كاريـنه" و"هَـرَم"؛ والـ"مرايل" دائماً مكوية، والمناديل نظيفة، والحقائـب القماشـية ثم الخشبية فالجلدية فيها الكتب والكراريس ولفات الساندوتشات.

تفتش فى أظافرنا وتفحص أعيننا قبل الذهاب إلى المدرسة وبعـد الإياب؛ وطبعاً مظهرنا بعد الإياب لم يكن يسر حبيبًا أو عدوًا، فكانت تصلح من متعلقاتنا ما يمكنها إصلاحه، وتأخذنا إلى الحوض لتغسل ما اتسخ من رؤوسنا وأكفنا وتداوى ركبنا من الجروح والرضوض الـتى أحدثتها شقاوتنا.

وكانت تحرص على حضور الحفلات التى تقيمها مدارسنا فى المناسبات المختلفة: عيد الأم، عيد الثورة، استقبال رمضان، وحفل نهاية العام الدراسى.

حرصت على مشاهدتى فى الحفلات المسرحية التى كنت أشارك فيها بالتمثيل، وكنت أفاخر لِذَاتِي فى المرحلة الابتدائية بأن هذه الأنيقة المحترمة الجالسة فى الصف الأول بجوار أبلة الناظرة الأستاذة "فردوس الجراحى" هى أمى.

ذات عام، فى المرحلة الإعدادية، حدث أنى كنتُ يوم الاحتفال بعيد الأم خاوى الوفاض تمامًا بعدما أنفقتُ مصروفى كله على دور السينما وكتب الروايات والقصص. رأتنى محرجًا فأخذتنى من يدى إلى محل "عوكل" الحلوانى الذى كان شهيرًا وقتها واشترت لى الملبس وعلبة بلاستيكية شفافة رائعة، وكانت العلب البلاستيكية أيامها موضة غالية الثمن قياسًا إلى العلب الكرتونية المجانية، وطلبتْ من عم "عوكل" لف العلبة بمحتوياها بشريط من الستان، وإذا بى أمام تلاميذ مدرسة "الجمهورية" ــ فؤاد سابقاً ــ أهدى أمى أفضل علبة ملبس فى الحفل.

إجازتا "نُص" السنة والصيف كانتا من مواسم "السرمحة" و"البرطعة"، فهذا حقنا. أمى آمنت بهذا وطبقته فتركتنا نفعل ما نشاء بشرط ألا نبتعد بـ"سرمحتنا" و"برطعتنا" عن الشارع، وألا نحيد عن محيط المنزل، لنكون تحت بصرها وسمعها، وحتى لا نشتط ويلعب بنا

الشيطان فنورد أنفسنا موارد التهلكة، ومن موارد التهلكة الذهاب إلى البلاچ والنزول إلى البحر بغير صحبة منها ومن أبينا.

عنى فقد لعبتْ معى الشياطين ولعبتُ معها كثيراً.. فى هذه المواسم وفى غيرها.. كنا نتخير ــ أنا والشياطين ــ للعبنا أكثر من مكان بعيد عن البيت وعن عينىّ وأذنىّ أمي؛ وما أكثر الأماكن المدهشة التى كشفتها لى هذا الشياطين: "البلاچ"، "الكنال الداخلى"، "الجبل"، ملعب النادى المصرى، خرابة المستشفى الإنجليزى، "بابور النور"، زرابى البصل، جناين "سعد" و"فريال" وبورفؤاد، و"السيما".

فى البلاچ كنت أنعم باللهو مع القواقع والنوارس وموج البحر الذى يتلقفنى عارياً إلا من اللباس. كنت أفعل هذا على الرغم من يقينى أننى لكى أعود إلى بيتنا جافًا بلا بلل فلابد لى من الوقوف والمشى فى الشمس طويلاً، ولابد من تمشيط شعرى جيدًا، ومن تنفيض جسمى من الرمال العالقة به تنفيضًا تامًا حتى لا تعرف أمى أننى كنت فى البلاچ، والبلاچ هو المكان الآمن الذى كنا نحن أطفال.الشارع والشوارع المجاورة نختاره لنتشاجر فيه بعيدًا عن تدخل الأنصار وتعنيف الكبار وقبضات وصرخات الأهل، وأفضل ما فى البلاچ مكانـًا لهذه المشاجرات هو "الكباين" الخشبية التى كانت مقامة على أعمدة حديدية (دمرت فى حرب ١٩٥٦م.)، وما أكثر ما كنت أقول لخصمى حينما يركبنى شيطان التعارك:

"لو شايف نفسك راجل اطلع لى عند الكباين".

وسواء ذهبتُ للبلاچ للهو مع القواقع أو للاستحمام أو للتعارك، ومهما فعلت لإزالة الآثار الدالة، كانت أمــى بنظــرة واحــدة، أو بــ"لحسة" لسان لجلدى، تعرف، وما أسرع أن تستعير وجهًا يتصــنع الصرامة وهتف بى:

"وله..إنتَ كنت فى البلاچ"..

فيُسْقَطُ فى يدى وأجرى من أمامها.

نفس الأمر كانت تفعله معى عندما أترك شيطانى ويتركــوننى فى الحارة لأعود إلى البيت بعد ارتيادى للأماكن الأخرى، كانت تستخدم نفس الحاستين البصر والذوق، إلا عندما أعود من السينما فقد كانت تستعيض بحاسة الشم عن حاسة الذوق، فأدخنة المدخنين الــتى تعبــئ هواء كل صالات السينما كانت تَعْلَقُ بملابسى لتفوح بها تحت أنــف أمى. أكثر من مرة حاولتُ خلع البلوڤر فى الشتاء والقميص فى الصيف وتنفيضهما عسى أن يزول دخان السجائر منهما لكن عبثا ما حاولتُ، فرائحة الدخان لا تضيع من الملابس إلا فى طشت الغسيل، وأمى هى التى تغسل فاكتشاف أمرى هو أمر حتمى، فإذا ما استعارت الوجــه الذى يتصنع الصرامة وواجهتنى مقررة:

"وله.. إنتَ كنت فى السيما".

قلت لها بقِحَــةٍ: "أيوة"..

وجريتُ من أمامها.

غالباً ما تختتم هذه المواقف باختبائى وراء أبى أو جدتى أو حـــتى تحت السرير أو فوق سطح العمارة، لكن لا يُسدل علـــى أى منـــها الستار إلا بسؤال استعجالى اعتدت سماعه منها:

"إمتى تيجى أيام المدرسة علشان تبطل شيطنة ؟"

(١٣)
أمي وتأديبي

سرعان ما كانت تأتى أيام المدارس، لكن أبداً لم يحدث أن "بطَّلتْ شيطنة".. لا أنا ولا أحد من إخوتى.

أذكر أنه حدث منى، وقت أن كنتُ ملتحقاً بمدرسة أحمد سالم "الفجوعى"، والمدارس "الفجوعى" التى كانت منتشرة فى بورسعيد فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين هى مدارس من نوعية مميزة، فلا هى بالكتاتيب حيث الحُصر والشيخ والعَرّيف والفَرَقلّة، ولا هى بالمدرسة الرسمية حيث الـ"مرايل" والأحواش والطوابير وتحية العلم، كانت نوعًا من المدارس الخاصة تقام فى الشقق السكنية، تُلحِق بها الأسر أولادَها وبناتِها قبل بلوغ سن التعليم الإلزامي أو فى الإجازات الصيفية حتى لا ينالهم فساد اللعب فى الشوارع، وكانتْ تَميز عن الكتاتيب بأن بها "تُختَت" وسبورات وأساتذة و"أبلوات" و"دادات" يَبِعْنَ لنا العسلية والحلاوة السمسمية والحمصية بالملاليم التى تعطيها لنا أمهاتنا؛ وهى "فجوعى" لأنها لا تمنح شهادات دراسية، ولأن لها مصاريف عالية تثبت أن أصحابها "مفاجيع"؛

وحدث قبل بلوغى سن الإلزام أن ألحقنى أهلى بمدرسة "أحمد سالم" القريبة جداً من بيتنا.

وذات صباح أطلتْ أمى من النافذة فرأتنى و"الشرنوبى" ـــ ابن مالك العمارة التى نسكنها، لعل اسمه كان "محمود الشرنوبى" ـــ رأتنا واقفيْن وراء عربة يد بها بلح، وبأصابعنا الصغيرة انهمكنا، فى غفلة من صاحبها، فى تخريم الورق الذى يُبطن قيعان وجوانب أقفاص الجريد المملوءة بالبلح ونستخرج البلح ونضعه فى جيوبنا أو نأكل منه بدون غسيل.

للتوّ كانت فوق رأسينا متلفعة بالملاءة اللف، فلا وقت للملابس السُبور. صرخت الصرخة:

"انتوا بتعملوا إيه؟".

من فوره فر "الشرنوبى" بغنيمته، ووقعت أنا فريسة أمى التى سارعتْ، وهى توبخنى بأعنف العبارات، بدس يديها فى جيوبى وإعادة البلح إلى عربة الرجل الذى بدا أكثر رأفة بى من أمى:

"خلاص يا ست.. أهو زى ابنى"..

لكنها لم تكف عن توبيخى:

"ما عنتش تمشى مع الشرنوبى ده اللى هايفسد أخلاقك.. أهو خلاّك تزوغ من المدرسة وعلّمك السرقة".

لم تضربني، لكنها قالت:

"أنا هاوديك للى هايأدبوك"..

وإذ بها تقودني إلى مدرسة أحمد سالم، وفى فصلى قالت للمـــدرس و"الأبلة" ولتلاميذ الفصل كلهم:

"يرضيكم إن قاسم يزوغ من المدرسة ويسرق بلح؟".

كانت هذه الفضيحة وحدها تكفى لتأديبى فالـ"عيـــال" ســـوف يمسكوها لى ذلة، لكن التأديب أخذ بُعدًا آخر فقد دسَّتْ "الأبلة" قلم رصاص بين أصابعى وأمسكت بكفى وجعلت بطنه لأســـفل وظهـــره لأعلى وأمسك المدرس بالمسطرة الخشبية وأخذ يضرب أصابعى بها وأنا أصرخ وأتأوه إلى أن قالتْ أمى:

"كفاية كده.. هو اتأدب خلاص وهايحرَّم".

موقف عكسى اتخذته أمى لما جئتها من "مدرسة التحريـــر" ـــــ الـــ"فجوعى" أيضاً ــ مضروباً. كان أبى قد ألحقنى بهذه المدرسة، التى تبعد عن بيتنا بضعة شوارع، أنا وأخى الأكبر "على".

ذات إجازة صيفية لتلمَّنى أنا تلميذ المدرسة الحكومية وهو تلميذ مدرسة الـــ"فرير" الفرنساوية، بدلاً من اللعب بالشوارع، وكان لا بد ومن الحتمى أن نشترى من الـــ"دادة" يوميًا ما تبيعه لنا من أصـــناف العسلية، وكانت عسليتها متشكلة فى الغالب الأعم على هيئة سمـــك،

لدرجة أننا نسينا كونها عسلية وصرنا نطلق عليها "حلاوة سمك". قطعة الحلاوة السمك هذه بمليم. لذا كانت أمى تعطى كل صباح أخى الأكبر "صلدياً"، أى اتنين مليم؛ وحدث فى يوم أن أخذت منه الصلدى ونحن فى الطريق إلى المدرسة. فى الفصل مرت الـ"دادة" وأعطتنى الحلاوة سمك التى تخصنى واتجهت إلى أخى الجالس فى صف الـ"تُخَتْ" الأخير لأنه طويل بحكم سنه واعطته سمكة، ولما طلبتْ منه الـ"صلدى" كما اعتادت قال لها: "مع قاسم". جاءتنى فتذكرتُ، لكننى بحثتُ عن الـ"صلدى" فلم أجده.. لقد ضاع، وكنتُ قد أكلتُ السمكة التى أعطتنيها، عندئذ أخذتنى من الفصل ووضعتنى فى حجرة بها كراكيب وأحبال وميكروفونات. إنها الحجرة التى كانت مشهورة بـ"أودة الفيران"، وفى كل مدرسة كانت هناك "أودة للفيران". فى "أودة الفيران" هذه ضربتنى الـ"دادة" ضربًا آلَمَنى، لكن ما آلمنى أكثر بل أفزعنى هو وجودى فى "أودة الفيران". لّما عرفتْ أمى ما حدث جاءتْ إلى المدرسة وبهدلتْ صاحبها ومدرسيها والـ"دادات"، ورمتْ ورقة نقدية (يعنى ملاليم كثيرة) فى وجه الـ"دادة" التى ضربتنى، وانتزعتنى وأخى من "تختتينا" وحرمتْ المدرسة منا.

خرجتُ صباح يوم جمعة من البيت ولم أعد إلا بعد الغروب. كان "الكنال الداخلى" قد استهوانى، و"الكنال الداخلى" كما يتضح من اسمه قناة نهايتها، أو لنقل بدايتها، تقع داخل المدينة عند التقاء شارع

الروضة بشارع رقم ١٠٠. كان يشغى بالحركة، ويضج بمظاهر الحياة، ففيه مَرْسىَ اللنش الذى ينقل العاملين والعاملات ويذهب ويعود بهم، إلى ومن، مصنع الشاى، وعلى ضفته الشرقية عدد من المســـتودعات وزرابي البصل ومصنع لتجفيفه، بالإضافة إلى مصنع تعبئة الشاى الواقع فى الجنوب البعيد، وعلى ضفته الغربية، غير ســـقالة رســـو اللـــنش، مستودعات للأخشاب وورش صناعة مراكب الصيد الخشبية، وبعض أماكن تفرغ فيها المراكب الشراعية مواد البناء من رمل وزلط. إلى هذا الكنال كنتُ أذهب بعد كل مرة تلد فيها أمي، حاملاً خلاص المولود.

أخذتنى روعة ما أراه على ضفة "الكنـــال الـــداخلى" الغربيـــة، وأذهلتنى هياكل المراكب الديناصورية وإذا بى أمضى جنوبـــاً حـــتى وصلتُ إلى نقطة التقائه بقناة الرسوة عند قرية القابوطى الواقعة أقصى جنوب بورسعيد، وهناك التقيتُ صياداً مسناً يلقى بشبكته "الطرحـــة" إلى الكنال ويخرج منها أسماكاً صغيرة بديعة، فوقفتُ إلى جواره، وبعد تأمل انضممتُ إليه وصرتُ التقط السمك الصغير من الشبكة كلمـــا سحبها وأضع ما ألتقطه منها فى مشنة من خوص تجاور قدميه؛ وحدث أنه فتح منديلاً من قماش فإذا به رغيفان مبلولان بالماء وكميـــة مـــن "الشبار" المشوى وقال "بسم الله" مما يعنى أنه يدعونى للأكـــل معـــه، وأكلتُ.. ويا له من مذاق لذيذ استطبته وقتها ولم يزايلنى للآن. فجأة انتفضتُ وهو يلملم رصاص الشبكة ليدسها فى مشنته.

غربتْ الشمس فهرولتُ إلى البيت لأتلقى أقسى عقاب مـــن أبي. المرة الوحيدة فى حياتى التى ضربنى فيهـــا أبى. ضــــربنى وقـــال إنـــه سيجوعنى، وقال لجدتى لأمى ولأمى لا تعطيانه أى أكل، وقـــال إنـــه سيحرمنى من المصروف إلى الأبد، وسيحبسنى فى غرفة الصالون، ولن يسمح لى بالخروج من البيت "طول ما هو عايش". صدقته. ملامـــح وجهه ما كانت توحي إلا بأنه سينفذ ما اعتزمه، مع أن الغد هو السبت وذهابي إلى المدرسة محتم لأن الامتحانات على الأبواب.

غضب أبي كان عارماً لأننى كذبتُ عليه واختلقتُ قصصاً، القصة تلو القصة، ظناً منى أن الأحداث التى اختلقتها، وبثثها، كافية لتغطية وقت غيابي الممتد من قبل صلاة الجمعة حتى قبيل صلاة العشاء، ناسياً أن كل من بالبيت خرج للبحث عنى فى تلك الفترة فى الأماكن الـــتى تخيلتها مواقع لأحداث القصص التى اختلقته، وفى غيرها. بدا لى أن أبي الحنون قد تبدل تماماً، وأنه تفرغ لعقابي بعقوبات لا نهاية لهـــا، إلى أن تدخلت أمى فى الوقت الذى بدأتُ فيه أيأس من تدخلـــها. تـــدخلتْ وقالتْ جملتين استفهاميتين اثنتين، كل جملة أجبت عليها بمفردة واحدة:

"تبطل تخرج من غير إذن؟".

"أبطل".

"تبطل تكذب؟".

"أبطل".

لتلتفت إلى أبي:

"خلاص يا سى مسعد.. قاسم ماعدش هايعمل اللى عمله النهاردة"

وانفرجت الأزمة.

بالطبع لم أَفِ بالوعديْن. وأنّ لطفل ما بين السنتين الثامنة والتاسعة من عمره أن يعى أهمية الوفاء بما يعد به أهله. الأمر بالنسبة له لا يخرج عن فك أزمة والخروج من مصيبة.

إلى "جنينة سعد" كنتُ أذهب أنا وأصحابي وأصحاب أصحابي. نلعب هناك عسكر وحرامية و"چندر" و"ركبتوا خلولها"، نتضارب بالسيوف المصنوعة من جريد الأقفاص، ونتقاذف بقراطيس الرمل، ونتبارى فى التنشين على العصافير بالنبال الخشبية، ونصعد فوق الخندق القديم الذى قيل إنه ما شيد إلا للاحتماء من القنابل الذرية، وأعود إلى البيت وقد أخفيتُ الخدوش والسحجات واجتهدت فى مداراة فتوق هدومى، لكنها فى كل مرة "تقفشنى" وتقرر:

"قاسم.. إنتَ كنت فى جنينة سعد".

مع التكرار وكثرة مراوغاتى وحكاياتى وتبريراتى، بدا عليها أنها أذعنت للأمر الواقع واستسلمت و"غلب غلابها"، ومن ثم لم تسايرنى أية ريبة، لّما قالت لى آخر مرة تقفشنى فيها:

"ماتخفش.. اغسل وشك، وغيَّر هدومك، وهندم نفسك، علشان عايزاك معايا فى مشوار مهم".

سمعتُ كلامها وفعلتُ ما طلبت وسرتُ معها فى الشارع يدها فى يدى، أو بالأصح يدى فى يدها، ولأنها توجهت بى شمالاً فقد حــزَّرتُ أنها متجهة بى إلى الشارع التجارى لتشــترى لى هــدومًا جديــدة أو لتشترى أشياءً من محلات العطارة لتصنع بها الحاجات الحلــوة الــتى أحبها، لكنها تجاوزت الشارع التجارى وشارع الثلاثينى ودخلــت بى شارع صفية زغلول، و"هُبّْ" لقيتُ نفسى قدام باب قســم شــرطة العرب، وهى تقول للجندى الواقف بالبوابة:

"امسك الوله ده يا شاويش.. دخله للمــأمور علشــان يعلمــه الأدب".

فزعتُ وحاولتُ إفلات يدى من يدها فلم أفلح.

" خلاص يا ماما.. حَرَّمت".

"أبداً.. خده يا شاويش".

"حرَّمت.. صدقينى".

"أبداً.. عمرى ما عدت هاصدقك".

أشدها إلى لخارج وتشدنى إلى لداخل، والجندى يمد ذراعيه نحوى فأبعدهما وأصرخ باكياً بشدة.

"حرَّمت يا ماما.. والله حرَّمت".

"انت ما بتسمعش الكلام وما بتعملش إلا اللى فى دماغك".

"حَرَّمت يا ماما.. حَرَّمــت والله.. صــدقينى المــرة دى.. والله حَرَّمت".

وخرج على الضجيج ضابط يلبس الكاب وعلى كتفيــه لوامــع كثيرة. سأل بحزم:

"إيه؟.. فيه إيه؟.. إيه الدوشة دى".

عندئذ عادت إلى أمى طيبتها، فقالتْ بصوتها الرقيق:

"خلاص يا حضرة الضابط.. هوه اتعلم الأدب خلاص".

وعادتْ بى إلى البيت دون أن تفلت يدى من يدها، وإلى جوارها مشيت صاغرًا ومقرًا ومعترفــًا فى قرارة نفسى بعظمة أمى.

من الحوادث المهمة التى أدبتنى فيها أمى كانت حادثة سرقة.

نعم سرقة.

ليست سرقة بلح كما كان فى بواكير أيامى، وإنما سرقة فلوس.

نعم فلوس.

سرقت نصف جنيه ورقى "بحاله". حدث ذلك فى وقت كانت فيه "الحتة بخمسة" ــ خمسة قروش ــ ثروة، فما بالنا بخمســين قرشــا؟.. كانت الورقة "أم خمسين" جديدة "نوفى"، ومطوية فى علبة مجــوهرات بها خاتم، عثرت عليها فى كومودينو بجوار ســرير أبى وأمــى. "وَزَّنى" الشيطان فأخذتها وقررتُ ألا أصرفها مباشرة، فالمتبقى من مصــروفى

يكفي ارتياد السينما لثلاثة أسابيع وربما أكثر، لذا هداني تفكـيري إلى إخفاء نصف الجنيه في المظروف الضخم الذي يحتوي طوابع البريد التي أقتنيها، وكنت من هواة جمع الطوابع في هذه الفترة من عمري، وكان هذا هو خطأي فما من جريمة كاملة أبداً. دخل أخي الذي يصـغرني بعامين "رمضان" (رحمه الله) غرفتي، وأخذ يعبث في طوابـع البريـد فارتطمتْ أصابعه بنصف الجنيه فحمله إلى أمنا التي ميزته للتوّ.

انتظرتني حتى عدتُ من السينما. من شكل وجهها علمتُ أن في وقفتها أمور. ما إنْ لوحت بنصف الجنيه أمام وجهي حتى تيقنتُ مما أنا مقبل عليه. سألتني:

"منين جبت النص جنيه ده؟".

غار الدم من جسمي كله، ومع هذا أجبتُ:

"من الشارع".

"منين في الشارع؟".

"من جنب القهوة".

"قهوة مين؟".

"قهوة السبرسجية".

وعند هذا الحد هجمت عليّ، ولأول مرة راحت تضربني محتقنـة الوجه نافرة العروق، فجريتُ منها وهبطتُ السلم فألقتني بشباشـب البيت وهي هتف بي:

"هي دي آخرة تربيتي.. تطلع حرامي وكمان كداب؟!".

وكلما ألقتنى بشبشب طرقت بقبضتىّ — ويا للقوة التى حلت فيهما وقتها — الدرابزين والحائط مهدداً بهدم البيت كله إذا لم تُعِد لى نصف الجنيه. كان شيطان قد تقمصنى بالكلية فرحتُ أجأر بأعلى صوت وأضربُ الحائط والدرابزين بأشد قوة، وفجأة فُتح باب الشارع وظهر أبى على السلم، فـ"عبطنى" لا ليمكنها من ضربى، وإنما ليحمينى من سيل الشباشب التى تلقيها فوقى. وبعد أن سمع ما كانت تكرره أمى، وجه لى جملة واحدة:

"خلليك شجاع واعترف".

وكنتُ شجاعًا واعترفتُ، فتوقف انهمار الشباشب، وهدأتْ أمى، وتبددتْ سحب الشر.

آخر علقة أنالتْنيها أمي تسبب فيها أخى الأكبر "على"، كان غير راض عن علاقة صداقة بدأت تجمع بينى وبين "فاروق" ابن أسرة "مبروك" الشهيرة بتجارة المخدرات التى غالباً ما كان نشاطها يجذب ضابط المباحث "عبد الحليم بركات" الشهير إلى حارتنا. ارتبطتْ شهرة الضابط بركات بمغامراته الأسطورية مع تجار المخدرات كبارًا وصغارًا ومهاراته فى التنكر بهيئات مختلفة إلى أن يوقع بالتاجر منهم تلو التاجر، وكان يستقل فى المهام الرسمية العلنية سيارة "فورد ستيشن واجون" ذات صالون خشبى يشبه قطع الموبيليا الكلاسيكية، وقد اكتسبت هذه السيارة شهرتها من شهرته، فإذا ما جاءت أو راحت فـ"عربية بركات

جاءت وعربية بركات راحت"، وما أكثر ما شهدتْ شـوارع حـي العرب والمناخ اشتباكات عنيفة بين تجار المخدرات وصبيانهم من ناحية وقوات الشرطة وفيهم بركات من ناحية أخرى. المهم صداقتى الوليدة لـ"فاروق" كانت موضع استهجان من أخى الأكبر "على"، ولأننى كنتُ فى بدايات طور المراهقة، (حوالى ١٢ سنة)، وكانتْ قراءاتى قد كوّنتْ لدى حالة من التشبع بأفكار الثورة الفرنسية حـول الحرية والإخاء والمساواة، ومكنتنى من امتلاك مجموعة من الأفكار الممزوجة باتجاهات رومانتيكية وراديكالية، فقد عارضتُ أخى؛ وكلما قال كلمة رددتُ بعشر كلمات، إلى أن فاض به فضربنى، فضربته، فتدخلْتْ أمى، واكتشفتُ أن أخى ما طلب فض هذه الصداقة إلا بإيعاز منها، وقالتْ إنها وأبى وأمها غير راضين عن هذه الصداقة التى سـتتلفنى بـالحتم، فدافعت عنه وعن معانى السمو الإنسانى واتهمتهم بـالظلم ومعـاداة مبادئ الإنسانية، ليس هذا فقط، لكننى قلت بأجهر صوت:

"أنا وراكم وراكم لغاية ما تبطلوا فاشية يا فاشيين..".

ولم أكن فى ذلك الوقت قد عرفت من الفاشـية غـير لفظهـا، والنتيجة هى علقة محترمة مـن أمـى اسـتخدمت فيهـا الخيزرانـة والشباشب.

تأديبها لنا لم يقتصر على التعنيف واستخدام الخيزرانة أو التهديد باستخدامها، إنما اشتمل أيضاً على أساليب عديدة منها بذل النصـح

الحانى، وإيضاح الفرق بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، وتعليم آداب المائدة، فلا أكل من غير "بسم الله الرحمن الرحيم" فى بدايته، و"الحمد لله" فى نهايته، والأكل بالملعقة، ونُغَمِّس "نونو نونو"، ولا كلام على طعام"، و"نستنى لّما بابا يمد إيده الأول"، و"ناكل من قدامنا"، و"عيب لما نيجى نشرب الشوربة نشفطها ونعمل صوت"، وإذا غلبتنا العطسة "ندور وشوشنا ونقول الحمد لله بعد العطسة". علمتنا أن دخول أى مكان يكون بـ"الرِجْل اليمين" إلا دورة المياه فلا ندخلها إلا بـ"الرِجْل الشِمَال"، وإذا ما رأينا شيئاً جميلاً أو غالياً نكسر سم عينينا بقولة "اللهم صل على النبى"، وإذا رأينا ذبيحة تُذْبَح نسمى باسم الله وندعوه "اللهم صبِّرها على بلوتْها"، وإذا ما رأينا جنازة فى الطريق وقفنا ورفعنا سباباتنا ونطقنا بالشهادتين، وإذا رأينا لقيمات مرمية فى الطريق التقطناها و"بوسناها" ووضعناها فى جانب بعيد عن دهس الأقدام.

ومع كل هذه الصور التأديبية، وما هى إلا قليل من كثير، كانت تحتفل بأعياد ميلادنا وتصنع لنا الكيك والتورتة وتشترى الجاتوه، ومع شهادات النجاح فى المقررات المدرسية تمنحنا، بالإضافة إلى مكافآت أبى، المكافآت المجزية؛ وكثيرا ما حثتْ أبى على زيادة المصروف لأن "العيال كبرتْ، ومطالبهم كُترتْ، والحاجات غليتْ، ونعيم ربنا موجود والحمد لله".

(١٤)
أمي والسياسة

حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. كان اهتمام أسرتى بالسياسة هو اهتمام العامة. تعادي الإنجليز، ولا تميل إلى الألمان، تتابع أخبار البترول فى الجزيرة العربية، وتتسقط أخبار الطليان فى ليبيا، وروميل فى العلمين، وحركات الاستقلال فى الشام وأنباء الأسرة الهاشمية فى كل من الأردن والعراق، شأنها فى هذا شأن سائر الأسر المصرية؛ وعلى الصعيد الداخلى كان أبى وأمى معنِيّيْن بقضية الاستقلال الحقيقى وجلاء قوات الاحتلال البريطانى عن قناة السويس ومصر كلها. فى سن الإدراك قال لى أبى:

"أمك كانت قرفانة من اللى بيحصل، وكانت تقول لى.. الملك ده إيه؟.. جبِلّة؟.. ما بيحسش؟".

سألته:

"ليه؟".

أجاب:

"السلاح البايظ، ومجزرة الإسماعيلية وحرق مصر".

وحدث أن تكعبلتُ وأنا بعد طفل غرير بين سيقان وأرجل متظاهرين اشتبكوا مع بعضهم البعض. كانوا يشكلون مظاهرتين متعارضتين تواجهتا فى شارع عدلى فى المنطقة المحصورة بين الشارعين الطوليين التلاتينى والحميدى. كان متظاهرون يهتفون: "سعد.. سعد.. يحيا سعد" وآخرون يهتفون "يحيا الوفد.. ولو فيها رفد"، وبين الفريقين ألقيت زجاجات وحجارة وكراسيٌّ، وفقدتُ فردة حذائى. بعد تعنيفٍ قالت لى أمى:

"مظاهرات ضد الانجليز آه.. مظاهرات ضد بعض لأ".

مع أننى كنت طفلاً غضاً فإن أمى أورثتنى مشاعرها تجاه عساكر الإنجليز، وهى فى كل الأحوال مشاعر غير طيبة، فإذا زارنا شخص ثقيل وأطال الزيارة فهو يشبه "اللزقة الإنجليزى"، وإذا قالتْ جارة كلاماً غير مستساغ فهى "عاملة زى شربة الملح الانجليزى"، وإذا كان ضبُّ أسنان أحدهم أو إحداهن مقوساً بحدة فهو "ضب انجليزى". اكتشفتُ أننى لست الوحيد من عيال الحارة الذى يكره عساكر الإنجليز، فاللعبة التى نضرب فيها الأكف وأحيانا الأقفية سميناها الإنجليزية، ومن لا نريد أن نلعب معه أو معها وصفناه ووصفناها بالإنجليزى أو الإنجليزية. وكانت تأتينا أفعال الإنجليز مع عمال الأورنُس، أو أفعالهم هم مع الإنجليز، فنزداد سخطاً على ذوى الوجوه الحمراء.

كانتْ الأعمال الفدائية قد اشتد وطيسها، وبتنـا نتسـمّع دَوِىّ طلقات الرصاص وأصوات الانفجارات؛ ولمّا علمنا باستشهاد الصـبى "نبيل منصور" امتصصنا كورق النشاف غضب أهالينا، وضد الإنجليز نظمنا فى الشارع مظاهرات طفولية اقتدينا فيها بمظـاهرات الكبـار، وبهتافاتهم رحنا نهتف:

"يا عزيز يا عزيز.. ضربة تاخد الانجليز".

"ضربناهم بالقزاز ضربونا بالرصاص".

وفى غمرة التظاهر رفعتُ رأسى ذات هتاف فرأيتُ أمى تطل علىّ من الشباك وتهتف مثلما نهتف.

أنشئت هيئة التحرير فى العام ١٩٥٣م بغرض الحشد من أجـل التحرير وتنظيم قوى الشعب وإعادة بناء المجتمع، وليس فقط بغـرض ملء الفراغ السياسى الناجم عن حل الأحزاب. فى عيد للثورة عرضتْ مدرستى (القناة الابتدائية المشتركة) مسرحية فى مكانين وفرهما هيئـة التحرير بالقرب من مقرها ببورسعيد الكائن بشارع النهضة أمام سينما إلدرادو فوق محل الصياد للتحف والأنتيكات. المكـان الأول الـذى وفرته كان فى عمارة المساجيرية المطلة على قناة السويس. المكان الثانى هو سينما ومسرح الإلدرادو. حضر عرض الإلدرادو "ناس كبار" كما وصفتهم لى أمى التى حضرت العرض كدأبها معى وجلستْ إلى جوار أبلة الناظرة، أو أجلستها أبلة الناظرة إلى جوارها (ربطتْ بين أسـرتها وأسرتنا علاقة مصاهرة فيما بعد).

المسرحية كانتْ بعنوان "محكمة الثورة" (شكلتْ محكمة الثورة فى سبتمبر ١٩٥٣م.)، ودوْرى فيها هو دوْر المتهم الخائن "محمود صبرى" المعروف بـ"كنج صبرى"، الذى اتهم بالتجسس لحساب الإنجليز أثناء تصاعد العمليات الفدائية ضد معسكرات الإنجليز والاشتراك فى تعذيب الفدائيين والتواطؤ مع القوات المحتلة. بعد ادّعاء ودفاع فى المسرحية، ينطق القاضى بالحكم:

"الإعدام شنقاً حتى الموت".

فأنهض بين حارسَي المسلحين ببندقيتين خشبيتين واهتفُ بآخر جملة تُنطق فى العرض: "نموتُ وتحيا مصر"؛ كأن ضمير المتهم قد استيقظ أمام قسوة الحكم، فعلم وأقر بأن حياة الوطن حق كما أن موت الأشخاص حق. وفعلتُها.. قمتُ ونطقتُ بالهتاف ممتزجاً بالدموع ومتحشرجاً بغصة الندم، وتلونتْ ملامحى بألوان متعددة، فضج الجمهور بالحماسة وصفقوا طويلاً.. طويلاً. لما هبطت إلى الصالة وارتميتُ فى حضن أمى، تقدم منى الناس الذين وصفتهم أمى بالكبار فصافحونى بحرارة وربتوا على ظهرى مهنئين، وما إن انصرفوا حتى قالت لى أمى المتعلمة:

"لازم لّما نروّح أبَخّرك من الحسد".

ما لم يعرفه هؤلاء المتحمسون لأدائى أننى ما بكيتُ إلا خوفاً من معايرة الأولاد لى بهذا الدور، وكانوا قد بدأوا المعايرة قبل إزاحة

الستار. وأخذوا يرددون "يا خاين"، "هانعدمك حتى الموت".. حتى أمي ظنتْ أنني ما بكيتُ إلا منفعلاً بالدور، مع أنها كانت قد استجابتْ لى وصحبتنى قبل العرض إلى أبلة الناظرة لتقنعها بتغيير دور المتهم وإعطائى دور وكيل النيابة أو القاضى حسبما طلبتُ منها، غير أن أبلة الناظرة أقنعتها بأهمية الدور وقدرتى على أدائه.

فى أغسطس ١٩٥٣م. زار عبد الناصر بورسعيد هو وعبد اللطيف البغدادى والشقيقان جمال سالم وصلاح سالم وكمال الدين حسين.

ما إن هبط من الطائرة هو وزملاؤه فى مطار الجميل حتى ماجت شوارع المدينة بالأهالى الذين خرجوا لاستقبال الثوار فى أول زيارة يقومون بها لبورسعيد. أمي كانت مشغولة بمولود جديد تحمله ببطنها، وأبى فى شغله، فاصطحبتنى جدتى لأمي وخرجنا لنندمج مع جموع المحتشدين. عند مقر هيئة التحرير وجدنا أنفسنا وسط أمواج متلاطمة من البشر. أطل عبد الناصر من المقر وحيَّانا. بعدها أخذتنى إلى ميدان إبراهيم (أصبح اسمه فيما بعد ميدان الشهداء واشتهر بميدان المسلة لوضع نصب تذكارى فى مركزه لشهداء حرب ١٩٥٦م. على هيئة مسلة فرعونية).

فى الميدان شاهدتُ طوابير فرق الفدائيين فى استعراض للقوة موجَّه إلى الإنجليز. صخب الجمهور بالهتاف للثورة وتقافز كثيرون فى الهواء

هاتفين ملوحين، وازداد الحضور فى الموضع الذى أقف فيـــه وجـــدتى كثافة لدرجة حالت بينى وبين رؤية ضباط الثورة وإن ظللـــتُ اسمـــع كلاماً حماسيًا عن وجوب الدفاع عن الوطن والكفاح والتضحية حتى ينال الشعب حريته ويجلو آخر جندى غاصب عن البلاد. حملتنى جدتى إلى صدرها كيما أرى ما لم أعد قادرًا على رؤيته، ولمّا لم ينفـــع هـــذا حملتنى فوق كتفيها كان هذا أول تعرف لى بجمال عبد الناصر وصحبه.

فى البيت سألتنى أمي:

"إيه رأيك فى عبد الناصر؟".

أجبتها:

"حلو".

سألتْ:

"بتحبه؟"

أجبتُ:

"آه".

قالت:

"إحنا كمان بنحبه علشان بيكره العساكر الانجليز".

ما بين عامى ١٩٥٣م و١٩٥٤م اندلعتْ المظاهرات المطالبة بجلاء قوات الاحتلال الإنجليزى تأييداً لمفاوضات عبد الناصر مع الإنجليـــز

حول ذات الخصوص، وكان عبد الناصر قد قطع المفاوضات فى مـايو ١٩٥٣م، بعد عشرة أيام من بدئها (بدأت ٢٧ أبريل ١٩٥٣م) لّما شعر بأن المفاوض الإنجليزى يسعى إلى التسويف والمماطلة، من هنا تصاعدتْ أعمال المقاومة المسلحة ضد القاعدة البريطانية ونشطتْ أعمال خطف وقتل ضباطهم وجنودهم، ونسف المستودعات والقطارات المحملة بمعداتهم، ونصب الكمائن لسياراتهم والهجوم على معسكراتهم وأنديتهم ومكاتبهم، وبُثّ الرعب فيهم بتوزيع المنشورات المضادة لهم حيثما يكونوا من بورسعيد حتى السويس، وصاحبتْ هذه الأعمال العنيفة المظاهرات المطالبة بالجلاء، وبعد ٥٢ عملية فدائية ــ حسب الإحصاء البريطانى ــ اضْطُرّ الإنجليز إلى طلب استئناف المفاوضة فى يوليو ١٩٥٤م. وقد مشيتُ فى هذه المظاهرات، مظاهرات الكبار الحقيقية، مع ابن عمتى الدكتور مصطفى عليوة وعمرى يناهز التاسعة، وردّدتُ معه ومع المتظاهرين شعار "الاستقلال التام أو الموت الزؤام".

فى مظاهرة كبيرة، وبعد طواف بشوارع كثيرة، دخلنا شارع "كسرى"، ولّما اقتربنا من شارع محمد على الفاصل بين حيى العرب والافرنج كرَرَنا وفرَرَنا مع الكارّين والفارّين لأن عربة جيش إنجليزى هجمت علينا من شارع محمد على؛ وكان كشفاً عظيماً لى علمى أن مدخل البيت الذى احتمينا فيه من هجمة الانجليز كان بالشارع الذى

نشأ فيه الشهيد نبيل منصور (كان اسم هذا الشارع هو شارع الوفائية، ثم أُطلق عليه اسم الشهيد الذى أحرق خيام كامب الجولف واستشهد فى ١٦ أكتوبر ١٩٥١م. وهو بعد فى الصف الثالث الابتدائى وسنه دون الحادية عشرة). لمّا حكيت لأمى ما كان من أمر هذه المظاهرة وأمر دخولى شارع نبيل منصور، وأنا المبادر هذه المرة بالحكى دونما انتظار لتقريرها "إنت كنت فى المظاهرة يا قاسم"، لم تستعر الوجه الصارم، ولم تعنفنى التعنيف الذى اعتدته كلما اكتشفتْ ذهابى إلى البحر أو "السيما" أو "جنينة سعد"، فقط قالت:

"مصطفى ابن عمتك ولد جدع، ما تسبش إيديه وأوعى تتكعبل فى الرجلين أو تعمل حاجة وحشة تضر بيها الناس"

وكأن هذا كان إعلاناً منها بعدم الممانعة والإذن لى بالمشاركة فى سائر المظاهرات.

ومشيتُ، بغير صحبة من أحد، فى مظاهرة انطلقتْ من شارع البلدية بحى العرب، وهتفتُ مع الهاتفين: "عايزين سلاح يا نجيب.. بنقول سلاح يا نجيب"، وللآن لا أعلم ما إذا كانت هذه المظاهرات مؤيدة للرئيس، الذى خُلع وأعيد فى هذا العام ثم خلع مرة أخرى، اللواء "محمد نجيب"، أم أنها مظاهرة مناهضة له، بمعنى: هل كنا نهتف مطالبين "محمد نجيب" بإعطائنا السلاح لندافع عنه وندعم موقفه حيال الضباط الذين يرأس مجلسهم، أم أننا كنا نُبَكِّته بهذا الهتاف لأنه لم يوفر

لنا سلاحًا نحارب به الإنجليز ونطهر منهم منطقة قناة السويس ومصر كلها؟.. سألتُ أمى فلم تجبنى، لكنها قالتْ ما اعتبرتُه وقتها حكمة بليغة:

"المظاهرات يا قاسم مش لعبة استغماية ولا هى ماتش كورة".

كان العام ١٩٥٤م عام أحداثٍ جسام، أدرك ذهنى الغض بعضها فى وقتها، لتداعياتها التى حلت على بورسعيد، وعن بعضها لهوت، إما لأن تداعياتها فى بورسعيد لم تكن من القوة بحيث تصل إلى حارتنا، وإما لحداثة سنى آنذاك. ما أدركته ذكرته كاستئناف مفاضات الجلاء والخلاف مع محمد نجيب، ومما لهوت عنه وبلغتنى أنباءه فيما بعد ما كان من أمر سلاح الفرسان تجاه جمال عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة، ومنها تولى عبد الناصر لرئاسة مجلس الوزراء، وكذا إصدار دستور ١٩٥٤م.

حادثة مهمة أتذكرها وقعت فى أخريات هذا العام بعيداً عن بورسعيد بمئات الكليومترات، لكنها زلزلت المدينة زلزلة. إنها حادثة ميدان المنشية بالإسكندرية التى وقعت فى الثلث الأخير من هذا العام (٢٦ أكتوبر) واستهدفت اغتيال عبد الناصر واتهم بارتكابها الإخوان المسلمون. حادثة أظهرت لى بابًا جديدًا للمعرفة.

عند العشاء، وكل الأسرة مجتمعة إلى الطبلية أطلقت السؤال: "مين همه الإخوان المسلمين؟"، وكأننى أطلقت رصاصة فى سقف البيت،

توقفتْ أيدى الكبار باللقيمات التى تمسكها فلم تصل إلى أفواههم، أبى وأمى وجدتى وأخى الذى يكبرنى بخمسة أعوام. لمّا عرفتْ اللقيمات طرقها إلى أماكن مضغها مالتْ إلىّ أمى واحتضنتنى الاحتضانة التى اعتادتْ أن تفرخ بها روعى، وبينما أنا فى هذا الوضع بدأت أرتب الأسئلة المتلاطمة فى رأسي، وأنظم أيها سألقى به إلى أبى وأيها سأخص بها أمى.. أمى التى بادرت وقالت:

"ربنا يهدى".

~*~

فى الحادية عشرة من عمرى كنتُ نقطة فى بحر خضم مِن الجماهير المتأججة حماسة الملتصقة بركب جمال عبد الناصر عند زيارته للمدينة يوم ١٨ يونيه ١٩٥٦م ليحتفل مع أهلها بجلاء قوات الاحتلال الإنجليزى، تخطيتُ مع المتخطين العساكر الذين كان يمسكون بحبال يشدونها بين أيديهم لتحجز الجمهور وتحول بينه وبين النزول إلى نهر الشارع الذى يسير فيه الركب المسبوق والمحفوف بالموتوسيكلات. وسط الجماهير الغفيرة تحولتُ بالفعل إلى نقطة، لكن هذه النقطة ـــ التى كنتُها ـــ تمكنتْ مِن الالتصاق بسيارة بطل الجلاء، وأمكنها محاذاة السيارة والدخول مع الركب إلى الدائرة الجمركية مِن باب ٢٠ ؛ ومِن داخل الدائرة الجمركية شاهدتُ عبد الناصر وهو يرفع علم مصر على مبنى النيفى هاوس (مبنى البحرية البريطانية ـــ كان قصراً لأمير

هولندى يدعى أوسيمبول اشترته البحرية البريطانية فى بداية الحـــرب العالمية الأولى ليكون مقرا لقيادة قواتها فى الشرق الأوسط. لقد خــلا النيفى هاوس مِن المحتلين وأُنزل من صاريه العلم البريطانى. من مكـــانى غير القصيّ وغير القريب خُيِّل لى أننى رأيتُ دموعاً تسح من عينىّ جمال عبد الناصر إثر تقبيله للعلم المصرى المطوى بعناية. أكد ما تخيلته قول الرجل الذى يجاورنى لرجل آخر " شوف.. عبــد الناصــر بيعــيط.. يااااه"!. لمّا عدت إلى بيتنا لم أجد أحداً به، واكتشفتُ أن أبى اصطحب أمى وأمها وأختى يعنى "العيلة واللمة" وخرج بهم لمشــاركة أهــالى المدينة احتفالهم، وأن الوحيد الشارد عنهم هو أنا.. لكن يا لـــه مــن شرود.

كم كانت سعادتى كبيرةً لمّا شاهدتُ ـــ فيما بعد بمدة ـــ نفسى فى جريدة مصر الناطقة وسط الحشود التى أحاطت بموكب جمــال عبــد الناصر قبل دخوله الدائرة الجمركية ورفعه لعلم مصر فوق مبنى النيفي هاوس. مِن فرط هذه السعادة دفعتُ بأصدقاء المرحلة دفعًا إلى مشاهدة الجريدة، وكانت تُعرض فى سينما الكوزموغراف بشارع التلاتــينى، وكلما استجاب صاحب لى ودخل هذه السينما دخلت معه لأريــه ـــ بزهو العالم كله ـــ نفسى فى اللحظة الخاطفة الوامضة التى أظهر فيها. أما أسرتى فلم يبال بفرحتى أحد غير أمى. أبى كان عائداً من عملــه

متعباً فاستمع إلىّ ونام، وجدتى لأمى كانت "تزقق" السبط، وإخوتى ركبتهم العفاريت فصاروا يجرون وراء بعضهم البعض. أمى فقط هى التى أظهرت فرحها وقالت:

"يا رب أشوفك أحسن من جمال عبد الناصر".

فرحت أمى لفرح أبى بقرار تأميم قناة السويس. قال أبى:

"أخيراً نيلنا رجع لنا".

ظننتهُ قد أخطأ فصوبتُ له:

"دا الكنال يا بابا مش النيل".

رد:

"لأ.. دا النيل المالح".

وقالت أمى:

"دا نيلنا اللى كان مسروق".

وزغردتْ جدتى.

~*~

فى العام ١٩٥٨م أطلقت جدتى لأمى زغرودة أخرى ففى هذا العام الذى هو عام الوحدة بين مصر وسوريا أنجبت لنا أمنا أختاً ثانية.. جميلة ومشرقة.. لذا اجتمع رأى ربابنة الأسرة: أبى وأمى وجدتى لأمى على تسميتها فور ولادها بـ"آمال".. باعتبار أنهم كانوا، كسائر المصريين، يعلقون على هذه الوحدة آمالاً كثيرة.

صحيح أنه سرعان ما تحطمت هذه الآمال بـانقلاب عسـكرى سورى وقع فى ٢٨ من سبتمبر ١٩٦١م. لكن "آمال"أختنا بقيـت، وبقيت معها آمال فى تحقق وحدة عربية بلا أخطاء.

~*~

مات عبد الناصر وجاء السادات.

كنتُ مستبقًى بالقوات المسلحة فى ذاك الوقت، بينمـا كانـت أسرتى مهجَّرة إلى المنصورة منذ العام ١٩٦٩م.

أبى لم يكن راضيًا تمامًا عن السادات، وأمى لم تبد رأيًا فيه..

ظلتْ أمى على موقفها هذا حتى وقعت واقعة فى محـيط الأسـرة كنتُ أنا سببًا فيها، إذ بعد حوالى سبع سنوات قضـيتها فى الخدمـة الإلزامية والاستبقاء؛ سُرِّحتُ من القوات المسلحة فى يوليو ١٩٧٢م. كنتُ قبل تسريحى قد أقمت، أثناء زياراتى للأسرة، علاقات مع عُمَد الحركة الأدبية بمدينة المنصورة، وتعرفتُ إلى الأديب فـؤاد حجـازى المعروف باتجاهه اليسارى، ومع أننى اخترت الاستبقاء ببورسعيد، فقد آثرت طبع أول كتبى "أنشودتان للحرب" فى سلسلة "دب الجماهير" الأدبية التى يشرف عليها فؤاد حجازى ويصـدرها مـن المنصـورة، ففتحتُ على نفسى وعلى أسرتى أبواب الجحيم، فكلما حصلت على إجازة ميدانية من عملى في بورسعيد، وَزُرْتُ أهلى بالمنصورة، طوردتُ

فى شوارعها وحوصرت فى مقاهيها من ضباط ومخبرى مباحـــث أمـــن الدولة، إلى أن حدث واتجهوا إلى بيت الأسرة الكائن بعزبة عقل، ولّما لم يعثروا عليّ لوجودى وقتها فى عملى ببورسعيد اقتادوا أبى إلى مـــبنى مباحث أمن الدولة واحتجزوه ولم يقوموا بإخلاء ســبيله إلا بعـــد أن استكتبوه إقرارًا بخط يده يتعهد فيه بإحضارى إلى مباحث أمن الدولة فور قدومى إلى المنصورة.

هنا أبدت أمى رأيها المعارض للسادات.

~*~

الحادثة السياسية الكبرى التى هزّت كيان أسرتى هَزًا هى حادثـــة القبض عليّ فى بورسعيد فى ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٧٤م. فى القضية رقم ٦٠ / ١٩٧٤م. حصر المناخ بورسعيد، المقيَّدة تحت رقم ٧٣٨ / ١٩٧٤م. حصر نيابة أمن الدولة العليا. مكانها هـــو قصـــر ثقافـــة بورسعيد، ووقت وقوعها أثناء عرض مسرحية "رواية النديم عن هوجة الزعيم" ــ من تأليف محمد أبو العلا السلامونى وإخراج عباس أحمد ــ ضمن الاحتفالات الفنية والأدبية المواكبة لعيد النصر الثامن عشر الذى تحول من عيد قومى يحضره ببورسعيد رئيس الجمهورية ويلقى فيه أهم خطبه السياسية فى عهد جمال عبد الناصر، إلى عيد محلى فى عهد محمد أنور السادات يوفد إليه أحد وزراء الحكومة، وفى هذا العيد وفـــد إلى

المدينة ممدوح سالم وزير الداخلية وقتها(!)، أما الأسباب فيمكن تلخيصها فى أربعة أسباب هى:

١. الدعوة إلى إنشاء اتحاد وطنى ديموقراطى مستقل للكتاب والأدباء.

٢. الاحتجاج على أشكال الثقافة المهترئة من نوع "سها هانم رقصت على السلالم"، و"شنبو فى المصيدة".

٣. الدعوة إلى إنشاء فروع لجمعية كتاب الغد ببورسعيد والمحافظات.

٤. المطالبة بالإفراج عن المعتقلين السياسيين بسجن الحضرة بالإسكندرية.. خليل كلفت ورفاقه.

كان حدثًا جللاً لم يهزَّ بورسعيد فقط، وإنما هز مصر كلها، ونقلته وكالات الأنباء العالمية، قبض فيه على عدد كبير من المثقفين أُبْقِيَ منهم فى السجن ستةٌ وعشرون مثقفًا منهم ثلاث فتيات.

من الذكور:

١ ـ محمد يوسف (أديب ـ المنصورة).

٢ ـ البدرى فرغلى (أديب ـ عامل شحن وتفريع ـ نائب فى مجلس الشعب لثلاث دورات متصلة ورابعة لم تكتمل لقيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م. ـ بورسعيد).

٣ ـ قاسم مسعد عليوة (أديب ـ بورسعيد).

٤ ـ محمد عبده الكتاتنى (ممثل مسرحى ـ بورسعيد).

٥ ــ رضا زكي الوكيل (أديب ــ سيناريست فيما بعد ــ بورسعيد).

٦ ــ محمد أبو العلا السلاموني (مؤلف مسرحي ــ دمياط).

٧ ــ منير مراد (مخرج مسرحي ــ بورسعيد).

٨ ــ سامي أحمد البلعوطي (صحفي ــ المحلة الكبرى).

٩ ــ صلاح المنسي (أديب ــ بورسعيد).

١٠ــ مجيد رزق سكرانة (أديب ــ بورسعيد).

١١ــ مرسي سلطان (أديب ــ بورسعيد).

١٢- زكريا إبراهيم (أديب ــ مؤسس فرقة الطنبورة للغناء الشعبي فيما بعد ــ بورسعيد).

١٣ــ سمير حسني (طالب ــ سفير بجامعة الدول العربية فيما بعد ــ بورسعيد).

١٤ــ صالح حسني (طالب ــ شقيق سمير حسني ــ بورسعيد).

١٥ــ السيد علي السيد (طالب ــ من هواة فن السمسمية ــ بورسعيد).

١٦ــ وفاء عبد الرحمن (أديب ــ شقيق المخرج المسرحي الشهير عباس أحمد ــ بورسعيد).

١٧ــ أحمد زحام (أديب ــ طالب ــ نائب رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة فيما بعد ــ بورسعيد)

١٨ــ حميد أبو المعاطي مجاهد مجاهد (طالب ــ صحفي فيما بعد ــ بورسعيد).

١٩ــ سمير كراوية (أديب ــ رجل أعمال فيما بعد ــ بورسعيد).

٢٠ــ أحمد أبو زيد (طالب ــ بورسعيد).

٢١ــ محمد عبد الفتاح أبو دراع (أديب ــ قيادى فى الحزب الوطنى المنحل فيما بعد ــ بورسعيد).

٢٢ــ راغب كراوية (شقيق سمير كراوية ــ طالب ــ بورسعيد).

٢٣ــ يحيى...... (طالب ــ بورسعيد).

من الإناث:

١ ــ ماجدة رزق سكرانة (شقيقة مجيد سكرانة ــ طالبة جامعية ــ بورسعيد).

٢ ــ رضا رزق سكرانة (شقيقة مجيد سكرانةــ طالبة ثانوى ــ بورسعيد).

٣ ــ ....

أُودِعْنَا فى سجن الزقازيق العمومى، وسمعنا أن هناك آخرين قبض عليهم وأُودِعْنَا القلعة، لكن من هم؟.. لم نعرف، لكن ممن قبض عليهم من المثقفين ولم يرحلوا معنا إلى هذا السجن ولم يُفرج عنهم إلا بعدما طِيفَ بِهم على مديريات أمن المحافظات (كعب داير):

١ ــ فؤاد حجازى (أديب ــ المنصورة).

٢ ــ محسن الخياط (أديب ــ صحفى بارز بجريدة الجمهورية ــ القاهرة).

٣ ــ محمد محمد الشهاوى (أديب ــ كفر الشيخ).

٤ ــ أحمد سخسوخ (فنان مسرحى ــ عميد معهد الفنون المسرحية فيما بعد ــ بورسعيد)

٥ ــ عباس أحمد (مخرج مسرحى ــ بورسعيد)

٦ ــ كامل الدابى (أديب ــ دمياط).

٧ ــ محمد سعيد (أديب ــ باحث فى الفولكلور فيما بعد ــ المنصورة).

وقد حكى لى الشاعر الكبير محمد محمد الشهاوى كيف أمضى قرابة الشهر متنقلاً بين أقسام الشرطة بعواصم المحافظات.

كان عدد ممن لا يسكنون ببورسعيد قد لاذ ببيتى طلباً للأمان خشية التوقيف فى منفذ المدينة كل من:

١. فؤاد حجازى (المنصورة).

٢. محمد يوسف (المنصورة).

٣. محمد سعيد (المنصورة).

٤. محمد أبو العلا السلامونى (دمياط).

وقتها كنتُ عريسًا أهل من العسل لا أزال، وما إن نجحتُ فى الخروج من قلب قصر الثقافة، وطهرتُ بالكاد بيتى مما قد يُظن أنه قرائن إدانة من قبل سلطة باطشة، حتى جاءونى، فاستضفتهم، بعدما صعدتْ زوجتى لتبيت فى حضن أمى ورعاية أبى..ولأن السرير لا

يكفينا جميعًا فقد فرشتُ لهم مرتبة استلقى عليها بعضهم، وإذ بالكهرباء تقطع من المنطقة السكنية كلها، وإذ باثنى عشر مخبرًا وثلاثة ضباط، يفسخون باب العمارة ويصعدون السلم ويدهمونا فى جلبة. بدون ذكر للتفاصيل رأيتُ وجوه أهلى الذين هبطوا من الطابقين العلويين لاستطلاع أغرب وأصعب موقف يشاهدونه فى حياقم: إخوتى، أختىَّ، زوجتى، أبى، جدتى لأمى، وأمى.. وجوه إخوتى متفاجئة مندهشة تغالب آثار النوم. وجه زوجتى قمر فاض بضوئه علينا ونظرقا إلىّ تناشدنى الثبات. وجه أبى متفاعل مع ما يحدث، يطلب منى ارتداء ثياب الخروج، ومنهم يطلب اصطحابه لنا. شفتا جدتى تبتهلان إلى الله وعيناها مثبتتان تدوران بين وجوه المخبرين والضباط ووجوهنا.. أما وجه أمى فقد كان ملحمة وحده، به رأيتُ معانى المعاضدة والخوف والغضب والحنو الشفيق.

فى سجنى تذكرتُ أننا فى ذروة الشتاء، وأنَّ هذه الذروة هى موعد قيام أمى بعمل الحلاوة السوداء (المفتقة) ــ الحلوى الشتائية اللذيذة ــ فطلبتُ منها فى واحدة من رسائلى الرومانتيكية ألا يوقفها سجنى عن عمل الحلاوة السوداء، فإذ بى أتسلم من الزيارة علبة حلاوة سوداء صنعتها أمى وأرسلت لى ولزملائى فى الزنزانة نصيبنا منها.

هذه هى أمى.

قبل حلول عيد الأم سربت من سجنى رسالة إليهـا وإلى جـدتى (كنت قد نجحت فى تكوين شبكة مراسلات جيدة لتسريب الرسـائل واستقبالها عبر المساجين الجنائيين):

"سجن الزقازيق فى ١٥ مارس ١٩٧٥م.

أمي الرءوم..

جدتى الحبيبة..

لكما عمرى..

سيأتي عيدكما، وعيد كل الأمهات، وأنا بعيد عنكما مـا بـين جدران وقضبان.. لكن ـ والحق ما أقول ـ بكما وبزوجي ووالدى وكل الأهل والأحبة والكادحين متماسك.. صلب.. وقوى..

قلبي عامر بحبكما وحب زوجي ووالدى وكل الأهـل والأحبـة والكادحين، وبحب مصر.

فى عيدكما أرجو ألا تركنا لليأس أو الحزن.. لا.. استقبلاه بفرح واستبشار، فإن الغد المشرق لا محالة آت.

لا أعرف ماذا يمكن للقلم أن يكتب.. إنه العيد الأول الذى أجد نفسى فيه غير قادر على تقديم أو فعل شيء يسـعدكما.. أعلـم أن الأمور ستتخذ عندكما شكلاً آخر وستتمنيان أنتمـا وكـل النـاس المرتبطين بي سعادتى وراحتى.. لذا أعود فأكرر أننى بكمـا وبزوجـي

ووالدى وأهلى وأحبتى والكادحين.. كـــل الكـــادحين.. متماســـك، صلب، وقوى؛ فهلاّ كنتم جميعًا بى متماسكين، صـــلبين، وأقويـــاء؟.. أرجو أن يكون الأمر هكذا.

اعتنيا بصحتيكما..

اهتما بنفسيكما..

اضحكا.

من أجلى.. ومن أجل الأولاد..

ومن أجل أن تصير مصر بأسرها قوية.

وكل عام وأنتما وكل أم بخير.

ابنكما المخلص دومًا"

حينما أفرج عنى (أبريل ١٩٧٥م.) فجعتُ فى أمرين:

أولهما سقوط حمل زوجتى، وكنتُ وهى قد اتفقنا إبان شهر العسل على تسمية أول مولود لنا بـــ"شادى". سقط حملها ولم تخبرنى لا عـــبر المراسلات بالطريق السرى الذى كنت أنتهجه، ولا عن طريق الزيارة. كانت تخشى عليّ إن عرفتُ وأنا فى محبسى.. بالفعـــل كنـــت كـــثير التفكير فى مولودنا الأول وكان اسم شادى يجاوز التفكير إلى التعبير، وفى رسائلى المهربة تغلغل.

فى رسالة مؤرخة ١٢ من فبراير ١٩٧٥م. كتبت " أتذكر حديثنا عن شادى.. شادى العزيز القادم.. هيه.. أترى حالى ســـوف تصـــبح

كحال شادى (شادى أغنية فيروز الشـــهيرة).. أذهـــب عـــنكم ولا أعود؟.. أرجو ألا يكون ذلك.. أرجو... وعلى كل حال، ها أنا مـــن شدة ارتباطى بك أسعى من داخل الأسوار حتى أعثر علـــى الـــنص الكامل للأغنية التى أحببتها لأنك تحبينها، وأهديها لك.. ويا حبذا لو جاءتنى منك أخبار عن شادى المنتظر". وختمت الرسالة بالنص الكامل لأغنية فيروز "أنا وشادى".

وفى رسالة أخرى مؤرخة ١٥ من مارس ١٩٧٥م. سألتها: "مـــاذا عن شادى؟.. ما هى أخباره؟"، ثم طفقتُ أعبر عن مشاعرى تجاهه "يا لبهجة مقدمه المتوقعة.. آه يا شادى.. متى تأتى؟.. أنت أيها الشـــادى بأهازيج النضال والحب تعال، وكن رفيقـــــًا بأمـــك.. قـــرنفلتى.. مصرى.. عالمى.. كونى".

لكنه كان قد أجهض إثر مفاجأة القبض علىّ، وكتمت عنى زوجتى الخبر طيلة فترة سجنى.

رومانتيكية السجن بددها الواقع الجهم، لمحت أمى علامات الأسى على وجهى، فأشارت إلى السماء بإصبع تتابعه عيناها وقالت:

"إوعاك تحزن وليك رب اسمه الكريم".

الفاجعة الثانية تمثلت فى حرق كتبى وأوراقى الشخصية التى حملت نصوصًا إبداعية وغير إبداعية.. عند إعداد مسكنى الشخصى ليكـــون مسكنـــًا للزوجية وعقب العودة المباشرة لأســـرتى مـــن مهجرهـــا

بالمنصورة، لم أجد مكانـــًا لكتبي سوى الدكان الكبير أسفل العمارة، فشونتها فيه، وكنت أشعر بالزهو لأنها شغلتْ ثلثي مساحة الدكان من أرضه حتى سقفه.

عقب القبض على وسجنى تعرضت الأسرة لضغوط مباحثية رهيبة، وظل المخبرون يتواترون على البيت يتابعون إخوتي وأبي ويعســـكرون أمام البيت ويتبادلون النوبتجية، وكان لابد إزاء الوضع الذى يعيشونه من تطهير البيت من مسببات الخطر، وأهم هذه المسببات بل أوحدها الكتب الموجودة بالدكان. لذا أخذوا ينقلون الكتب فى حقائب مـــن الدكان إلى الأدوار الثلاثة العليا، يتجهون بها إلى الحمام، يمزقونهـــا ثم يسكبون عليها الجاز ويحرقونها ويدسون الرماد فى المرحاض ويضغطون على صندوق الطرد.

عشرة أيام بلياليها ظلوا يمارسون عملية الحرق على هذه الـــوتيرة حتى سدت أنابيب الصرف. أشد ما آلمنى فقدانى لمعظم أصول أعمالى وما أكثر تنوعها وقتذاك: مسرحيات، روايـــات، قصـــص، قصـــائد البدايات، تمثيليات إذاعية، مقالات، رسائل ومذكرات. قليل القليل ما تمكنت زوجتى من إنقاذه.

إزاء حالة التفجع التى انتابتى قال لى أبى:

"خفنا.. إذا ما قالوش عليك شيوعى.. يقولوا إخوانى".

وكان يشير إلى كتب التراث الإسلامى الفخيمة التى كنت أقتنيها مجلدة واضعًا على كعبها اسمى مكتوبًا بماء الذهب.

أما أمى فقد قالت:

"اللى يجى فى الريش بقشيش"

~*~

تعرضت لمضايقات كثيرة. كانت مباحث أمن الدولة تلتقط من يصافحنى مجرد مصافحة، وكان مديرى فى العمل يخشى تسليمى العمل، وإليه كثر تردد مخبرى مباحث أمن الدولة. يأتونه على فترات لتسقُّط أنبائى، أكثر من هذا عينوا فى المكتب المواجه لمكتبى موظفـًا عميلاً لهم لمراقبتى مراقبة دائمة.

ومن ناحية أخرى زادت الضغوط على أهلى.. كان المخبرون يأتون إلى أبى فى مقهاه وينبئونه بأخبارى حينًا، وأخرى يحذرونه مما سوف يحدث لى لو استمررت فيما أنا فيه معارضًا لنظام الحكم.. هناك أيضًا وسطاء كانوا يقومون بهذه المهمة.. يأخذون المعلومات أو الرسائل الشفاهية ويوصلونها لأبى.. وصل الأمر إلى حد إرسال الرسائل المكتوبة. كانوا يدسونها تحت عقب باب العمارة. أرانى أبى إحداها. كان مكتوبًا فيها قل له يا أسطى مسعد "إيش جابلك يا صعلوك وسط الملوك". شككتُ أن أبى هو كاتب الرسالة، لكن لا هو خطه، ولا هو

أسلوبه، فضلاً عن أنه أقسم لى أنه لا يعرف مرسلها. بحثت بعد ذلك فى خطوط إخوتى وأختىّ فلم أجد أى شـبه واسـتجوبتهم فـأنكروا جميعهم.

وجاء السادات ليعيد افتتاح قناة السويس أمام الملاحة الدولية بعد تطهيرها من قـذائف حـروب ١٩٦٧م. والاسـتراف و١٩٧٣م. فأحطتُ بأكبر كردون من المخبرين، كان هذا فى الخامس من يونيه فى العام ١٩٧٥م. وكان المحافظ هو أحمد منير عبد الرحيم. كان الوضع الأمنى فى المدينة شديد التكهرب، لكن جهات الأمن اكتفت بـالقبض على المسجلين "خطِر"، وحاصرتْ السياسيين بالمراقبة شديدة الإحكام.

وحدث فى مارس ١٩٧٦م. أن تأسستْ المنابر السياسية الثلاث: اليسار ــ خالد محى الدين، اليمين ــ مصطفى كامل مراد، منبر الوسط ــ ممدوح سالم؛ فاشتركت مع عدد من زملاء السجن وآخرين من قادة الفكر اليسارى فى تأسيس منبر اليسار فى بورسعيد (قـدمنا لقيادتـه المناضل المرحوم محمود عبد الوهـاب)، ثم صـدر قـرار فى نـوفمبر ١٩٧٦م. بتحويل هذه المنابر إلى أحزاب سياسية فـزادتْ الضـغوط النفسية على الأسرة لدرجة كنتُ أرى معها خوفهم علىّ باديًا فى كل نظرة أو تَأْمَةٍ يوجهونها إلىّ، إلى أن حدث وزارنى من المنصورة الشاعر عبد الرحمن السبع (تدروش فيما بعد) والفنان المسرحى وقتها عاطف عبد الرحمن (روائى فيما بعد)، وإذ بأبى يتنصت علينا ليعـرف فيمـا

نتحدث. ما إن انصرف الضيفان حتى ثرتُ أيما ثـورة، فمـا كنـتُ لأتصور من أبي الذى ربانى على استقلال الشخصية أن يفعـل هـذا، بالرغم من معرفتى لمنطلقاته وتقديرى لمشاعره. أمي كانت البلسـم.. أمي هى التى هدأتْ خواطرى.. وهى التى قـادتنى لأقبِّـل رأس أبي، وكنتُ سأفعل هذا، لكنها إلى كل خير كانت سابقة.

~*~

فى يوميّ ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧م. انتفض الشعب المصرى كله احتجاجًا على السادات، الذى كان بأسوان وقتها، وعلى حكومته التى كان يرأسها الدكتور عبد العزيز حجازى؛ فبعـد أحاديـث طالـت وتكررت عن رخاء موعود بعد انتصار فى حرب مضنية فوجئ الشعب بنائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية الدكتور عبد المـنعم القيسونى يعلن فى بيان له أمام مجلس الشعب يوم ١٧ يناير ١٩٧٧م. عن مجموعة من القرارات تضمنتْ رفع الدعم عن مجموعة من السلع الأساسية، ومن ثم ارتفعت أسعار الخبـز والسـكر والشـاى والأرز والزيت والبنزين وسلع هامة أخرى تفوق العشرين سلعة. كان مـن الممكن لهذه الانتفاضة أن تطيح بالسادات لولا أن أنها كانت انتفاضة تنفيث غضب فاجأ بها الشعب السلطة السياسية واندمجتْ فيها قـوى اليسار وفى المقدمة منها حزب التجمع، ولولا إلغاء السـادات لهـذه

القرارات قبل تذمر الجيش ضده، وكان التذمر قد بلغ منتهاه فى سلاح الطيران فى اليوم الثانى للانتفاضة.

ما يهم هنا هو ما يتصل بموضوع هذا الكتاب.

كنا فى مقر حزب التجمع ببورسعيد، وهو ذات المقر الذى كان فيه منبرنا، منبر اليسار. وكنا قد تأهبنا للنزول إلى الشارع الغاضب دون تجمهر كبير، وعقدنا العزم على سلمية التظاهر، وأبدًا كان فكرنا سلميًا، وفكرنا فى البدء بشارع الحميدى (أحمد ماهر) فهو الشارع الذى يحصل منه أغلب المواطنين على احتياجاتهم من السلع الغذائية، فضلاً عن اتصاله بشارعى الروضة حيث سوق السمك، والغورى حيث سوق الفاكهة والخضروات. تذكرتُ منشورات وبيانات الحزب ووثائقه الموجودة فى بيتى، فهرولت إليه لأعيدها إلى مقر الحزب.

فى البيت تلقفنى أبى، وبثبات طلب منى تغيير ملابسى الداخلية بأخرى نظيفة وارتداء بيجامة أسفل الملابس الخارجية، وأهدانى طاقية محشوة بالأسفنج، ما زلت أذكر لونها الأخضر الداكن والخطوط السوداء العريضة التى تتخلله رأسيًا. كان موقنًا من أننى سأعتقل، ولما كنا فى يناير حيث البرد والزمهرير طلب منى ما طلب، فأذعنتُ.

وإذ أخرج من البيت محملاً بالأوراق الحزبية رأيتُ أمى وجدتى عند باب الشارع.. احتضنتنى أمى وقالت لى بعينيها كلمات لا يمكن ترجمتها بلغة الكلام، بينما دعت لى جدتى:

"ربنا يحميك ويخزى عنيهم عنك".

فى طريق عودتى إلى الحزب التقيتُ بزميلى محمد على (أصبح فيما بعد عضوًا فى مجلس الشعب بعد انفصاله عن التجمع والتحاقه بالحزب الوطنى). كان هو أيضًا فى طريقه إلى مقر الحزب. عند اقترابنا اكتشفنا أن المقر محاصر بقوات الأمن، فصرنا نتمشى بين مساكن هيئة قناة السويس، وانهمكتُ فى تمزيق الأوراق التى معى ونثرها هنا وهناك، بالصدفة وجدتُ نارًا صغيرة مشتعلة على رصيف فأججتها بما تبقى معى من أوراق.

كان اللواء محمد سامى خضير، مفتش مباحث أمن الدولة وقتها، قد قام بضربة استباقية واقتحم مبنى "زرب" ودخل ورجاله الحجرات المخصصة لحزب التجمع (كان هذا المبنى هو مقر أحزاب التجمع "منبر اليسار"، الأحرار الاشتراكيين ـــ "منبر اليمين"، ومصر العربى الاشتراكى "منبر الوسط"). اقتحم خضير مقر التجمع وفيه زملائى فى الحزب؛ وكان بدرج المكتب الذى استند إليه بعضٌ من أوراقنا المهمة خصوصًا تلك المتعلقة بأماكن تحركنا، وتلك المكتوب عليها بخط يدى شعارتنا من نوعية "همه بياكلوا حمام وفراخ.. واحنا الفول دوخنا وداخ"، "هو يلبس آخر موضه.. واحنا نسكن سبعة ف أوضة"، "احنا الطلبة مع العمال.. ضد الظلم والاستغلال.. وضد تحالف رأس المال"، "يا حكومة هز الوسط.. كيلو اللحمة بقى بالقسط"، يا أمريكا لمى

فلوسك.. بكرة الشعب العربي يدوسك"، وكنتُ قد أضفتُ إلى هذه الهتافات المتصفة بالعمومية هتافات من ابتكارى، أذكر منها "قول يـــا سادات قول ورص.. رغيف العيش بقرش ونص"، وكان رغيف الخبز قد ارتفع سعره إلى خمس عشرة مليمًا.

أجهض خضير التظاهر فى بورسعيد.

ولّما عدتُ فى وقت متأخر من الليل إلى بيتنا، ابتدرنى قباطنة الأسرة الساهرون فى نفس واحد:

"حمد الله على السلامة"

زادت جدتى لأمى:

"دُعا نينتك مفيش بينه وبين ربنا حجاب".

وزاد أبى:

"ما تقلعش هدومك.. ما حدش عارف.. يمكن يجولك على غفلة".

أما أمى فقد مسحتْ على شعرى، وبهدوء أجلست زوجـــتى إلى جوارى، بل أصرت على إجلاسها إلى جوارى، وقامت هى لتعد لنا ما نأكله ونشربه.

~*~

تواترت توابع انتفاضة يناير إذ اعتقل كل من: البدرى فرغلـــى، رضا الوكيل، عبد السلام الألفى، عبد المنعم كراوية، على الألفـــى،

وأُودعوا سجن طرة، وهناك آخرون أُودعوا سجن بورسعيد.. غير الاعتقال هُوجم حزبي (حزب التجمع)، دونما توقف، إعلاميًا وَوُجِّهتْ إليه اتهامات بالعمالة لموسكو، ومزاعم بأننا إنما نرتدى قميص عبد الناصر، وأوصاف بأننا لسنا سوى مناضلى ميكروفونات، وما أكثر وأشد صور الضغوط التى مورست على أعضاء حزب التجمع، من خلال استكتاب الاستقالات فى مقار مباحث أمن الدولة، واقتحام مقرات الحزب؛ وكنا قد تعرضنا فى بورسعيد لكل هذه الصور مما أدى إلى تقلُّص عضوية الحزب، بعدما كان هو الأكبر حجمًا فى بورسعيد بعضوية أعداد غفيرة من عمال من هيئة قناة السويس وعمال المصانع جنوبي المدينة، لا سيما المصنع الأشهر وقتها "بورتكس".

كان السادات بصدد زيارة لبورسعيد للاحتفال بذكرى افتتاح قناة السويس أمام الملاحة البحرية الدولية فى العام ١٩٧٧م.، وإذ بالمحافظ السيد محمد سرحان يستدعينى عن طريق مدير مكتبه "محمد يونس" لمقابلته، ولَمّا كنتُ وقتها فى مكتبي بديوان عام المحافظة، فإن دقائق قليلة هى التى استغرقتها فى رحلة ذهابي إليه. اقتصرتْ المقابلة علينا نحن الاثنين، وبعد مشروب الاستضافة أمضيتُ معه نحو الساعتين فى حوار دار حول تقارير مباحث أمن الدولة ومخاطر الحفاظ على الأمن ومتاعب العمل (من ناحية المحافظ)، وحول الوطن والوطنية والشرف اليسارى وتفنيد تقارير المباحث (من ناحيتى). ما لفت انتباهى أنه مع

طول مدة المقابلة لم يدخل علينا أحد سوى العامل الذى قدم بمشروب الاستضافة فى بداية دخولى المكتب. كان هذا غريبًا ولافتـًا لانتباهى لى لعلمى أن مكتب المحافظ فى عهده تحول إلى نادٍ لأصدقائه ولنواب الحزب الوطنى. بعد نحو الساعتين اختتم المحافظ اللقاء بتحذير اجتهد أن يلطف من حدّته. خلاصته أنه لن يتوانى عن نقلى إلى أبعد نقطة فى مصر، وأنه لولا تقارير أخرى وردتْ إليه عن غير طريق مباحث أمن الدولة لكنتُ منفيًا الآن إلى ما وراء الشمس.

ما استغربتُ له أنه عقد ذراعيه لحظتها خلف رأسه وتحرك بكرسيه الدوّار ذات اليمين وذات اليسار، مع أنه كان ودودًا فى حديث طيلة اللقاء.

غير زوجتى لم أخبر أحدًا من أهلى.

وما أسرع ما جاءتنى أنباء نقل زملاء العمل السياسى: البدرى فرغلى (إلى سفاجة)، على عتمان (إلى سوهاج)، رضا الوكيل وأمين لبلب (إلى أسيوط)، ومجيد سكرانة، وزوجته ابتهال سالم (إلى كفر الشيخ)، وعبد المنعم كراوية (إلى السويس)؛ ومنهم من كان أوثق صلة بالسيد سرحان منى مثل على عتمان..

وإذ بالسادات يهبط إلى المدينة، ومن صالة الاجتماعات الكبرى بديوان عام المحافظة، ومرتديًا عباءة الزعيم المؤمن وعبر الميكرفون قال موجهًا كلامه للسيد سرحان ".. أنا سامع إن عندك شوية عيال عاملين

قلق. افرمهم يا سيد. ابعتهم لى يا سيد". كان هذا فى زمان ديموقراطية المفرمة، و"شوية العيال" هم نحن يساريُّو بورسعيد. على الفور رافقتْ أمى أبى وجاءانى فى بيتى الجديد، ربما لتكحيل أعينهما بمرآى قبل الفرم. بعد لأى ومجاهدة منى قبلا بعد انتصاف الليل الانصـــراف إلى بيـــت العائلة الكبير، عند الباب ضاحكنى أبى وهو يلمس بإصبعه جبهتى:

"أنا مطمن إن الدماغ دى مش ممكن تتفرم"..

أما أمى فبعـــد أن احتضـــنتنى عـــادت واحتضـــنتنى ثم عـــادت واحتضنتنى، ولمَّا أعطتنى ظهرها وبدأتْ مع أبى فى هبوط السلم، سمعتها تقول:

"ربنا يعمى عيونهم عنك".

وعَمِيَتْ عنّي عيونُهم بالفعل.

~*~

فى هذا الجو الساخن جاءت زيارة السادات للقدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧م لينسكب الكيروسين على النار التى تَكوينـــا. وجـــاءنى أبى ليقول لى:

"عايزينك فى مباحث أمن الدولة"..

فقلت له:

"اللى عايزنى يجينى ومعاه أمر النيابة".

رأيتُ نظرة الفخر تطل من عينيه، فى حين نَهضتْ إلىّ أمي وقبلتني:

"خد بالك من نفسى قوى.. إنت عارف إن دول مـا يقـدرش عليهم إلا القادر"..

أى لا يقدر عليهم سوى الله.

بعد يوم وبعض يوم نجوتُ من حادث سيارة، فقالت لى أمى:

"مش قلت لك؟"..

فرددتُ عليها:

"لا يا أمى.. مش للدرجة دى".

~*~

حدث أن حصلتُ فى العام ١٩٧٨م. علـى مسـكن حكـومى انتظرته وكافحتُ من أجله سنوات أربع، مع تحقق الحلـم انفصـلتُ وأسرتى الصغيرة عن بيت العائلة الكبير. بانفصالى هذا تمتعتُ بحريـة أكبر فى العمل السياسى، ومعها عانيتُ من مضايقات بوليسية أقسى؛ ففى نفس العام حل السادات الاتحاد الاشتراكى، وأسـس الحـزب الوطنى الديموقراطى ليحول أعضاء حزب مصر العـربى الاشـتراكى عضوياتهم إلى الحزب الجديد الذى ترأسه السادات نفسه، وكان هذا موضع استهجان كبير فى الشارع السياسى، لكن سطوة الحكم أبقت

عليه ودعمته بتماهى مؤسسات الدولة فيه، وتماهيــه فى مؤسســات الدولة، والنتيجة هى تضييق أكثر وتقليص هوامش المعارضة السياسية.

من صدمات السادات الكهربائية، توقيعه على اتفاقية العار فى ١٧ من سبتمبر من هذا العام (١٩٧٨م)، بعدما دخل فى تفاوض مع مناحم بيجن استغرق ١٢ يومًا بإشراف رئيس الولايات المتحدة الأسبق جيمى كارتر فى كامب ديفيد بالولايات المتحدة الأمريكية التى سلمها ٩٩% من أوراق اللعبة السياسية، فارتَجّت مصر وارتجت المنطقــة العربيــة كلها. استقال محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية المصــرية، وهــاج المصريون والعرب، ومع حصول كل من السادات وبيجن على جائزة نوبل للسلام فى ذات العام (١٩٧٨م)، علق العرب عضوية مصر فى جامعة الدول العربية ونقلوا مقرها من القاهرة إلى تــونس، ونشــأت نوازع الزعامة الإقليمية والشخصية فى المنطقة لسد الفراغ الذى خلفته مصر خصوصًا فى العراق وسوريا. ما يهمنى ذكره هنا من كل هذا هو نشوء جبهة الرفض العربية (رفض الاتفاقية والصلح مع إسرائيل) وقيام العراق بإنشاء إذاعة موجهة إلى مصر تحمل اســـم "صــوت مصــر العروبة".

كانت إذاعة مضادة للسادات واتجاهه التصــالحى مــع العــدو الصهيونى، ومن ثم اهتمت بمعارضيه ورافضى اتفاقية الكامب، وبما أننى من هؤلاء فقد فوجئت بأحد مذيعيها يقرأ بياناتى تحت عنوان "بطاقــة

مناضل". واستمرت تذيع موضوعات عنى جنبًا إلى جنب إذاعة بعض من نصوصى القصصية حتى بداية ثمانينيات القرن العشرين، وأنا مندهش ممن يغذى الإذاعة بهذه التفاصيل الحقيقية. هاجت بطبيعة الحال مباحث أمن الدولة عليّ، وفى مكتب ما وبطريقة ما كان رجال مباحث أمن الدولة يرصدون ما يذاع عنى ولى، وصارتْ أسرتى من ناحية أخرى تنتظر مواعيد البث لتشاركنى الاستماع إلى ما تقوله الإذاعة عني. كانوا يعرفون أن أعمالى كانت تبث فى الإذاعات المصرية، ولا يكترثون بها، لكن ما تبثه هذه الإذاعة بالتحديد وفى هذه الظروف بالضبط هو ما دفعهم لتتبعها. شد انتباهى إصغاؤهم المنتبه إلى كل ما ينطق به المذيع. بدوا لى أنهم إنما يعملون على استكشاف ما هو مخفى مني عنهم. الإحساس الذى خامرنى وقتها أنهم قد تيقنوا من أن السياسة قد تلبست ابنهم، وأنه ارتضى هذا التلبس ولن يخلعه عنه. سألنى أبي:

"إنت بتبعت لهم الحاجات دى إزاى والبريد متراقب؟"

أجبتُ:

"علمي علمك.. وزيك يا بابا، نفسي أعرف مين اللى بيديهم بياناتي وقصصي؟"

انصرف ذهنى إلى الشاعر الكبير "محمد عفيفى مطر"، فقد كان معارضًا للسادات وغادر مصر إلى العراق، لكننى عرفت فيما بعد

أن الشاعر "حسن النجار" كان هو الشخص الذى يغذى هذه الإذاعة بما يخصنى. أخبرنى بنفسه بهذا لمّا التقيتُه فى مصر بعد عودته من العراق بمدة.

ما يهم أن أمى التفتت إلىّ بعد استماعها إلى إحدى قصصى وقالت لى مشجعة:

"أيوه كده اكشفهم وافضحهم بحق اللى عملوه فيك وفينا وفى البلد."

(كانت تقصد مباحث أمن الدولة).

~*~

كلما انقطع الإرسال التليفزيونى أو اعتراه التشوش، انصرف ذهنى إلى أن انقلابًا عسكريًا أو حدثًا جللاً قد وقع. كان الأمر قد تجاوز مداه باعتقال السادات لرموز مصر كلها. رموز وأية رموز: سياسية ودينية وإعلامية وثقافية عامة ومتخصصة: أدبية وفنية؛ وذلك فى الثالث من سبتمبر ١٩٨١م. ممارساته القمعية أَتْرَعَتْ كأسَ المرار حتى الفيض، فبات تكرار الحديث عن انقلاب عسكرى وشيك يمكنه أن يحدث أمرًا شائعًا، وقرأتُ أن ثمة أحاديث تتردد فى دوائر صنع القرار داخل الولايات المتحدة الأمريكية عن انقلاب وشيك من داخل السلطة المصرية يضمن استمرار سياسة الموالاة لها.

"قميص عبد الناصر" و"شيكات موسكو" و"النضال الميكروفوني" كانت مفردات راسخة فى الإعلام الرسمى اليومى الموجه ضد اليسار المصرى، وقضية التنصت الكبرى، المعروفة بـ"قضية التفاحة"، كانت واحدة من كبريات محاولات تزييف الواقع التى استهدفت تشويه صورة اليسار بعمومه، وحزب التجمع على وجه الخصوص؛ و"التفاحة" هو الاسم المخابراتى الذى سجلت به القضية. تم تدبير هذه القضية عقب اعتقالات سبتمبر لإلصاق تهمة التخابر مع الاتحاد السوفيتى باليسار المصرى. وبدأت الصحف ــ لاسيما جريدة "مايو" لسان حال الحزب الوطنى وقتها ــ فى كيل الاتهامات لحزب التجمع أهونها العمالة وأشدها الخيانة. المفاجأة جاءت بعدُ تحقيقات المدعى العام الاشتراكى وإحالة القضية إلى النيابة العامة. مفجرة المفاجأة هى النيابة العامة، فقد أمرت بحفظ القضية لعدم عثورها على ما يثبت الجريمة.

لو قلتُ إن الجو كان مشحونًا إلى درجة الانفجار لكنتُ مهوّنًا للأمر، فما أشد وأقسى قبضة النظام الساداتى وقتها. بلا توقف، ظلت هذه القبضة تدير ذراع مفرمة الديموقراطية؛ وبلا توقف ظلت أنياب ومخالب هذه الديموقراطية العجيبة تنهش وتخمش. سطوة ما بعدها سطوة، من تجلياتها التنصت شبه الدائم على المعارضة، وحدث أن اكتشف قادة حزب التجمع فى بدايات ذات العام (١٩٨١م.) أجهزة تنصت كثيرة وغريبة مبثوثة فى كل حجرات المقر المركزى (بشارع عبد الخالق ثروت وقتها).

طبيعى والأمر هكذا أن تعظم هواجسى تجاه المتوقع سواء كـــان انقلابًا أو حادثـــة ذات شأن؛ لذا لما انقطع الإرسال التليفزيـــونى فى السادس من أكتوبر فى العام ١٩٨١م. توقعتُ الأمرين معًا: وقـــوع انقلاب واقترانه بحادث رهيب.

من فورى وثبتُ من أمام التليفزيون وهبطتُ إلى الشارع لأشترى بطاريات لراديو الترانزستور العظيم الذى خلفه نبأ اغتيال الســـادت على أيدى مجموعة من الجهاديين أثناء الطـــابور العســـكرى بنســـبة الاحتفال بنصر أكتوبر المجيد.

لقد وقع الحادث الرهيب، ولم يقع الانقلاب.

أبى كان قد فارق دنيانا منذ نحو العام (٢٥ يوليـــو ١٩٨٠م.)، وتحولات كانت قد طرأت على سلوك أمى فلم تعد تخرج من البيت إلا فى نادر النادر، خصوصًا أن جدتى لأمى أصـــيبت بكســـر فى عظـــام الحوض أسكنها الفراش. فذهبتُ إليها فى بيت العائلة الكبير لتحتضننى، وبدون مقدمات نمتُ فى سريرها بملابس الخروج.

دخل مكتبى بديوان عام المحافظة "السيد" مخبر مباحث أمن الدولة وقال لى:

"ما قبضناش عليك، علشان اسمك ما إجاش من مصر".

فشخصتُ بذهنى صوب أمى وسريرها.

~*~

أمضى محمد حسنى مبارك نحو ثلاثين عامًا حاكمًا لمصر (١٩٨١م. ـ ٢٠١١م.) قبل أن يخلَعَه شعبُهُ فى ثورة ٢٥ من يناير ٢٠١١م، وعاشت أمي فى عهده نحو ٢٧ عامًا إذ توفاها الله فى ٢٠ من يوليو ٢٠٠٨م. بدأت فترة حكم مبارك بانتهاج دربين متعاكسين أحدهما أدى إلى الإفراج عمن حبسهم السادات فى سبتمبر ١٩٨١م. واستقباله لعدد منهم، أما ثانيهما فأفضى إلى اعتقال معارضين آخرين على خلفية اغتيال السادات.

لم تفرق جهات الأمن بين يمينيين أو يساريين فى عمليات الاعتقال هذه. افتدى يساريُّو بورسعيد البدرى فرغلى، وشهد واحدة من أقسى فترات الاعتقال وأضرب عن الطعام حتى الموت، وحينما أنهى إضرابه كاد يموت لأنه تناول قطعة حلاوة شامي. أمي التى لم تره كانت تدعو له ليل نهار، وكانت تتابعنى فى ذهابي وإيابي إلى مقر الحزب. كانت صورة جمال عبد الناصر بشرفة الحزب ترمضهم وصوته المنبعث من جهاز التسجيل يزعجهم وهم هناك فى قسم شرطة الشرق الواقع فى البعيد جدًا عن مقر الحزب بالقرب من باب ٢٠ الجمركى ولا يزعج سكان العمارة الموجود بها مقر الحزب (!!). ظلوا فى تحرش بنا وتضييق علينا واصطياد للضعفاء منا، وبث للجواسيس والعملاء وسطنا، حتى جاء وقت صفصف فيه مقر الحزب من مرتاديه اللهم إلا عددًا من مؤسسيه، وجاء وقت انشغلتُ فيه بالسفر لأداء امتحانات تعليمى

العالى فى المعهد العالى للعلوم الإدارية والتعاونية بالقاهرة فلم يكن يفتح الحزب ويجلس فيه سوى فرد واحد هو "عبد السلام الألفى".

أمى الجالسة فى البيت كانت تسألنى كلما ذهبت إليها لأطمئن عليها وأطمئنها علىّ:

"هيه.. الأخبار إيه؟"

فأخبرها بالبسيط غير المرعب، فتسألنى عن البدرى فرغلى فأطمئنها عليه وأنا غير مطمئن.

كانت تقوم بالدورين معًا، دور الأم، ودور الأب، فكانت تحنو علىّ وترشدنى وتشد من عضدى.

أثناء حياتها، فى عهد مبارك، قمتُ وزملائى بفعاليات سياسية كثيرة، منها الوطنى العام، ومنها الوطنى الخاص (المحلى) من العام على سبيل المثال:

- حملة الاحتجاج على مرور السفن النووية من قناة السويس (بداية الثمانينيات من القرن العشرين).
- الاستمرار فى قيادة الاتجاه المناهض للتطبيع مع إسرائيل فى المحافل السياسية والثقافية.
- المشاركة فى تأسيس لجنة الدفاع عن الشعبين الفلسطينى واللبنانى (١٩٨٢م).

- الاحتجاج على ضرب إسرائيل لمقر منظمة التحرير الفلسطينية بتونس (١٩٨٥م.).
- الاحتجاج على مصرع سليمان خاطر بزنزانته (١٩٨٦م.).
- إدانة علاقات التبعية للغرب الأوروبى والولايات المتحدة الأمريكية بأكثر من صورة.
- رفض ترشيح مبارك لفترة ولاية ثانية وثالثة.. إلخ، ومقاطعة الاستفتاءات على ترشيحه، ومما يذكر أن حزب التجمع كان الحزب السياسى الوحيد فى مصر الذى أصدر كتابًا بعنوان (لا لمبارك) عند ترشحه للولاية الثانية (١٩٨٧م.)
- المشاركة فى حملات رفض بيع القطاع العام وخصخصته.
- الاحتجاج على مشاركة قوات مصرية وقوات عربية أخرى للقوات الأمريكية فى حرب دولة الكويت المعروفة بحرب الخليج الثانية لردع القوات العراقية الغازية لها (١٩٩١م.)
- رفض قانون تنظيم العلاقة بين المالك بالمستأجر (١٩٩٢م.).
- معارضة إصدار قانون النقابات المهنية رقم ١٠٠ لعدم دستوريته، ولإصداره دون العودة إلى أعضاء هذه النقابات (١٩٩٣م.).
- المطالبة بإصلاح نظام الانتخابات إصلاحًا جوهريًا فى كل مراحله.
- تصعيد التنديد بالدمج بين مؤسسات وأجهزة الدولة والحزب الوطنى الحاكم ورئاسة مبارك لهذا الحزب.

- تصدر حملات إلغاء القيود على حرية التعبير وحرية تشكيل الأحزاب والجمعيات والنقابات.
- المشاركة فى حملات الدعوة إلى إقرار حق المواطنين فى الإضراب وتنظيم الاعتصامات والوقفات الاحتجاجية السلمية.
- فضح خدع دعوات مبارك لعقد مؤتمرات أو لإجراء حوارات وطنية تشارك فيها أحزاب المعارضة كالمؤتمر الاقتصادى المعروف بمؤتمر المئة (١٩٨٢م.)، والحوار حول قانون العلاقة بين المالك والمستأجر (١٩٩٢م.)، والحوار الوطنى (١٩٩٣م.)، لديكوريتها واتخاذها كمبرر واتف لاستصدار قوانين أو تطبيق سياسات معادية لأمانى الشعب. التحذير من محاولات ضرب الوحدة الوطنية.
- مناهضة الإرهاب الفكرى والدموى، ولأن قائمة حوادث الإرهاب الدموى تطول، أذكر أبرزها فى الفترة التى عاشتها أمى من عهد مبارك: اغتيال الدكتور رفعت المحجوب (١٩٩٠م.)؛ اغتيال فرج فودة (١٩٩٢م.)؛ تفجير مقهى وادى النيل بميدان التحرير القاهرى (١٩٩٣م.)؛ قتل ١٨ سائحًا يابانيًا بالجيزة (١٩٩٦م.)؛ مذبحة الدير البحرى بالأقصر، تدمير الأوتوبيس السياحى بميدان التحرير بالقاهرة، والهجوم المسلح على إمبابة (١٩٩٧م.)؛ هجمات القاهرة وشرم الشيخ (٢٠٠٥م.).
- الدعوة إلى إعادة إنشاء صندوق لموازنة الأسعار.

- رفض وإدانة الغزو الأمريكى للعراق ٢٠٠٣م.

ومن الوطنى الخاص (المحلى) أنشطة كثيرة ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية وعمرانية لكنها متصلة بالشأن السياسى اتصالاً وثيقاً، مثل:

- تصدر صفوف المعارضين لإعادة تمثال دى ليسيبس.
- حث صيارفة بورسعيد على عدم التعامل بالشيكل الإسرائيلى.
- عمل قوائم سوداء للفنادق التى تستقبل سائحين إسرائيليين إلى بورسعيد.
- تأسيس لجنة الدفاع عن حقوق ساكنى العشش ببورسعيد.
- المطالبة بازدواج طريق بورسعيد.
- مخاطبة كبار المسئولين لوقف تقسيم شاطئ بورسعيد بين الجيش والشرطة والأثرياء.
- مقاومة الاتجاه للاستيلاء على ميناء الصيد بقصد تحويله إلى مارينا لليخوت.
- المطالبة بضم مقابل التهجير إلى مرتبات العاملين بمحافظات قناة السويس.
- حل مشكلة الكتبة غير المؤهلين بديوان عام المحافظة والمصالح الأخرى.
- المطالبة بصرف علاوة غاز طبيعى للعاملين بمحافظة بورسعيد.

- مساندة عمال الرباط فى مطالبهم العادلة لتوفير شروط الأمان عند مزاولتهم لأعمالهم فى تفريعة قناة السويس المعروفة بتفريعة شرق بورسعيد.
- معارضة تصفية شركة القناة للشحن والتفريغ وتشريد عمالها، وتبنى الدعوة إلى دمجها مع شركة بورسعيد لتداول الحاويات.
- الدفاع عن حق الشركات الملاحية فى البقاء، ومناهضة الاتجاه إلى زعزعة مراكزها الاقتصادية.
- فضح ارتكاب بعض المسئولين لجرائم التهريب الجمركى.
- الدعوة إلى الحد من تلوث بحيرة المنزلة.

بالإضافة إلى فاعليات كثيرة ومتعددة متعلقة بارتفاع الأسعار وتضخم مشكلة البطالة واستحكام مشكلة الإسكان، تدهور أحوال المرافق.. ومجريات الحياة اليومية.

وقد اتخذ هذا النشاط أشكالاً وصورًا متنوعة من أهمها تنظيم المؤتمرات والاحتفالات (بالرغم من التضييق الأمنى الشديد)، استضافة قادة العمل السياسى المُعارض لنظام الحكم والأدباء والفنانين، توزيع البيانات، طبع الملصقات، المعارض المصورة، الندوات العامة والمتخصصة، إحياء المناسبات الوطنية والدينية (عيد العمال، ثورة يوليو، عيد النصر، قدوم شهر رمضان)، خوض الانتخابات النقابية العمالية والمهنية والانتخابات النيابية (مجلس الشعب والمجلس الشعبى

المحلى للمحافظة)، وكذا من خلال العمل الجبهوى وعبر تشـكيلات لجان الوعى الانتخابى أثناء الاستفتاءات وغيرها (مع الحـزب العـربى الناصرى، والوفد، والعمل الاشتراكى). وقد نظمنا من خلال حـزب التجمع ببورسعيد عملاً جبهويًا مهمًا مع حزب الوفد أثناء انتخابـات شغل مقعد مجلس الشعب الذى خلا بوفاة النائب الوفدى مصـطفى شردى لتأييد انتخاب مرشح حرب الوفد محمد سالم ندا لشغل هـذا المقعد ضد مرشح الحزب الوطنى السيد محمد سرحان، واعتقل لهـذا السبب ثمانية من أعضاء حزب التجمع من بينهم البـدرى فرغلـى، واقتحمت قوات الأمن مقر حزب التجمـع.. أمـا حـزب العمـل الاشتراكى فقد خان حزب التجمع وانقلب عليه عشـية انتخابـات مجلس الشعب النيابية.

وقد خضتُ بنجاح الانتخابات النقابية لعضوية مجلس إدارة اللجنة النقابية للعاملين بديوان عام محافظة بورسعيد والأحياء، ومن ثم عضوية اللجنة النقابية العامة للخدمات الإدارية (عمالية) لأكثـر مـن دورة، وانتخابات اتحاد كتاب مصر (مهنية) لثلاث دورات، كمـا خضـت الانتخابات النيابية (انتخابات مجلس الشعب لمرتين بالقوائم، وانتخابات المجلس الشعبى المحلى للمحافظة لمرة واحدة)، وكان التزوير السافر هو ديدن نظام مبارك حيال ترشيحات التجمع فى هذه الانتخابات.

ما ذكرت هذه الفعاليات التى وقعت فى المدى الزمنى الذى عاشته أمي خلال فترة حكم مبارك ـــ وهي بعض من كل ـــ بغرض التباهى، وإنما للتأكيد على أمرين:

أولهـــمـــا: تسجيل ما كاد ينمحي من الذاكرة ووضعه تحـــت أعـــين وأبصار أبناء الأجيال الجديدة.

ثانيهما: تبيان مدى القلق الذى عانت منه أمي وهـــى تتـــابع هـــذه الفعاليات بحواس ومشاعر وسلوك الأم.

لكن والحق يقال قَلَّتْ الملاحقات البوليسية لى ولأعضاء حـــزب التجمع، ببورسعيد خاصة ومصر عامة، بعد نحو عَقد من فترة حكـــم مبارك الطويلة، ولربما عاد هذا إلى بزوغ جماعات الإسلامَ السياســـى كقوة مهددة لأمن واستقرار نظام مبارك السياسى بما تستخدمه مـــن عنف مسلح ضده، ووضوح موقف حزب التجمع المناهض للإرهاب والتطرف المتسربلين بالدين؛ ومن ثم قَلَّـــتْ إلى حد كبير مضـــايقات الأجهزة الأمنية وملاحقتها لأعضاء وكوادر التجمع مما أتاح أمرين:

أولهما: مناخ مُوَاتٍ للحركة فى بورسعيد فى ظـــل ظـــروف التقييـــد التقليدية كالحيلولة دون الالتقاء المباشر بالجماهير.

ثانيهما: إراحة أمي بالإبقاء على قلقها فى حدود طاقاتها الاحتمالية.

غير أن حادثـــاً جللاً كان وقع ببورسعيد فى السادس من سبتمبر من العام ١٩٩٩م، بطله المواطن البورسعيدى "السيد العربى"، (اسمـــه

حسب شهادة الميلاد "السيد حسين محمود سليمان"). هو واحد من أبناء حى العرب، متزوج وأنجب ولدين ويقيم بالعقار رقم ٥٠ الكائن عند تقاطع شارع أحمد ماهر (الحميدى) وحارة المحلة، فقير مثل الكثيرين من أبناء الحى الذى التهمته التجارة والتجار، ضاقت به سبل العيش غير مرة، وضاق من تقديم الشكاية تلو الشكاية، وعند زيارة محمد حسنى مبارك لبورسعيد فى هذا اليوم (٦ من سبتمبر ١٩٩٩م.) عزم "السيد العربى" أن يكرر ما كرره كثيرون من أمثاله عند زيارة الرؤساء للمدينة بأن يتقدم بشكوى مباشرة إلى رأس الدولة وماسك دفتها، فتنحل مشكلته.

بهذا الفهم اندفع "السيد العربى" بشكواه نحو موكب مبارك أثناء سيره بعربته المغلقة فى شارع ٢٦ يوليو من أمام مستشفى المبرة بدئرة حى العرب (تصادف أننى غادرت هذا المكان متجهاً إلى بيتى قبل الحادث بدقائق معدودات) فأطلق حرس مبارك عليه النيران وقتلوه لتحيا المدينة واحدة من أقسى التراجيديات الدرامية، إذ ناصبها مبارك ونظامه العداء، وعوقبت المدينة بأكثر من قرار سيادى يحرمها مميزاهما، فضلاً عن السعار الأمنى الذى عقر الكثيرين.

لولا رضاء أمى عنى لنالنى العقر، فقد تصادف بعد نحو يومين من الحادث، أبديت تشككى فى الصورة التى روجها الإعلام للحادثة بأنها محاولة من "السيد العربى" لاغتيال مبارك:

قلتُ للفتاة التي كانت تسأل السماك الذى وقفت لأشترى من سمكه عن حقيقة الوضع:

"كان خايف".

سألنى زبون:

"مين؟.. السيد العربى؟".

بتلقائية أجبته:

"لأ.. مبارك"..

وأضفتُ:

"الرئيس الفاسد المستبد دايماً بيكون خايف".

فما كان من الزبون إلا أن واجهنى بجملة آمرة:

"هات بطاقتك".

ووقعتُ فيما كان ينبغى أن أقع فيه. فالزبون ضباط لا أعرفه يرتدى ملابسه المدنية كعادة ضباط المباحث.

بدون أن يتفرس بيانات البطاقة سألنى سؤال العارف:

"مش انت بتاع التجمع؟".. (قَصَدَ حزب التجمع).

قبل أن أجيبه جاء ضابط يرتدى الزى الرسمى وسأله:

"ماله ده؟".

"مش عاجبه الريس".

فضربه على ظهره:

"يعنى هو عاجبك واللا عاجبنى واللا عاجب حد؟.. إنت يا رجل مش لسه شاتمه قدامى إمبارح؟"..

ثم سحب بطاقتى من كفه وأعادها إلى قائلاً:

"خد يا أستاذ بطاقتك وتوكل على الله".

وكان هذا تجليًا من تجليات بركة أمى.

(١٥)
أمي والحروب

الحرب العالمية الثانية:

أثناء الحرب العالمية الثانية أبت أمي أن تهاجر مثل الذين هاجروا، فبقيتْ مع أبي، وبَقيَتْ معها أمها وحماتها.

كانت قد وَلدتْ له أخي الأكبر (فى العام ١٩٣٩م).

كانت شوارع المدينة تشغى بالجنود الإنجليـز، يمشـون فى تلـل وفصائل، معهم بنادقهم الـ"لى إنفيلـد lee-enfield" ورشاشـاتهم الـ"تومى جَنْ ـ Tommy Gun" والـ"بِـرِن ـ Bren". تمـرق عرباتهم كيفما أتيح لها المروق. عربات جيب وناقلات جنود. الدبابات فى الكامب، والجنود فى الشوارع. ما من ليل إلا شوهد فيـه إنجليـز سكارى يصخبون إذ يدخلون ملاهى وبارات حى الإفرنج، أو يتجهون إلى مواخير المناخ الفوقانى. من الأهالى من فتنتـهم نقـود الإنجليـز فتساهلوا معهم، ومنهم من أبت عليهم وطنتيهم السكوت، فكانـت تنشب بينهم وبين الإنجليز بعض مناوشات.

حكت لى أمي وقالت إنها شافت بعينيها بنات بيضاوات، يرتدين ملابس الجيش، يقدن سيارات نقل الجنود، وقالتْ إن "سى مسعد" قال لها إنه "شاف بحارة أجانب ما كنش بيشوفهم وفراقيط فى المينا"؛ وقالتْ إن البلد بالليل كانت "خِرْمس"، لأن فوانيس النور بالشوارع ـــ التى لم تكن تضاء إلا بواسطة "المشاعلى" ـــ أطفئت أو دهنت بالأزرق، كل لمبات الكهربا دهنت بالأزرق، حتى كلوبات المقاهى، ولمبات الجـــاز، كلها هى وزجاج شبابيك البيوت كانت مدهونة بالأزرق، لدرجة "إن اللون ده ما طِلعِش من تعاريج القزاز التلاّج اللى فى شبابيك بيتنا حتى بعد غسله بالليفة والصابونة"؛ وقالت إن "الطلاينة" و"الألمان" هجموا على البلد بالـــ"طيارات" ورموا "البومب"، والطوربيدات، وإنه "قبل زمارة الإنذار ما تسكت كنا نلاقى أزيز الطيارات مالى السما، وعلى طول.. السما تبرق ونسمع تكتكات المـــدافع الرشاشـــة، ويحصـــل الانفجار"، و"بين كل غارة وغارة كانت الكشافات سكاكين بتشـــق السما وهى بتدور على الطيارات".

وقالت لى "اللى أعرفه إن البلدية انضربت هى ومكان تانى ناسياه، لكن اللى أنا متأكده منه إن بُمبة نزلت عند الشفخانة اللى كانـــت فى شارع السواحل وجت على سلك كهربا نزل على رقبة جمل موتـــه"؛ وقالت "أبوك شافهم وهمه بيحاولوا يطلعوا الألغام من الكنال، وقال لى إن المراكب ما عدتش بتخش المينا، وسمع من واحد خواجة إن الإنجليز

واللى معاهم أخدوا من الألمان فى البحر علقة جامـــدة عنـــد بـــلاد الاجريج، ومات لهم عساكر كتير وهمه راجعين لبورسعيد، وغواصات غرَّقت بطوربيداها فراقيط وطرَّادات إنجليزية".

~*~

أمي ونكبة فلسطين:

لم تكد الحرب العالمية الثانية تضع أوزارهـــا فى الميـــدان الأوروبى وتفرضها قنبلتا هيروشيما ونجازاكى فى الميدان الأسيوى حتى وقعـــت نكبة فلسطين فى العام ١٩٤٨م. كنت أتعلم النطق لا أزال، لكن من حكايا أمي، فيما بعد، علمـــتُ أن بورســـعيد اكتظـــت بـــالمهجَّرين الفلسطينيين، وحكى لى أبى كيف كانت الميناء مزدحمة بقواربهم حـــتى إنها سدت البوغاز من شدة تزاحمها. أغلبهم جاء من يافا فـــرارًا مـــن الجحيم الذى صبته العصابات اليهودية عليها من ناحية البر، تاركة لهم البحر ليفروا منه فيخلو لهم وجه المدينة، وهو ما حـــدث، وكانـــت بورسعيد هى أول ما رسوا فيه بقواربهم.

قال لى أبى: "جمعتهم الحكومة عند الكارنتينـــا، وحـــالهم كـــان يصعب على الكافر"، وقالتْ لى أمي: "أنا فضّـــيت أوده فى الشـــقة

وطلبت من أبوك يجيب عيلة منهم تعقد معانا لغاية ربنا ما يفرجها، وأبوك وافقني، لكن الحكومة كانت نقلتهم لمعسكر فى القنطرة شرق".

~*~

أمي وكراهية الاحتلال الإنجليزى:

الإنجليز كانوا فى كل مكان بالمدينة، ولم يحدث أن اقتصر وجودهم بها على كامب الجولف أو كامب بورفؤاد أو الميناء. كانت لهم مستشفاهم المطلة على شارع كتشنر بمنطقة طرح البحر بحى العرب، ضباطهم لم يتركوا قسماً للشرطة إلا كان لهم تأثير عليه، ودورياتهم لم تترك شارعاً إلا حرثته؛ حتى المناخ الفوقانى، حيث العشوائيات فى أقبح صورها، كانت فيها المنطقة الخاصة بكرخاناتهم سيئة السمعة وتجمعت فى مكان أطلق عليه اسم "الفجالة" عند البعض و"المحطة" عند بعض آخر. إلى هذه الكرخانات كانوا يترددون ثُلَلاً ثُللاً، ونادرًا ما كانوا يأتونها فرادى خشية على أنفسهم من السرقة وحوادث الاعتداء.

ذات مرة، وبعد أن عاد أبي من عمله وهممنا بالجلوس إلى العَشَاء؛ لم نجد أخى الأكبر "عليّ". قالت أمى:

"علي لسه فى الشارع بيعمل إيه؟".

وأطلتْ من الشباك فلم تره. نزل أبي إلى الشارع وسأل ولدين من أصدقائه بقيا فى الشارع حتى هذه الساعة عنه، فأجابه أحدهما:

"مشى ورا العساكر الإنجليز".

"من أهو ناحية؟".

"من الناحية دى".

من الإشارة فهم أبي أن الاتجاه هو المناخ الفوقاني، فجمع مجموعة من الشباب، وبالعصي الطويلة والشماريخ تسلحوا، ومن فورهم اتجهوا إلى حيث اتجه الإنجليز واتجه أخي. المفاجأة أن المتحفزين للعراك مع الإنجليز رأوهم مشغولين بالتحدث إلى القوادين والمومسات، بينما أخي الطفل يراقب ما يحدث أمامه وفي يده لوح شيكولاتة إنجليزى يأكل منه. ما يهم من كل هذا أنه عند العودة كان المتبقى من لوح الشيكولاتة ما زال بيده، فانتزعته منه أمي ورمتْ به — كما قالت لى — فى صفيحة الزبالة وعنفته لأنه

"مايصحش حدّ منّنا يآمن للإنجليز، أو ياخد منهم حاجة".

~*~

أمي وحرب ١٩٥٦م:

من أفضل القرارات التى اتخذها القيادة المصرية فى بدايات حرب ١٩٥٦م. قرارها بتسليح الشعب فى بورسعيد، وإن شابته أقدار من العشوائية. وُزِّعَت ٥٠ ألف قطعة سلاح عِلى الكبار فى الثانى من نوفمبر، لكن من هذا السلاح ما وجد طريقه إلى أيدى الصغار. كانت

أشرطة الرصاص تتقاطع فوق صدرى وتطوق خصرى، وفى يدى بندقية مكسورة الدبشك؛ ولم يكن الرصاص الذى أحطتُ به جسمى مِن النوع الذى يتفق وخزانة البندقية. كان رصاصَ رشاشٍ، ومع هذا استهوانى مثلما استهوى أقرانى زهو امتلاك السلاح والذخائر، فاستبدلنا هذه الأشياء بسيوف وخناجر الجريد التى كنا نصنعها من أقفاص الخضراوات والفواكه. لم نكن نعرف كيفية استخدامها اللهم إلا السناكى التى كنا نخلعها ونعلقها إلى خصورنا ونعيد تركيبها مرات ومرات، ولم يكن بإمكاننا الصعودِ بأسلحتنا هذه إلى بيوتنا، لذا كنا نخفيها فى أبيار السلالم، وأخفيتُ ما يخصنى منها فى صندوق عداد المياه بعمارة "السنوسى" المجاورة لعمارتنا.

السلاح كان فى أيدى الكل. قطار محتشد بالأسلحة جاء المدينة، وعربة بيك أب سارت تدعو الناس لاستلام السلاح، والاستلام تم عشوائياً و"اللى يلحق". البنادق النصف آلية والآلية والرشاشات بشحومها كانت، والقنابل اليدوية بالصناديق وزعتْ. جدعان حارتنا كانوا مدججين بالأسلحة. "غريب" مطرب الأفراح ابن عم "أيوب" بياع التمرية، "أحمد صبيح" الشهير بـ"أحمد كُفته" راقص السمسمية العامل بشركة الرباط وأنوار السفن، الشقيقان "أحمد ومحمد حمزة" من عمال البحر، "العكشة" الذى لا أعرف له مهنة، "العربى الجنتيرى" أعيق واحد فى الحارة ابن عم "الجنتيرى" بائع التحف والأنتيكات،

"مسعد شكارمو"، "عبود وعبادة"، وكان معهما أسلحة أوتوماتيكية ثقيلة، و"محمد وعلى زنجير" ولدا الأسطى "حسن زنجير" صاحب أشهر أقدم عربة بموتور "بتفسحنا فى العيد وتلفف عند "سبس".

"محمد" كان عسكرى بوليس و"على" كان يسوق السيارات كأبيه. "على" اشترك فيما بعد فى واحدة من أشهر أعمال البطولة فى هذه الحرب، عملية خطف الضابط "مُور هاوِس"، قريب الملكة "إليزابيث" ملكة بريطانيا، أما عسكرى البوليس "محمد" فَلَه قصة جمعتنى بأمي فى واقعة كان يمكن أن يموت فيها أحدُنا.

فلأنه عسكري، وكثيرون من الشباب لا يعرفون استخدام السلاح الموجود بين أيديهم فقد تطوع لتعليمهم كيفية استخدامه وتعويدهم عليه؛ ومن ثم بُسطت المشمعات والأقمشة على رصيف بيتنا أمام محل "لطفى" العجلاتى تحت شباكنا بالضبط. جلسوا عليها وطرحوا بنادقهم فوقها، وبإرشادات من "محمد زنجير" راحوا ينظفونها من الشحم، ويُسلّكون المواسير بأسياخ بها خرق صغيرة "معكوكة" جاز وفّرها لهم عم "لطفى"، وأخذ "محمد زنجير" يعلمهم كيفية فك وتركيب أجزائها، وكنا ـــ أنا وأمي ـــ نتطلع إليهم من شيش الشباك الموارب، فنراهم منهمكين فى أداء ما يطلبه منهم بإخلاص واجتهاد؛ وإذ يعلمهم كيفية حشوها بخزائن الرصاص وكيفية القبض والضغط على "التّتِكْ" انطلقت رصاصة لم نشعر بها إلا مارقة من بين أذنينا أنا

وأمي. صهدها لفح خدى وأذنى وعينى، ودهمتنى رائحة "شياط" ذؤابات من شعرى، بالتأكيد أمي شعرتْ بما شعرتُ، فقد شحب وجهها مثلما شحب وجهي. فى لمح من البصر كان رأسانا داخل الحجرة وسمعناهم يلومون "محمد زنجير"، فالرصاصة انطلقتْ من بندقيته هو. كان من الممكن أن تنال أحدنا فتغير مصير حياة الآخر، ومصائر كل من يحيا فى هذا البيت ، لكن الله سلم. كل ما قالته أمي "يصح كده يا شاويش محمد؟!"

(بعد تلك الحادثة علمنا أن "محمد زنجير" قَتَلَ بنوع الخطأ بنفس البندقية شخصًا آخر، وظل يدفع الدِّيَةَ مقسطة من راتبه لسنوات بعد الحرب).

لم أكف ـــ حتى بعد هذه الحادثة ـــ عن اللعب مع الأولاد بالأسلحة التى كثر حصولنا عليها. كثيرون ترفض أمهاتهم دخول الأسلحة بيوتهن فيتركونها مثلى فى أبيار السلالم وخلف مداخل البيوت. حدث أنّ مرَّ بالحارة مجموعة مِن الشباب توزعوا بامتداد شارع الجيزة ـــ شارعنا ـــ اثنان توقفا عند تقاطعه مع حارة الورشة (حارتنا).

كانت أصوات الانفجارات تأتينا من ناحية شوارع التلاتينى وأوجيني وكتشنر القريب من البحر، وكنتُ أحتمى وأقرانى تحت تراسينات بيت "عبده القبطى" ونمد أبصارنا إلى نهاية الشارع نستطلع مستجدات القصف.

واحد من هذين الاثنين كان يحمل سلماً خشبياً، بينما يمسك الآخر بجردل بوية زرقاء مدفوسة فيه فرشاة ضخمة. أسندا السلم إلى جدار بيتنا المواجه للشارع وصعد حامل الجردل والفرشاة إلى اللوحة التى تحمل اسم الشارع وطمسها بالبوية الزرقاء، ثم هبط ونقل السلم شبرين اثنين وفعل نفس الأمر مع اللوحة التى تحمل اسم الحارة؛ وفهمتُ مِن فورى أنهم إنما يطمسون لوحات الشوارع والحارات لأنها تحمل أسماءها باللغتين العربية والفرنسية، فالغزاة اقتحموا المدينة بعند مَنْعَة وقصفٍ هائلٍ استهدف الكبارى والمعابر ومواقع كثيرة بهدف كسر دفاعات المدينة العسكرية وبث الذعر لدى الأهالى. كانوا قد دمروا قبلاً كوبرى الجميل وكوبرى الرسوة وما جاورهما، مثلما دمروا بلوكات مساكن خفر السواحل ومبنى المحافظة ومستشفى الحميات والكبائن والجبانة والسلخانة ودمروا "بيت الأستاذ" أمام نادى المعارف، وأشعلوا البيوت فى شوارع عباس وعبادى وعرابى وبيوت الأهالى بالمناخ الفوقانى وأجزاء مِن المناخ التحتانى وبعض بيوت فى حى العرب، وضرب الفرنسيون بورفؤاد، وقطعوا بداناقم الرهيبةِ طريقَ المعاهدة وهجموا على محطة المياه وأحرقوا مخازن الأخشاب ومستودعات البترول.

النيران اشتعلت فى أرجاء المدينة الأربعة، أضخمها وأبشعها حرائق الجنوب حيث فناطيس الوقود. لم نكن بحاجة لمن يخبرنا بما يحدث فكل

ما يحدث نشهده من نوافذ بيوتنا التى ما عاد ينفعها الطـــلاء الأزرق، وإن نفعتها أربطة الشاش التى ألصـــقناها عليهـــا فى بدايـــة الحـــرب بـــ"كُلـــّة الدقيق والنشادر". ما شاهدناه من نيران وأدخنة كان مريعاً. السماء احمرت واسودت وصرنا فى قلب كتلة من النار؛ ومع هـــذا لم يتمكن الغزاة من الدخول المباشر إلى المدينة، ولم يسيطروا إلا على ثلاثة مواقع طرفية: الجميل والرسوة ومنطقة جنوبيّ بورفؤاد.

أمى كانت تصرخ لكل واقف بنافذة كى يدخل، ومع هذا كانت لا تمنع نفسها من التطلع من الجهات الثلاث، التى تتيحها نوافذ بيتنا، إلى ما يدور بالخارج، وتدعو:

"يا رب سلم.. يا رب الْطُف".

وجدتنى بغير علم من أهلى مرافقاً لحاملى السلم وجردل البويـــة الزرقاء المغموسة فيه الفرشاة. حملتُ الجردل تارة، والسلم -أخـــرى، ومارستُ فعل الطمس أحيانًا. كانتْ مهمة سهلة على الرغم مِـــن أنّ السلم كان كثير المسامير والرُقع، ومقبض الفرشاة كان لزجاً مِن كثرة ما سال عليه مِن بوية، ثم ما لبثتُ أن انخرطتُ مع كُتَّاب الشـــعارات على الأعمدة والجدران والأسوار وأسفلت الشوارع.

خوف الأكبر كان مِن أهلى، كنتُ خائفاً منهم وعليهم. منهم إذا علموا بأمرى، وعليهم إذا ما شعروا بغيابى وخرجوا للبحث عنى، فما أكثر المَرَّات التى اختفيتُ فيها عن أنظارهم، لذا كنت أراعى ألا أوسخ

ثيابي ويديّ، لكن أنىّ لي هذا؟.. إن حدث وأفلحتُ في مسح كفيّ وأصابعهما، فإن اللابد بحواف الأظافر يتأبى على المسح، والنُقط على الشيرز ــ وإنْ دقّت ــ تفضحني. لذا "جِبْتَها من قصيرها" لّما انكشف أمري، وحكيتُ لهم عما أفعل. المدهش أنني لم أعَنَّف التعنيف الذي توقعته، ولم يفعلوا ما فعلوه معي يوم الاثنين الخامس من نوفمبر، ذلك اليوم العصيب، الذي اشتعلت فيه المدينة، وصعد فيه إلى سطح عمارتنا "أحمد كفتة" ببندقيته وأخذ يطلق الرصاص على الطائرات المغيرة من الوضع مرتكزاً والوضع واقفاً، وأمي تقول له:

"يا أحمد انزل ليفتكروا بندقيتك مدفع ومشمع العشة خيمة ويضربونا بالقنابل".

وأبي يقول له:

"حافظْ على الرّصاص حاينفعك بعد كده".

أما جدتي لأمي فكانت خائفة على ديكنا الشركسي وتحاول الإمساك به بعدما أبى إلا أن يظل خارج العشش وراح يتقافز باتجاه كل طائرة تمرق من فوق رأسه ويصيح.

بعد سيطرتنا على السطح أمسك الشرر بالمركيز (قطعة من كلاسيكيات الموبيليا) الذي كنت أجلس عليه في أوقات التأمل، مثلما أمسك بالكنب القديم المركون بالسطح وبالمشمع الذي كان يغطي عشش الدواجن. سقط الدخان الكثيف علينا من لقّافة السلم

فسارعنا بالصعود وقذف كل ما هو قابل للاشتعال إلى الشارع بعد أن صحنا فى الشباب المسلح ليخلى الشارع من المارة. فى ذلك اليوم مُنعت من الخروج من البيت خوفاً علىّ مِن الذهاب إلى المناطق المحترقة. يومها بكيتُ بحرقة وأنا أنظر إلى السماء الحمراء والأدخنة السوداء وطلبتُ مِن الله أنْ يُنزّل المطر ليطفئ الحرائق لأن المياه أيضاً كانت مقطوعة، والمياه القليلة التى كنا نقف بالطوابير لاستجلابها مِن حنفيات إطفاء الحرائق لا تكفى حتى للشرب. المدهش أنّ السماء أمطرتْ بالفعل فخامرنى إحساس بأننى قريب من الله لدرجة أنه استجاب لدعائى.

من بين دموعى هتفتُ بأمى:

"ربنا قِبلْ دُعايا يا ماما"..

فطبطبتْ علىّ وهى تمسح دموعها:

"طبعاً.. طبعاً.. أصل قلبك طاهر".

لكننى سرعان ما اكتشفتُ أنّ الكل كان يدعوه مثلى.

~*~

بيتُنا كان مكتظًّا اكتظاظاً مريعًا بالأقرباء وأقارب الأقرباء والجيران وجيران الجيران الذين جاءوا إلى بيتنا للاحتماء به من القنابل و"البودرة اللى بتولع".

كان بيتنا جديداً لم يمض على بنائه سوى عــامين، وكــان مبنيــاً بالطوب والحديد المسلح، لذا كان ملجأ آمناً لأقاربنا وعجائز المنطقــة المحيطة بها، الوجوه مختلفة منها النَّضِرُ ومنها الممصوص ومنها المستطيل ومنها المدوَّر.

الوجوه ذوات الجباه المغضنة والخدود المهدلة والأفواه الثرماء هى أكثر ما يزحم بيتنا، النساء أكثر من الرجال، والأولاد والبنات من كل سن. العيون تطفح رجاءً وتنز خوفاً. قليلات وقليلون من أعرفهم حق المعرفة. خالة أمى العزيزة "أم عبده"، وولدها "عبده نصير"، وابنتــها "فاطمة نصير"، وقريباتنا "السيدة العشرية" زوجة "عبده نصير" و"هانم العشرية" وزوجها عم "فراج"، و"نجية"، و"فهيمة"، وأولادهم وبناهم ، وممن اندفسوا فى زحام بيتنــا "لطفــى هاشــم" العجلاتــى وأخــوه "السندس". أما الجارات فمنهن الحميمات وغير الحميمات، من تعرفهن أمى ومن لا تعرفهن؛ ومنهن من جئن مُحمَّلاتٍ بأشيائهن: ملايــات، بطاطين، ألحفة، مراتب، هدوم، مَصاغ، حقائب سفر، وحقائب يــد. شدت انتباهَنا عجوزٌ مُكرمَشة، لا تعرفها أمى، تحتضن كــيس مخــدة بطول قوامها القصير؛ وسمعتُ أمى تجيب على سؤال من عينىّ أمها:

"متهيأ لى اتخيلت بيها فى الحارة اللى ملزوقة فى حارتنا".

كانت أمى ترحب بهم وتخدمهم على الرغم من شح المواد التموينية وانقطاع الماء والكهرباء. زحامهم لم يكن المشكلة التى يثيرها وجودهم

فى البيت، وإنما ثرثراقم وكلامهم الواجف وحركاقم الخائفة ومطالب الأطفال وبكاء الرضع. ما من انفجار إلا كان عم "فراج" راقداً بسببه إما تحت ترابيزة السفرة أو تحت السرير. كان دائماً يقول إنه عرف من قراءاته أن أفضل شيء لحماية الجسم وقت الغارات هو الاختباء تحت قطع الأثاث. لكنه كان يرقد تحت الأثاث مدداً طويلة حتى إن أمى كان لا بد أن تنحنى لتقدم له واجب الضيافة، "عبده نصير" كان أشجع منه وكان يقول:

"لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

من معجزات أمى فى هذا الظرف المريع أن رضيعا لم يجد فى صدر أمه ما يشبعه فأخذ يصرخ ويزيد فى الصراخ، حتى صم آذان جميع الحاضرين وسايره أطفال رضع وغير رضع آخرون، وظل هو الأعلى صراخاً لدرجة خيل إلىّ معها أن صراخه سيدل الطيارين على بيتنا فيقصفونه بالقنابل أو يرشون فوقه البودرة الحارقة. لإسكاته فتحت كل الأمهات ومنهن أمى صدورهن وصار يتنقل من صدر إلى صدر لافظاً كل الحلمات التى تدس فى فمه، ولم يهدأ ويقر إلا على صدر أمى.

بعد أن انتهى قصف البحر والجو وسقط المطر وانطفأت الحرائق غادرنا المحتمون ببيتنا على دفعات، إما باتجاه بحيرة المترلة ومرسى اللنش لمغادرة المدينة، وإما إلى بيوقم للاطمئنان عليها، قدمتْ أم أحرقتْ أم سَلِمَتْ. بعدما خرجت العجوز القصيرة الهشة هى ومخدقا التى بطولها. سألت أمى أبى:

"تعرف المخدة دى محشية إيه؟".

أجاب أبي:

"إذا ماكنتش محشية قطن تبقي إما محشية ريش طير أو قصاصيص قماش"..

لكن أمى نفت:

"لا ده، ولا ده، ولا ده"..

ولم تنتظر أن نسألها نحن عن نوعية الحشو وإنما أجابت هـــى بمـــا أذهلنا:

"فلوس"!.

~*~

بابنا كان دائم الطرق، وكانوا يأتون بجرحى الحـــى لأمـــى كـــى تطببهم، أذكر الشاويش "رمضان" وكان يسكن قبالتنا فى بيت "عبده القبطى" ذهب بجريح إلى المستشفى الأميرى فتلقفه رصاص الطـــابور الخامس بالقرب من المستشفى فمات الجريح وجرح هـــو، ولم يجـــد ساحبوه مكانا آمناً له سوى بيت "عم مسعد" (أبي) والست "أم على" (أمى). لمّا نزعوا عنه سترته الميرى وفانلته وأرقدوه على بطنه ومسحوا دمه رأيتُ ظهره مثقوباً كالمنخل. وسمعت أبي يقول:

"دى طلقات رشاش".

جدتي سقته ماءً، وأمي رشت السبرتو على ظهره وسكبت علــى الجروح القليل الذى لدينا من صبغة اليود وقالت لأبي:

"انده لنا العوضى يا سى مسعد".

العوضى هو الأسطى "العوضى" الحلاق الذى خَتَنَنِي. جاء من محلــه بشارع السواحل حاملاً شنطته وساحباً صبيه "الجمل"؛ ورأيتُ أول عملية جراحية فى حياتى تُجرى لظهر الشاويش رمضــان بســكاكين وأمــواس ومقصات الأسطى "العوضى" الحلاق تحت أعيننا ووسط دعواتنا.

صراخ الشاويش رمضان كان مكتوماً لأن الأسطى "العوضى" حشا فمه بمنديل قماشى؛ وظللنا نتابع ــ بأعين نفتحها أحيانًا ونغلقها أحيانًــا ــ أصابعه ومقصاته وأمواسه وسكاكينه وهى تقطع وتندس وتخرج على وفى ومن جلد ظهره. منا ومن اللاجئين إلى بيتنا من كان يرفع رأسه إلى السقف أو يخاطب السماء الملبدة خارج الشبابيك المفتوحة، أو يثنيهــا باتجاه صدره لكي ينكشف ضعفه وخوفه؛ وتساقطتْ الدموع الســاحَّة من مآقٍ كثيرة. الدموع الساحَّة من عينى أمي كانت كبيرة القطــرات كثيرة السقوط إلى الأرض ليتشرّبَها السجاد أو لتتبلور فــوق خشــب وبلاط الأرضية قبل أن تطأها الأقدام إذ تتحرك.

بعد زمن طال، احتوانا فرح عجيب، فرح فيه ضحك رنان وبكاء صريح. كأننا كنا ننتظر تنهيدة الأسطى "العوضى" التى صعَّدها مــن صدره. تنهد وقال موجهاً كلامه لأبي:

"خلاص يا عم مسعد"..

ثم لأمى:

"الحمد لله يا أم على"..

ثم للشاويش "رمضان" نفسه:

"ربنا بيحبك يا شاويش رمضان علشان انت راجل طيب"..

وحينما مدَّ كفاً ليخرج من فم الشاويش "رمضان" المنديل مبلولاً وممزقاً، أطلقت جدتى لأمى زغرودة أسرعت بقضمها كأنما تـــذكرت وهى تطلقها أن أجواء الحرب أكثر طغياناً من أجواء الفرح.

~*~

لم يتخذ أبى قراره بمغادرة المدينة فى هذه الحرب إلا بعد خطف "مور هاوس" بأربعة أيام. جارنا "العربى وِتْ وِتْ" خَوَّفه مِن أفاعيل الإنجليز وهم يفتشون البيوت. خاف أبى على نسائه (زوجة وابنة ـــ حتى ذلك الوقت ـــ وجدتان) فأخذنا نحن أولاده (سبعة حتى ذلك الحين) وأمى وجدتىّ وهاجر. خلال هذه الأيام الأربعة قتل السيد عسران ضـــابط المخابرات الإنجليزى الميجور ويليامز.

أخى (على) وأنا كنا مِن أشد معارضى هذا القرار، لكن أبى قـــرر واتفق مع ريس مركب من مراكب الخَضَايْرَة التى ستقلنا عبر بحـــيرة المنزلة إلى قرية النسايمة ومنها سنتجه إلى المنزلة ثم إلى قرية العدلية مِـــن أعمال محافظة دمياط.

أمى أيضاً استجابت على مضض، فهذه أول هجرة لها ولأسرتها، والمجهول الذى سنلقاه غير معروف كنهه، والعفش والمفروشات سوف تتركها لواقع غير معروفة خفاياه، ثم إن السطح محتشد بالدجاج والبط والأوز والحمام. صحيح أنه لا يوجد ماء ولا خبز ولا قوت، وبالكاد اشترى أبى بعض الدقيق وحبات من البطاطس وعلبتين أو ثلاث من علب البولوبيف والسالمون من الفتوات والـ"شبيحة" الذين هجموا على مخازن الترانزيت المقصوفة فى الدائرة الجمركية، لكن كان لدينا "خزين" طيب من "الدشيش" والذرة والفول و"الدريس" و"الرجيع" لزوم أكل "الحِيوان".

الألم كان يملأ عينىّ أمى وهى ترانا نترقب أقراص العجين وهى تسويها بدون خميرة على الردَّادة فوق بابور الجاز، والجاز أيضاً شحيح بعد ضرب فناطيس الجاز فى منطقة الرسوة ، كل ما لدينا صفيحتا جاز وأربع صفائح ماء. كانت تتألم فعلاً لما نعانيه ويعانيه أهل المدينة، لكن فراق بورسعيد عزيز عليها؛ ولولا "عبده وِتْ وِتْ" الذى ظل يزن على دماغ "سى مسعد" ويخُوِّفه من أفاعيل الإنجليز الغاضبين جرَّاء اختطاف ضابطهم، لأمكنها إقناعه بالبقاء.

غلفتنا أجواء جنائزية مهيبة، نحن وكل الأشياء التى مسحتها أعيننا والأفعال التى أتيناها. الشمس توارتْ والسحب انخفضتْ والجدران شحبت. دامعًا أبيتُ أثناء تحزيم الأمتعة إلا أنْ أحزِّم جدران بيتنا

بالشعارات التى كنتُ أكتبها مع الكبار، وبزهرة الغسيل كتبت أغلبها، على واجهة البيت الخارجية وعلى الحائط الممتد بامتداد السلم من باب الشارع حتى باب السطح. "النصر لنا"، "مصر مقبرة الغزاة"، ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد"،"عاش جمال عبد الناصر"، "يسقط إيدن وبن جوريون ومولية"، "يسقط نورى السعيد".

أمى وجدتىّ كن مشغولات بالجمع والتصنيف والصرّ. مراتب ومخدات، بطاطين وألحفة، هدوم وبشاكير، براويز وصور، أوعية وأطباق وملاعق وشوك، صينى وفضيات، أدوية وصابون، مخللات فى زراويات وبرطمانات.. وصوت أبى يكرر التنبيه :

"هاتوا الضرورى.. الضرورى بس".

كريات النفتالين بُذرت فى الدواليب المكتظة بالهدوم المتروكة، والبياضات ألبست لقطع الأثاث، والأقمشة ربطت فوق النجف؛ وتجمعت عند بسطة كل طابق صرر وبقج وحقائب وأسبتة وأقفاص.

للأقفاص وقفة، فالهول الكبير كان على السطح. الهول هول الفراخ والبط والإوز والحمام، والكتاكيت التى لم تنفض ريشها.. أغلب الأقارب والجيران سبقونا وهاجروا، فإلى من سنتركها؟..والكمية أكبر من أن نتمكن من نقلها على المركب، فماذا نحن فاعلون بها؟

إلى باب السطح استندت أمى برأسها. حينما رأتنى قالت لى بصوت شرخه الحزن:

"انزل هات السكينة الكبيرة يا قاسم".

لَمَّا صعدتُ إليها بها كانت قد أَوْلَـتْ بـابَ السطح ظهرَهـا واستندت بكلتا ذراعيها إلى نهاية الدرابزين. جدتى لأمـى كانـت فى قلب السطح. من القأقآت والصوصوات وخفقات الأجنحة ولهـاث جدتى و"بيتك..بيتك.. بيتك" و"عسل.. عسل.. عسل"، أيقنت أنّها تحاول السيطرة على ما بالسطح من "حِيوان".

جدتى لأبى انتظرت وسط الأشياء المربوطة تحت.

اهتزت يد أمى وهى تستلم السكين منى، بل ارتعشت. لأول مرة أرى يدها ترتعش. الثبات كان عنوانها. وهى تستعد لذبح ما سـنأكله كانت تبسمل وتقول وهى تَحُزّ:

"بسم الله.. ربنا يصبرك على ما بلاك".

لحظتها، استقر فى وجدانى يقين بأنها إنما تدعو الله لكى "يَصَـبِّرها هى على ما بلاها"، وبدأت الجثث تملأ الطشت.

بالماء والجاز ومستلزمات الطهو المتبقية لدينا طبخت أمى ما ذبحتْ. ما تبقى، وأغلبه من الكتاكيت التى لم تنفض ريشها، وُضِعَ فى الأقفاص التى نُقلت هى والمراتب المربوطة والصرر والبقج والحقائب والأسـبتة إلى عربة يد طويلة العريش.

ونحن ندفع عربة اليد المحملة بأمتعتنا فى شارع السواحل متجهين إلى البحيرة لحظ أبى انبعاجاً فى بقجة. تحسس الانبعاج وتتبعه فإذا بـه

يكتشف البندقية مكسورة الدبشك وخوذة ـــ أيضاً ـــ داخل بنطلون وسترة بيجامة. كانت الأشياء أشيائى، والبيجامة بيجامتى، والخـــوذة أعجبتنى صلابتها فاقتنيتها.

أخرج أبى الأشياء التى عدَّها خطرة وألقاها مِن فوره. رجوته أنْ يترك منها أى شيء للذكرى، فرفض:

"طيب سيب لى البندقية"..

"طيب الذخيرة"..

"طيب السونكى"..

"الخوذة ما فيهاش حاجة"..

وكنت أنحنى والتقط ما يرميه وأعيده إلى العربة فيلقى به ـــ هو أو أمى ـــ مرة أخرى، إلى أنْ فوجئنا عندما وصلنا إلى شارع الأمـــين ـــ حيث فى الجهة المقابلة محطة اللنش ومراكب الخَضَايْرَة وزحام المهاجرين ـــ برتل مِن عربات "الجيب" المحمّلة بالجنود الإنجليز، عندها أحـــاطنى أهلى بعيونهم فشعرتُ بالامتنان لأبى لأنه جنبنا خطراً عظيماً. وفيمـــا خيل لى أن الديك الـــ"شُمْرت" الذى صاح من قفصه الذى يحلو أمتعتنا إنما يعلن حمده لله الذى أنجانا من الإنجليز، مالت إلىّ أمى وقالت:

"قول لبابا ربنا يخليك لينا يا بابا"،

لكن أبى أسكتنى بيد عبثت بشعرى، وقال كلمة واحدة

"زُق"..

وراح يدفع هو وإخوتى العربة باتجاه المَرْسَى، فنفختُ فى قبضتىّ وبكل ما أوتيت من حماس وعزم شاركتهم الدفع، وفعلت مثلنا جدتى وأمى.

يبدو أن كثيرين غيرنا خافوا كذلك من بطشة الإنجليز، وهم يفتشون بلا جدوى عن ضابطهم المختطف مور هاوس، فقرروا مثلما قرر أبى مغادرة المدينة، فالمَرْسَى عاجٌّ بالناس والأمتعة والعربات من كل نوع، أغلبها عربات كارو، تفرغ حمولاتها من أمتعة وبشر عند تقاطع شارعى السواحل والأمين وكل حامل لمتاع أو غير حامل يهرول باتجاه اللنشات والمراكب. اكتشفتُ أن لنشات قناة السويس قد انتقلت إلى البحيرة. هى لنشات صغيرة تنقل البحارة والعمال والبمبوطية. الآن هى تنقل المهاجرين إلى بلاد الفلاحين. هدير محركاتها كالحشرجة، الدخان الأسود ينبعث منها فى فرقعات، وروائح السولار المحترق تقتحم أنوفنا. الحركة لا ضابط لها ولا نظام، واللنشات والمراكب الشراعية مكتظة بالناس وغاطسة أو مائلة. من شدة الزحام. تصورتُ أننا لن نجد مكاناً لنا. كانت الانفعالات الحزينة قد غيرتْ من وجه أمى، فقلتُ لها:

"هنرجع يا أمى.. متزعليش".

تمكنَّا من مراوغة المتزاحمين بدفع عربة اليد الثقيلة بشكل زجزاجى والوصول إلى الناحية الغربية من المَرسىَ حيث سينما الأهلى و"ماشينة" الثلج. تقدمنا بالعربة إلى الجنوب قليلاً، ثم لوح أبى بقطعة قماش فإذا

بمركب شراعية كبيرة، كانت فى فوهة المجرى الملاحى، تدخل المرسى، ويُلقى واحد من المراكبية الواقفين على سطحها بحبل سميك إلى عمود خشبى قصير غليظ مثبت بالبر ويشده إليه. ما إن اقترب جانب المركب من البر حتى مد آخر "السقّالة" وهتف بنا المراكبى الكبير:

"ياللا.. شهِّلوا.. بسرعة".

كم كانوا أذكياء هؤلاء المراكبية. لو كانوا ربطوا مركبهم إلى هذا العمود قبل أن نجيء لاقتحمها المهاجرون من غيرنا واستحال علينا أن نجد مركباً تقلنا.

بسرعة رحنا ننقل مراتبنا ومخداتنا وصررنا وبقجنا وحقائبنا وأسبتتنا وأقفاصنا. نعبر من فوق السقالة تارة، ونخوض فى الماء الضحل أخرى.أبى ساعد أمه على الصعود وأنا حملت جدتى لأمى وخضت بها الماء ورفعتها إلى المركب وأمى صعدت بأصغرنا السقالة. كان الجو بارداً، والسماء أوحت بأنها ستمطر، لكنها لم تمطر. ما إن صعدنا بالكاد حتى صعدت بعدنا أسرة عبده وِتْ وِتْ إلى المركب.

اللنشات كان وضعها صعباً جداً. حوافها تماستْ والماء ومنها أتتنا أصوات وصياحات مبهمة ومختلطة. لولا مهارة ريس المركب لصار حالنا كحال تلك اللنشات. أمر الريس برفع السقالة وفك الحبل، وإذ نقلع سمعنا صراخ طفل وليد يأتى من اللنش القريب منا، بينما ظلت طائرة مروحية تحلق فوقنا. فى قلب البحيرة رأيتُ جنوداً حمر الوجوه بالشَدَّة

الكاملة والسلاح رابضين فى أعشاب عدد من الجـزر والمراحـات، ولم تفارقنا الطائرة إلا فى الماء البعيد، فوزعتْ أمى علينا وعلى عائلة عبـده وِتْ وِتْ الفراخ المطهوة وأعطتْ المراكبى ورجاله بطتين.

لحظة رؤيتنا للبر الغريب أجهشت أمى، ثم انخرطت فى بكاء دامع طويل حتى ظننتُ أن دموعها الهاطلة على الـ"دِرِل" الصـوفى قـد اختلطت بدم.

رَسَوْنا فى قرية اسمُها "النسايْمة"، وتجمعنا وسائر المهـاجرين لفتـرة جاءت بعدها سيارة نقل حمَّلنا عليها أمتعتنا مع أمتعة الآخرين، وتكدسنا كلنا فوق أمتعتنا، لتتحرك بنا السيارة صوب المنزلة حيث كان الزحـام أكثر والاضطراب أشد، وحيث افترقنا عن أسـرة "عبـده وِتْ وِتْ" وركبنا سيارة أخرى باتجاه محافظة دمياط. وحدث ما لا يمكن أن أنسـاه طيلة حياتى، فقد فوجئتُ قبالة إحدى القرى بصياح، وفلاحين ينـادون على السائق ويجرون وراء السيارة وبأيديهم شماريخ. ظننت أن السيارة دهمت خروفاً أو عنزة أو دجاجة ففزعت من المصير، لكن لمَّـا أوقـف السائق السيارة إذ بفلاحين وفلاحات يقبلون علينا ويرفعون إلينا، ونحن فوق الأمتعة المكدسة، صوانى عامرة بخليط من الأغذية عجيب.. مازلت أذكر المشهد.. "عيش درة مرحرح"، وبيض مسـلوق، وأرز بـاللبن، وقُـرَص، وجبنة قريش، وجزر، وفجل، وجرجير، وكـرات، وبصـل أخضر. كانوا يرجوننا أن نأخذ منهم. سمعتُ أمى تقول:

"معانا خير ربنا والحمد لله".

كانت تقصد بواقى الفراخ المطهوة والبط، لكن الرجاءات الكثيرة جعلتها تستجيب وتأخذ منهم، وتعطينا، ونلتُ رغيفـــاً مرحرحًا عليه قطع من الأرز بلبن وعدة أعواد من الفجل والجرجير والبصل الأخضر، وترقرقت عيناى بدموع الامتنان.

توقفت بنا السيارة عند قرية "العدلية" وسكنّا فى بيت ترزى عربى اسمه "شواش"، وعرفتُ أننا هاجرنا إلى هذه القريـــة لأن جـــدتى لأبى تنتمى إليها؛ وما إن استقر حالنا حتى توجه أبى إلى رئاسة عمله بهيئـــة قناة السويس بالإسماعيلية حيث وضع نفسه فى خدمة المجهود الحـــربى، وما عدنا نراه إلا فى أيام الخميس والجمعة، لتتولى أمـــى مهمـــة إدارة شئون الأسرة أغلب أيام الأسبوع.

~*~

سأسمح لنفسى بانعطافة يسيرة لأتحدث عن تأثير وجـــودى فى قريـــة العدلية هذه علىّ وعلى مدركاتى، وأرجو ألا أشط أو أطيل.

بداية.. "العدلية" ليس هو اسم القرية، التى حللنا فيها الأصـــلى، اسمُها الأصلى هو "العادلِيّة"، نسبة إلى "الملك العادل" الذى عســـكر جنودُه مكانَها وقت أن كان الأيوبيون يحاربون الصليبيين.

مع قصر المدة التى قضيناها فى العدلية، وضـــيق مســـاحتها، مقارنـــة بمدينتى، فقد تفتحت أمامى وأنا فى هذه القرية آفاق معرفية هائلة الاتساع.

فيها نَما وعيى بما يحق وصفه بالطفرة الهائلة، وأدركتُ أشياءً كـثيرة مـا كنتُ لأدركها فى هذه السن الباكرة لولا انتقالى إليها. مما أدركته معارف قد تبدو الآن شديدة التفاهة، لكنها كانت نافعة ومفيدة للغاية وقتها.

إنها المرة الأولى التى أعرف فيها الفرق بين الفلاحـين والريـف، وأتمكن من التمييز بين البادية والريف والحضر، وأتفهم أسباب التدرج الهرمى للتجمعات السكانية ما بين قرية، مركز، وعاصمة.

إنها المرة الأولى التى أعيش فيها على ضفة نهر النيل، أغمس فيه قدمى، أمتطى ظهره، وأعابث كائناته من أسماك وطيور وطحالب وديدان.

فى هذه القرية استوعبتُ بسرعة الفرق بين النهر، الريّاح، الترعة، والقناية. هى أول مرة أعيش فيها وسط حقول حقيقية؛ وأشترى اللبن "من بِزّ الجاموسة إلى الكسرولة مباشرة"؛ واقتلع اللفت من الغيطـان؛ وأصطاد القراميط بيدىّ من الترعة، وأشكها مع البياض والبلطـى فى خيط واحد.

فى هذه القرية عرفتُ أنه يمكن أن يكون للشيء الواحد أكثر من اسم فالـ"بلى" الزجاجى الذى نلعب به يمكن أن يسمى "كـَـظْ"، والـ"بسطة" يمكن أن تكون "مصطبة"، و"الحقل" طبيعي أن يكـون "غيطـاً". وهناك "الشكمة"، والـ"دروة"، والـ"دوار"؛ وإذا كنـت أعرف من كتب المطالعـة "السـاقية"، فهنـاك الـــ"شـادوف"، والـ"طنبور"، والـ"نورج"، والـ"مِدْرَة". شجرة التوت على ضـفة

النهر شجرة توت حقيقى، توت يشبه الفراولة وما هو بفراولة؛ وهذه الغليظة شجرة جميز بحق، جميز يشبه التين البرشومى وما هو بتين برشومى؛ وهذه المائلة بأغصانها وأوراقها صوب الترعة شجرة صفصاف تحب ماء الترعة فتدلى شعرها وتغمسه فيه؛ أما هذا الصفير وذلك الدق فمصدره بابور الطحين، حيث الحركة والمشنات والأجولة والبياض الذى يغطى ملابس ووجوه العاملين فيه.

يا إلهى.. كل هذا كنتُ أجهله؟

فى بورسعيد نفرش الحصير لكن ليس بالكثافة المستخدمة فى العدلية. نستخدم القلل للشرب كنوع من الزينة أو للتليل على الأصالة ومن "فات قديمه تاه"، لكنها هنا جزء أساسى لا غنى عنه فى الحياة اليومية. لدينا "أَزْيار" لكنها فى الغالب توضع فوق الأرصفة لشرب العابرين، أما فى "العدلية" فهى داخل البيوت فى الحمام والمطبخ وبجوار أماكن تناول الطعام. لا يخلو بيت فى بورسعيد من بوابير الجاز، عادية أو "بعدَّة ساكتة"، لكن فى العدلية بوابير الجاز قليلة جدًا، والاعتماد الكبير إنما يكون على الكوانين. بعض من مقاهى بورسعيد تضاء بالكلوبات، ولمبات الجاز نمرة عشرة ونمرة خمسة تضىء القليل من البيوت، أو يُحتفظ بها كاحتياط لانقطاع الكهرباء، وفى العدلية الكثرة الكاثرة من البيوت والدكاكين والمقاهى والمساجد لا الكلوبات ولمبات الجاز هى مصدرها الوحيد للإضاءة الليلية.

وحدث أننى رأيتُ مكواة ملابس لم أرها قبلاً فى بورسعيد.. المكواة التى أعرفها هى مكواة بابور الجاز، أما ما رأيته فى العدليـــة فمكـــواة الفحم، فوق البلاطة الحديدية الملساء لهذه المكواة فراغ له فتحات تهوية جانبية وغطاء بترباس يُفتح إلى الأعلى، يوضع فيه جمر الفحم، ليعمل على تسخين البلاطة.

اكتشفتُ فى العدلية أن بقاليها يبيعون شيئًا غريبًا اسمـــه "ســـكر البلاط".. كتلة ضخمة من السكر تكسر بالشاكوش، فى بورسعيد لا توجد عجيبة سكر البلاط هذه، كل ما عرفته فيها من الســـكر هـــو السكر الناعم والسكر المكنة (المكعبات) والسكر البودرة، والســـكر النبات.. أما سكر البلاط هذا فهو ما لم أذقه أو أشاهده قبل مجيئى مع أسرتى إلى العدلية، لذا ما إن تنقدنى أمى قرشًا حتى أهرول إلى البقال ليعطينى قطعة من البلاطة..

وشاهدتُ فيها العمدة وشيخ الخفر والخفراء والفلاحين المـــدقعين الذين كنتُ أشاهدهم فى أفلام السينما، شاهدتهم وعايشتهم، وشاهدتُ وعايشتُ عبيط القرية، المبروك "أبو ريالة"، والدجال لابـــس العبـــاءة الخضراء والعمامة الملفوفة أدوارًا أدوارًا، المتمتم بالمفهوم وغير المفهوم من الكلمات والعبارات؛ وبحثتُ ــ أنا الصبى الغريب ــ مع الباحثين عن حرامى البط. وعن البنت والولد اللذين اختفيا من بيتيهما.

كانت قرية فقيرة فى ذلك الوقت، حتى إن سكانها كانوا يملحون الطماطم الخضراء و"كـبَر" اللفت، وقشر البطيخ ليأكلونه (!). كم تألمت لهذا الاكتشاف، لكن قوة الحياة كانت تقودنى إلى مزيد من الاكتشافات.

فى العدلية عرفتُ حيوانات لم أرها فى بورسعيد. لا.. ليس الجاموس، والبقر، والخراف، والماعز، والجمال فقط؛ ولا حتى الفئران، والقطط، والكلاب؛ وإنما العرِس، والقنافذ، والضفادع، والغربان، وأبو قردان، والزنابير، وأفراس النبى؛ وأنواع لا حد لها من البعوض؛ ومن الأبراص والسحالى؛ وسمعت حكايات وحواديت عن الذئاب والثعالب والضباع والثعابين والوطاويط.

الأفران البيتية كانت مبهرة لى بأقراص "الْـجِلّة" التى يُلقى بها إلى فوهاتها، ونكات الفلاحات وثرثراتهن أثناء اللـتّ والعجن والخـبْز، القاعة لذيدة الدفء ونحن فى الشتاء، وما أجل المكوث فوقها، وما أروع الـ"حَنُّون" الملهلب اللذيذ الذى يخرج من الفرن إلى أفواهنا بعد أن "يشعوط" أكفّنا، و"عيش الدُّرَةْ" المرحرح الكبير الذى تحفظه أمى فى قفص جريد معلق بالحائط. فى بورسعيد لا يوجد عيش كهذا. العيش فى بورسعيد جميل هذا صحيح، لكنه بلدى وفينو وشامى، ونحفظه فى العياشة أو فى النملية.

الراديو هو عجيبة العجائب. لم أر منه سوى سماعاتى الأذن اللتان ما إن أثبتهما على أذنى حتى تأتينى برامج الإذاعة.. أسأل:

"فين الراديو؟"..

فيضحكون.. واكتشف أنه غير السماعتين مكون من مجرد إبرة وقطعة يسمونها كهرمان وسلك.

هل هناك فى مكان كهذا ما يفضل التأمل؟.. هنا مروج خضر، وفى مدينتنا براح أزرق.. كم هما جميلان الأزرق والأخضر.

يوقظنى من تأملاتى صفير القطار الفرنساوى. قطار نركبه بالمجان لأننا مهاجرون. يأتى من المنصورة ويتجه إلى دمياط، قبل أن يمر بقريتنا يمر بمركز فارسكور. قطار غريب.. شىء من مخلفات القرن التاسع عشر. لعله القطار الأول الذى عرفته مصر فى عهد الوالى محمد على.. غريب بمظهره المضعضَع.. ببطئه الشديد.. بدخانه.. أضع على قضيبيه الطين فيتزحلق وتدور عجلاته فى مكانها ويتأبى على استئناف المسير إلا بعد أن يترل الكمسارى ومعه رمل أصفر جاف. يزيح الطين ويرش الرمل فيعاود المسير بينما يسارع الكمسارى بالقفز إليه.

بالقطار وبغيره، وأحيانًا كثيرة على قدمى، كنتُ اتجه إلى دمياط لأتفسح فى شوارعها، وأتمشى فوق الكوبرى الحديدى، الواصل بين ضفتى النيل، فى وسطه كنتُ أتوقف لأتأمل ماء النهر.. "أنا الآن فى وسط النيل"، أقول هذا لنفسى متباهيًا،ثم أمشى فى الشارع التجارى مستنشقًا الروائحَ الذكية المنبعثة من محلات العطارة وأتباطأ فى سوق الجمعة وأدخل سينما اللبان، شاهدت فى هذه السينما أفلامًا كثيرة أذكر

منها فيلم "ليالى الحب" لعبد الحليم حافظ وآمال فريد، بمشاركة الكبار المتكررين فى أغلب الأفلام: سراج منير، عزيزة حلمى، عبد السلام النابلسى، صلاح نظمى، وداد حمدى، والممثل القديم محمد عبد القدوس، وإنْ أَنْسَ فلا أنسى أغنية "يا سيدى أمرك.. أمرك يا سيدى"، والعلقة السخيفة التى نالها صلاح نظمى بخيزرانة عبد الحليم حافظ فى حمام السباحة؛ وأتذكر كذلك أننى شاهدتُ فى هذه السينما فيلم "القلب له أحكام" لفاتن حمامة وأحمد رمزى، وعبد السلام النابلسى وعبد الفتاح القصرى وزينات صدقى واستيفان روستى. والصراع الاجتماعى الناشب بين حيى الزمالك (الراقى) وبولاق (الشعبى) من خلال قصة الحب التى ربطت بين أحمد رمزى (ابن الزمالك) وفاتن حمامة (ابنة بولاق) ما زال عالقًا بذهنى منذ شاهدت هذا الفيلم فى هذه السينما.

من فرط حنينى إلى بورسعيد كنت أذهب إلى دمياط، لكننى بكل الأحوال كنتُ مفتونًا بالطبيعة الخلابة ونمط العيش فى قرية العدلية.

فرحتُ بالتقائى فى قرية العدلية بابن حارتى فى بورسعيد، صديقى وزميلى فى ذات المدرسة الإعدادية (مدرسة الجمهورية ــ فؤاد سابقًا)، "حامد مرسى الناغى". اكتشفتُ أن علاقة قرابة تربط بين أسرته وأسرتى، من ناحية جدتى لأبى، فسرنى هذا كثيرًا؛ وبت أصطحبه معى إلى دمياط. طبعًا الذهاب إلى دمياط كان يتم خلسة ودون استئذان من أهلينا. طريقنا المفضل هو تلك المساحة المُمَهَّدَة

المحاذية لقضيبي القطار الفرنساوى، فهى أقصر وأسلس، وييسر لنا المشى فوق الفلنكات الخشبية بعضًا من المرح.

ذات عودة من دمياط، أمطرت السماء فابتلت ملابسنا ابتلال الغرق، وعلق الطين بحذاءينا، وإذ بالقطار الفرنساوى يجىء من دمياط فى طريقه إلى المنصورة، وإذ بأخي الكبير (على) وأخيه الكبير (محمود) ـــ معًا ـــ فى العربة الأخيرة فشاهدانا، وكانت لكل منا العلقة التى هى علقة.

هل كنتُ أحلم بأن أكون عالمًا بيولوجيًّا، أم هو الفضول لا أكثر؟..

لا أعرف..

فقد صرت أصطاد الفراشات وأقبض على الصراصير والخنافس وأثبتها فى الجدران المبنية من الطوب اللبِّن بالدبابيس عاملاً على استكشاف تفاصيل أعضائها، أو أجففها فى الشمس لأحتفظ بها وأطبق ما فى كتب العلوم عليها حال عودتى إلى مدرستى الإعدادية ببورسعيد، لكن النمل أبى علىّ تحقيق حلمى، وما من مرة إلا استولى فيها على ما أصطاده، غير تارك لى سوى أجزاء من الأجنحة المتيبسة المتأرجحة حول الدبابيس المغروزة فى الحوائط.

انتقلتُ إلى الضفادع، فصرت أصطادها من القنايات وأقلبها على ظهورها وأقوم بتشريحها، وأعرض على الأولاد أعضاءها، وأذكر لهم أسماءها ووظائفها. أخى "رمضان" (رحمه الله) كان مبهورًا بما أفعل،

فصار يقلدنى؛ وانتقلنا ـــ أنا وهو ـــ إلى فكرة التحنيط، فأخذنا بعـــد تشريح الضفادع نحشوها بالملح ونتركها فى الشمس، وبالليل ندخلها البيت؛ وحدث أن رأت أمي ما نفعل فصرخت فينا:

"وَلَهْ انتَ وهو.. بتعملوا إيه؟.. مش حرام اللى بتعملوه ده؟!".

من فورنا أخرجنا ضفادعنا إلى "الشكمة" ونحن نهتف:

"خلاص يا ماما.. خلاص يا ماما".

لّما جاء الصباح لم نجد ضفادعنا. سألنا فأجاب الأولاد:

"تلاقوا العِرْسَة أكلتها".

وعجبنا لهذه العِرْسَة التى تأكل الضفادع المملحة (!)

لم تستقبل العدلية مهاجرين من بورسعيد فقط، وإنما استقبلتْ أيضًا مهاجرين من الإسماعيلية والسويس. من له أقرباء بها جاء إليهم. طبعًا مهاجرو بورسعيد كانوا الأكثر، أسرتى آخر من وصلها، لأننا لم نهاجر إلا بعد اختطاف مور هاوس كما ذكرتُ قبلاً. أولاد وبنات المهاجرين علّموا أولاد وبنات القرية ألعابًا جديدة وأغنيات جديـــدة، وأولاد وبنات القرية علّمونا ألعابهم وأغنياتهم.

"بسيمة" مهاجرةٌ من الإسماعيلية فى مثل سنى أو أقل قليلاً (كنت وقتها قد سلختُ من عمرى إحدى عشرة سنة ونصف السنة). هـــى بنت جميلة، رشيقة، خلعت عنها فساتين المدينة وارتـــدت جلاليـــب القرية، فى مساحة بعيدة عن دوار العمدة كنا نحكى لبعضنا حكايانا عن

مدننا التى خرجنا منها مضطرين. أحكى لهم عن مشاهداتى ومعايشاتى فى بورسعيد وعن اللوحات التى طمستُها والشعارات التى شاركتُ فى كتابتها، وهم يحكون عن استحكامات الجيش المصرى فى الإسماعيلية والسويس. كانت أوقاتنا أوقات جد ممزوجة باللعب. من ألعابنا لعبة التماثيل، وهى ببساطة لعبة ندور أثناءها أو نجرى على إيقاع كفّي المُحَكّم، فإن توقف المُحَكّم عن التوقيع ثبتنا فى أوضاعنا، أية أوضاع نكون عليها، نثبتُ فى وضع صنمى يضارع الأحوال التى تكون عليها التماثيل، من يتحرك يخرج من اللعبة، فإذا ما كان الثبات هو حال الكل؛ فللمُحَكّم أن يتحرك داخل الحلبة وينظر فى أعين اللاعبين، ومَن يرمش يخرج مِن اللعبة. كنتُ أحب هذه اللعبة لأننى عند توقف المُحَكّم عن التوقيع بكفيه كنت أضع نفسى موضع ماسك كفّ "بسيمة"، أو محتضنِ "بسيمة". شاهدتنا أمها ذات مرة فشكتنى لأمى التى هددتني بإبلاغ أبي حين يجيء من الإسماعيلية.

"بسيمة" أشعرتنى بذكورتى، هذا ما اكتشفته. بعدها ضبطتُ نفسى تتابع النسوة والفتيات وهن يشمرن عن سيقانهن ويغسلن المواعين على ضفة النيل، أو وهن يمشين ممشوقات بالجرار المائلة فوق رؤوسهن.

~*~

كنتُ مستريحًا لوجودى بالعدلية، لكن أمى لم تكن كذلك، فقد فقدت الخصوصية التى كانت تتمتع بها فى بورسعيد، فبعد سكنانا فى عمارة مقصورة علينا هناك، ها نحن نعيش هنا فى حجرتين ملحقتين على أسرة أخرى، حجرتان فى بيت من الطوب اللبن، مسقوفتان بالخشب وبتلال من قش الأرز، حجرتان تجمعاننا كلنا، وتشاركنا فيهما الحشرات والزواحف والقوارض. مهما فعلتْ أمى، ومهما غطتْ فإنّها تدخل وتخرج أنّى شاءت. لذا ظلتْ أمى فى حالة ذود دائم عنا وعن أطعمتنا وملابسنا.

صارت أمى تشارك فى جلسات الخبيز، وإن نقص الجاز تطبخ على الكانون. تستخرج الماء بالمضخة؛ والمكنسة المصنوعة من ليف النخل لا تكاد تغادر يدها، فالأتربة تترسب على الأرض باستمرار، وباستمرار تكنسها. معدلات اتساخ ملابسنا زادت فنحن فى الشتاء وشوارع القرية فى حالة "روبة" شبه دائمة وحوادث سقوطنا فيها كثيرة، لذا فالطشت مكتظ بملابسنا وبرغوة صابون "رضوان".

وضع جديد لم تعهده أمى.

العبء بات كبيرًا فعلاً، تتحمله وحدها أغلب أيام الأسبوع، لا تساعدها سوى أمها جدتى "بدر"، أما "أم السعد"، جدتى لأبى، فلا تقدم يدًا ولا قدمًا. عندما يجيء أبى من الإسماعيلية يكون أحوج ما يكون احتياجًا إلى الراحة، لذا تجتهد أمى ألا تقلقه بالشكوى.

وهناك الهم الرئيس الذى لم يغادرها منـــذ وصـــولنا إلى العدليـــة المرتسم علاماته على محياها، فهى شديدة القلق على مـــدينتنا وعلـــى عمارتنا وعلى الناس الموجودين هناك.

"إزاى قللينا عقولنا وسيبنا بورسعيد؟".

كانت تنطق بهذا السؤال فى جلستها مع أمها بين حين وحين.

وكانت تتسقّطُ أنباء ما يحدث هناك من مقاومة ومن مظـــاهرات وتصرفات لقوات الغزاة أو للقوات الدولية عـــبر سمـــاعتى الراديـــو المسحور ـــ أو عبر الجرائد التى كان أبى يأتى بها كل خميس وجمعة.

دورها الاجتماعى الذى كانت تؤديه فى بورسعيد لم يغادرهـــا فى العدلية، فكانت السيدات يأتينها للتسامر أو لطلب خدمة من خدماتها، كأن تعلمهن التفصيل والتطريز، أو يسألنها عن كيفية عمل المربى من فاكهة الموسم أو طريقة طبخ أكلة بعينها؛ وبدأ الأولاد والبنات المرضى والمصابين بالدمامل والخراريج فى التوافد إلى حيث نسكن. كانت تعطى ورق الجوافة لأم الطفل الذى يكح وتقول لها:

"اغليه واسقى الميه للولد يومين تلاتة وربنا يشفيهولِك".

أما صاحب الدمامل فكانت تعاين دماملة. الدُّمَّلُ "اللى اســـتوى" تفقعه بمهارة متفادية طرطشة الصديد على ملابسها أو ملابس أمه، ثم تعكف على إخراج "أم القيح" حتى لا يتكون الدمل مرة أخـــرى، ثم تطهره بالسبرتو الأبيض وتضع عليه الميكروكروم وتضمده وتنصح أمه

بتغيير الضمادة كل فترة حتى يندمل؛ أما الدمل "اللـــى ماســـتواش"، فكانت حسب الأحوال إما أن تضع فوقه ورقة خروع، أو أن تدهنـــه بالـــ"مرهم الأسود" قبل أن تضع فوقه ورقة خروع، وتقول لأمه:

"هاتيه معاكِ بعد يومين أو تلاتة بالكتير".

وحدث بسبب رعونتى أن أصبت بالأكزيمـــا وتـــبرقش جلـــدى بالالتهابات وردية اللون والشكل، فاصطحبتنى أمى مـــن فورهـــا إلى دمياط. كانت هذه هى المرة الأولى التى تخرج فيها أمى من العدلية إلى دمياط. وصف لى الطبيب مرهمًا للدهان ومزيجًا للشرب.

لم ترجع بى أمى إلى العدلية، وإنما ظلت تسأل عن مكان مدرســـة حكومية إلى أن وصلنا إليها بعد لأيٍ. كانت قريبة من سوق الجمعـــة الذى اشترت منه موزًا وبرتقالاً وتمرًا. عند خروجنـــا مـــن الســـوق أفهمتنى أننا ذاهبان لزيارة خالتها أم عبده وأسرة ابنتها فاطمة نصـــير. كانت المدرسة مخصصة للمهاجرين، وتعبنا من السؤال حتى استدللنا إلى الفصل الذى تقيم فيه أسرة أم عبده، ويا لها من صدمة صدمناها.

كان الفصل الذى أخلى من "التُّختَـــتْ" مزدحمًا بالأسر المهـــاجرة. الأسر وأغراضها. ومع أن الباب كان مفتوحًا هو وكل الشبابيك، فقد كانت الرائحة فجة من فرط الازدحام. المراتب مطوية ومفرودة أو لا وجود لها من الأساس.. الذكور بجوار الإنـــاث، والكبـــار محـــاطون بالصغار.. تفصل بين الأسر ملايات وبطاطين، وثمة بوابير جاز وحلل

بها طبيخ، خبز "مفرفت" وقشر بصل جنبًا إلى جنب أوعية قضاء حاجة الصغار. طفل يقضى حاجته فى وعائه، رضع يصـــرخون، وأمهـــات تصرخن وأطفال يمرقون من بين الأمتعة ويتواثبون من فوق الســـيقان المفرودة على الأرض.

وعثرنا على "أم عبده" وأسرتها، ويا له من لقاء امتزجت فيه فرحة اللقاء المباغت بالحزن على سوء الحال.. و"فين أيام العز فى بورسعيد؟"، و"آدى المقدر والمكتوب"، و"الصبر من عندك يا رب".

لَمَّا خرجنا من المدرسة كانت أمى تجاهـــد دموعهـــا، وفى بيتنـــا بالعدلية سمعتها تحمد الله قبل أن تقول لنينا بدر "اللى يشوف بلوة غيره تهون عليه بلوته".

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى خرجت فيها أمـــى مـــن قريـــة العدلية، فقد خرجت بصحبة أبى ذات إجازة "مع العيلة واللمة" لزيارة أسرة عمى "كمال" بقرية "الشُّعَرا" الأقرب إلى دميـــاط مـــن قريتنـــا العدلية.

بيت عمى "كمال" كان أفضل من بيتنا فى العدلية، فهو مبنى مـــن الطوب ومكون من طابقين، وبَرَاح.

أذكر أن عمى عزمنا على أكلة "حنشان"؛ فأبت أمى إلا أن تقابل العزومة بعزومة. أحضر أبى "وقارًا" فاخرًا وخضروات وفاكهة، لكـــن أمى رأت الـــ"وقار" قليلاً. لَمّا لم تجد أخى "على" كلفتنى بأن "أخطف

رجلى" إلى دمياط لأشترى من سوق الجمعة تكملة السمك "وقارًا" فإن لم أجد فـ"دنيسًا" أو "لوتـًا"؛ ثم أُعرِّج إلى الشارع التجارى وأشترى "سحلبًا" وأعطتنى فلوسًا كثيرة؛ وفعلتُ. بسرعة ذهبتُ وبسرعةِ أتيتُ، فرضيتْ عنى أمي ودعتْ لى.

فجأة جاءنا أبي من الإسماعيلية مبتهجًا وقال:

"ياللا.. حانرجع بورسعيد".

زطنا وهيصنا و"زقططنا"، وانْهمرت دموع أمي وجدتيّ و "يا مـا انت كريم يارب"، و"الصبر آخرته خير، و"بورسعيد وحشْتنا يا أولاد".

واستعدادًا للرحيل تم تطعيمُنا ضد الأوبئة فى قصر قديم مُقام شرقيّ القرية.

أمي جابرة الخواطر.. تركت الحِيـوان وطقم السفرة والملاعـق وأشياء كثيرة لأسرة شواش، وبالبوس والأحضان ودّعنـا مضـيِّفينا والجيران وأسرة الناغى، وأنا ودعت من التقيتهم من أصحابى، ولهفتُ قبلةً من خَدّ "بسيمة" ثم هرولتُ لألحق بأسرتى وعربة الأمتعة.

ركبنا القطار الفرنساوى وهبطنا فى المنصورة لنركب قطارًا عاديًا هبطنا منه فى الزقازيق، ومن الزقازيق استقللنا قطارًا آخر إلى بورسعيد حيث اتجهنا إلى معسكر الجولف للعزل الصحى وإثبات البيانات؛ ولّما كان بيتنا لا يزال سليمًا وكنا قد تطعمنا فى العدلية فقـد سمـح لنـا بالخروج من المعسكر والعودة إلى بيتنا.

يااااه.. والله سلامات يا بورسعيد.

كانت رائحة الموت تفوح من شوارع المدينة، ومع هذا فالوجوه التى التقياناها، ونحن نجر ما تبقى من أمتعتنا، فى طريقنا إلى بيتنا كانت فَرِحَةً مُستبشرةً.

~*~

حل موعد تجنيدي (١٦ من ديسمبر ١٩٦٥م.)، فدعت لى جدتى لأمى:

"يِعمى عنّك العزيز المتين، عنين وإيدين العدوّين".

بينما قال لى أبي وهو يمسك مِنكبيَّ ويهزنى مختبرًا صلابتي:

"الجيش مدرسة الرجولة، وإوعاك تبكى قدام زمايلك".

وعلى عكس الأمهات فى هذا الموقف، قالت لى أمى:

"اللى ما تعلمتوش مننا أو من المدرسة أو الوظيفة، حاتتعلمه من الجيش".

لكم دعوتُ ربى، قبل تجنيدى فى القوات المسلحة، ألاّ أحارب فى اليمن بالرغم من يقينى بأن نهضة هذه الدولة التعيسة، الغاطّة فى التخلف، لن تكون بغير دعم ثورتها (٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م). كان عدد الجنود المصريين الذين يحاربون فى اليمن إلى جانب الثوار الجمهوريين عبدالله السلال وعبد الرحمن البيضاني ومعاونيهما قد بلغ ٥٥ ألف

جندى، والدعم ــ كما تصورتُ وقتها ــ لا يكون إلا بتصدير ثقافة التنوير إليها وليس بإرسال القوات؛ ومع هذا فقد نظمتُ بعض القصائد ــ أو فلنقل شبه قصائد ــ أشد بها من أزر أصدقائى الذين أرسل بهم إلى جبال اليمن. تأسس رفضى للمحاربة فى اليمن على حرمة قتال المسلم للمسلم، وعثرتُ فى القرآن الكريم على ما يتيح دعمى لأصدقائى المحاربين، باعتبار أن جيشنا إنما يحارب فئة باغية رافضة ليس فقط للتقدم وإنما أيضًا للصلح. "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ" يضاف إلى هذا أن من الدول المعادية للثورة اليمنية دولتين عربيتين محافظتين هما: السعودية والأردن؛ ودولتين استعماريتين هما: بريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية.

كنتُ مشوقًا لمحاربة الصهاينة، واسترداد فلسطين السليبة والصلاة فى المسجد الأقصى، وتمنيتُ أن يحدث هذا فى فترة تجنيدى المحددة للمجندين من حملة المؤهلات المتوسطة وهى عام ونصف العام، لذا كنتُ أتوجه بوجهى شطر سيناء لا اليمن.

لكم كنتُ متفائلاً(!)

بعد الفحوص الطبية والاختبارات الثقافية فى معسكر الانتقاء والتوزيع بمنطقة تجنيد التل الكبير، أُلحقتُ بسلاح المشاة، وتلقيتُ تدريباتى بمعسكر الأساس رقم ٤ بالمعادى جنوبى القاهرة؛ وعند توزيع

دفعتى حلّتْ بركة أسرتى فلم أذهب إلى اليمن، لكننى أيضًا لم أذهب إلى سيناء؛ وإنّما وُجّهتُ إلى هيئة التنظيم والإدارة بالمنطقة العسكرية المركزية بالعباسية، التى ألحقتنى بمعسكر الانتقاء والتوزيع بمنطقة تجنيد التل الكبير، نفس المنطقة التى استقبلتنى أول أيام تجنيدى.

أول أفرول استلمته قامت أمّي بـ"تأييفه" بيديها ومقصها وماكينة الخياطة الـ"سنجر"، لذا لم يكن فقط محبوكًا وعلى مقاسى، لكنه كان أشيك أفرول فى دفعتى. كل أفرولاتى كانت تقوم بـ"تأييفها". وكل أوبة من إجازة كانت تُحَمِّلُنى بما طَهَتْهُ لى ولزملائى من لذيذ المأكل، وما أعدته من طيب المشروب.

فى معسكر الانتقاء والتوزيع أتيح لنا الحصول على تصريح مبيت يومى فاستأجرت بـ"أبو حماد"، أقرب مدينة إلى التل الكبير، أنا وزميل لى من دمياط اسمه "السيد عبد الوهاب السيد البغدادى" من دمياط شقة فى بيت من طابقين يملكه رجل اسمه محمود أبو عيساوى بمبلغ خمسة جنيهات. أثثنا الشقة بجريد النخل. السرير والمقاعد والترابيزة، كلها من جريد النخل، وكان بـ"أبو حماد" حرفيون مهرة فى صناعة الأثاث من هذه النوعية. المرتبة هى الأخرى كانت من خيش أجولة البطاطس والحشو من الـ"كارينا" التى تحشى بها الأرائك، قام المنجد بتوضيبها كأفضل ما تكون عليه المراتب. أمى زودتنا بالملاءات والبطاطين، وبالمخدات والشلت المحشوة بالقطن، كما زودتنا بالكليم

الذى فرشناه على الأرض وببابور جاز وبراد للشاى وعدد من الحلل والأكواب. بلصق بعض الصور المنتزعة من المجــلات لطــه حســين ومصطفى لطفى المنفلوطى وعبد الحليم حافظ، وبِرَصٍّ بعض من كتبى وأوراقى على رف اصطنعته، وبمرآة ثبتناها فوق الحوض، صارت لدينا شقة كاملة التجهيز.

مالك الشقة كان يمتلك أيضًا طاحونة فى البعيد تحمل اسمه، وكانت له ابنتان، تهبطان بالأكل إلينا أحيانــًا، ربما للظفر بأحــدنا عريسًــا لإحداهما. وكان بالبيت جَدْىٌ يكاد ينطق، إن جئنا مَأْمَأَ كأنه يحيينــا، وإن انصرفنا مَأْمَأَ كأنه يودعنا، يطرق بابنا ليوقظنا، وإن كان واقفــًا أمام باب الحمام ورأى أحدنا قادمًا بالفوطة أفسح له المكان. يوم ذبح وقدموا لنا لحمه مطهوًا أبيتُ أن أتذوقه.

أمى صارت تُحَمِّلنى هداياها لعائلة أبو عيساوى سمكــًا مشــويًا وسردينًا مملحًا.

وصارت تباركنى وتدعمنى بالمال فى مواقف بعينها كــأن أكــون بصدد شراء حصير لمسجد وحدتى العسكرية، أو هدايا لمن وفقنى الله إلى محو أُميّتهم فى المعسكر، أو بعض مما يعوض جنديًا احتــرق مــنزل أسرته فى القرية.. التفاصيل كثيرة أثب فوقها إلى الحادثة الأهم، ليس فى حياتى وحيوات أمى وأبى وأفراد الأسرة فقط، وإنما فى حياة مصــر والدول العربية جمعاء، وأقصد بِها هزيمة يونيه ١٩٦٧م. وهل هناك ما هو أهم من هذه الهزيمة؟

نعم هى هزيمة فعلية.

فى عموميتها هى هزيمة عسكرية لا هزيمة شعبية، وفى خصوصيتها هى هزيمة للقيادة العسكرية العليا، لا للجنود والقيادات الوسطى والدنيا؛ والسبب إنما يرجع إلى أن إرادة الشعب وجنوده، وقطاع كبير من قيادات الجيش الوسطى والدنيا لم تنكسر. والحروب فى جوهرها صراع إرادات.

كانت إسرائيل قد أكثرت فى بداية العام ١٩٦٧م. من تحرشاتها العسكرية مع سوريا لعل أكبرها ما كان فى السابع من أبريل عندما أسقطت إسرائيل ست طائرات سورية من طراز ميج ٢١، ولَمّا كان مارس من ذات العام قد شهد إعادة تفعيل اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا، وإزاء استمرار الاستفزازات العسكرية الإسرائيلية لسوريا، فقد دفعت مصر فى ١٥ من مايو بحشود عسكرية إلى سيناء وأعلنت حالة الطوارئ فى اليوم التالى، وفى اليوم الذى يليه طلبت سحب قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة UNEF لأنها موجودة فى الجانب المصرى دون الجانب الإسرائيلى، ولمواجهة الحشود العسكرية الإسرائيلية بصحراء النقب أعلنت القيادة المصرية بعد نحو أسبوع حالة التعبئة العامة واستدعتْ قوات الاحتياط وأغلقتْ مضيق تيران أمام السفن الحاملة للعلم الإسرائيلى والسفن المتوجهة إلى إسرائيل بمعدات حربية.

بروح الجند، كاتب الدراما، المتعاطى مع الشعر، توزّعت نفسى شَعاعًا وأنا أرقب المدافع والدبابات وناقلات الجنود المنقولة بشحومها من مخازنها بمعسكرات التل الكبير إلى سيناء بواسطة القطارات الحربية. قطارات عديدة يحفها الزهو والفخار.

طلبتُ من قائد معسكر الانتقاء والتوزيع، لعل اسْمه كان عمر الفاروق، نقلى إلى سيناء. راجعنى:

"إنت ناسى إنك خارج على الاحتياط بعد شهر ونص فى دفعة يوليو اللى جاى؟".

"وفيها إيه يا فندم؟".

"فيها إنه ما ينفعش".

كنتُ متوهِّمًا أن الحرب الوشيكة مع إسرائيل لن تستغرق سوى أسبوعين على الأكثر.

"حاول يا فندم".

"طب اكتب طلب ونشوف إيه اللى حايحصل".

وكتبتُ الطلب.

ولا أحسبه قد رفعه، فقد انهمرت سيول جارفة على منطقة التل الكبير وسيناء لدرجة أن الهناجر والمكاتب فى معسكر لانتقاء والتوزيع ــ معسكرى ــ أغرقت، والأرض انجرفت، والأشجار اقتلعت هى وقضبان وفلنكات السكك الحديدية، وانهمكنا جميعًا جنودًا وضباطًا فى نزح مياه السيول لأيام.

أوقفتْ تصاريح المبيت، فلم نعد نذهب إلى "أبو حماد"، وغبنا عن بيت محمود أبو عيساوى، لانشغالنا بحفر الخنادق البرميلية والمتعرجة فى المعسكر. كانت الأجواء أجواء حرب بالفعل، لذا لم نندهش لازدحام السماء بالطائرات فى أول ضوء من يوم الاثنين الموافق الخامس من يونيه، لكننا دهشنا لأنها كانت طائرات العدو. جاءنا خبر مقتضب: طيران العدو قصف مطار الجلاء القريب، فأصابتنا غُمّةٌ.

الغُمّة أنتجتْ غُصّةً، والغُصّة أورثتْ صُداعًا، والصداع منعنى من النوم حتى فى غير أوقات نوبتجيات الحراسة.. ما الذى يحدث؟.. أبحث عن إجابة أو إجابات عبر راديو الترانزستور المعلق فى سونكى البندقية. أحمد سعيد يؤكد عبر إذاعة صوت العرب أننا نكبد العدو خسائر فادحة.

فجأة جاءتنى الإجابة الصحيحة.

"إبراهيم عبد الله".. دفعتى فى التجنيد، وزميلى فى ديوان عام محافظة بورسعيد. رأيته واقفًا أمامى. لا.. لم يكن "إبراهيم عبد الله" هو الواقف أمامى، لقد كان الشقاء متقمصًا هيئته. الأفرول كامل متكامل. الشدة كاملة. البيادة "أم رقبة" مزمومة الرباط، الجَرَبَنْديّة فى مكانها؛ فى القايش البلطة، الزمزمية، وجراب الذخيرة؛ سلاحه على كتفه، الخوذة فوق رأسه، وفوق الخوذة الشبكة وبعض أوراق الشجر.. لكن وجهه ليس هو وجهه.. هو وجه رمادى، متغضن ، العينان غائمتان، غائرتان،

عفار فوق رموشه وفوق حاجبيه، وفوق شعر فَوْدَيْه؛ أما الشفتان فجافتان، شديدتا الدُّكْنَة متشققتان، حمرة الدم تطل من شقوقهما وإلى الزوايا قشور كقشور الأسماك. ما بين هاتين الشفتين والرقبة كفه ممسكة بقالب "فولية" لا هى مرتفعة باتجاه الفم ولا هى هابطة باتجاه الجنب.

"إبراهيم".

"قاسم".

وارتمى كل منا فى حضن الآخر.

لم أكن فى حاجة لسؤاله فقد فهمت.. يا للوعة.. هل يمكن...؟!

قال "إبراهيم" دون أن أسأله:

"ميتين كيلو يا قاسم.. ميتين كيلو فى الصحرا".

ونادى عليه صوتٌ آمرٌ، فتركني لِلّوْعة وانصرف.

*

انهمرتْ على المعسكر عائدةً الدباباتُ والمدرعاتُ حاملات الجنود بالجنود. شتان بين الذهاب والإياب.. بين الفخار والانكسار. إنْهاك، تَحسُّر، عصبية، وغضب شديد. جنود الاحتياط بجلابيبهم ما زالوا، البنادق والطبنجات فى الأكف. عربات الحرب الكيماوية حطّتْ وأحيطتْ بمجنزرات وعربات جيب ومخابز ميدان وأوناش.. طاقم

الانتقاء والتوزيع لم يعد طاقمــًا للانتقاء والتوزيع.. مشاجرة بين عدد من الضابط وعدد من جنود الاحتياط.. شتائم ثم تصويبٌ للأسلحة فى وجوه بعضهم البعض من فوق المدرعات ومن داخل العربات الجيب. جندى صوب خرطوم قاذف اللهب تجاه مجموعة من الجنود. صرخنا ــ نحن أفراد طاقم الانتقاء والتوزيع ــ فيهم. نبهناهم إلى أنهم فى ضيافتنا. مشيرًا إلى فناطيس الحرب الكيماوية حذرتهم من الخطر المحدق.

"لو إن طلقة خَرَمَتْ فنطاس، فقولوا يا رحمن يا رحيم على الكل".

فى البعيد أصوات قصف وطلقات مدافع الــ"م/ط" تزغرد وتثقب ملاءة الليل. فى هذا الجو المدلهم دخلت أفق المعسكر طائرة للعــدو.. ميراج.. من ورائها صاروخ مصرى يطاردها. صــمت المتشــاجرون وصوبوا بنادقهم وطبنجاتهم.. صوبها وأطلقوا.. أى جنون هذا؟.. لحق الصاروخ بالطائرة وفجرها فى الجو، فتساقطتْ شظايا وحممًا من لهــب خارج المعسكر، ليتحول صياح التشاجر إلى تكبير وتهليل واحتضان.

~*~

دخلت ميس الضباط لقضاء أمر. كان هذا فى اليوم التاسع مــن يونيه، وكان الميس خاليًا من الضباط والجنود، مع هذا كان التليفزيون مفتوحًا على نشيد بلادى بلادى بصوت محرم فؤاد. شدنى من النشيد:

".. مصرْ أنتِ أغلى دُرَّة

فوق جبين الدهر غُـرَّة

يا بلادى عيشى حُـرَّة

واسلمى رغم الأعادى

.....

مصـر أولادك كرامْ

أوفيـاء يرعوا الزمامْ

للعلا إلى الأمامْ

ويَّا ناصر يا بلادى."

وتكرر النشيد عدة مرَّات ثم ظهر جمال عبد الناصر، فجلست على مقعد استمع إليه. كانت المجنزرات خارج الميس تهز الجدران والكراسي.. الكرسيَ الذى أجلس فوقه وكل الكراسى.. شيء واحد لم يهتز.. إنّها الأهرام الثلاثة التى تشكل منديل جيب سترة عبد الناصر على هيئتها. كنت متعكرًا جدًا، ومتوجسًا للغاية. وأملت أن يُكـذب عبد الناصر ما أشاهده وأعايشه. قال كلامًا عن رسالةِ تحذير من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "ليندون جونسون" من بدء مصر للضربة الأولى، وتحذير مماثل من السفير السوفيتى.

أمر منطقى وممكن.. لكن من غير المنطقى أو الممكن ما سمعتُ عبد الناصر ينطق به "ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدونى عليه: لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أى منصب رسمى وأى دور

سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدى واجبي معهـا كـأى مواطن آخر".

اهتزتْ أطرافى وكثر خفقان قلبى فيما ظلتْ الأهرامات الثلاثة ثابتة فوق صدره وهو يعلن تكليفه لزكريا محيى الدين بتولى منصب رئـيس الجمهورية. كلامه كان واضحًا، صادمًا فى وضوحه. هُزِمْنا.. هُزِمْنا.

كان من الممكن أن أكف عن متابعة الخطاب المؤلم وأغادر الميس، لكننى آملتُ فى أن يفاجئنى عبد الناصر بخبر ينفى الهزيمة على الجبهات الثلاث مصر وسوريا والأردن، فمكثتُ فوق مقعدى مُمدَّدَ الأطراف مرتعشَها إلى أن أنهى خطابه المفزع بتأكيده على أن الساعة ساعة عمل وليست ساعة حزن.. عندئذ خرجتُ مـن المـيس وإذا بنوبـة مـن التشنجات اكتنفنى وأسقطتنى أرضًا فانكفأ علىّ زملائى وسحبونى إلى حافة خندق وراحوا يكبّرون فى أذنيّ ويقرأون آيات من القرآن الكريم ويدسون فى قبضتى ما يكتشفون وجوده فى جيوبهم من مفاتيح. وما إن خَفَّـتْ نوبة التشنج وامتلكتُ القدرة على تحريك لسانى والتحكم فى حنجرتى حتى طفقتُ أجأر بأعلى صوت "إدونى سلاح.. ودونى سينا.. أنا مواطن كريم.." ورحتُ أكررها وزملائى يَحتضـنوني ويُنَهْنِهـون بالبكاء، ولّما لامستْ دموعى شفتىّ وتذوقتُ طعمها المالح. بـرز لى أبي معاتبًا "جرى إيه يا قاسم؟!.. مش قلتلك إياك تبكى قدام زمايلك؟!".

~*~

غابت أمي من كل هذه المشاهد.. فأين هى من كل هذا؟..

لا.. لم تغب.. لا هي غابتْ، ولا أمهات المصريين جميعُهن غِبْنَ؛ فهي وهُنّ أساس هذه المشاهد، وهى وهن محيطها، وهى وهن فى الصدارة منها. نحو ١٥٠٠٠ جندى مصرى ضحوا ما بين شهيد ومفقود، عشرات المئات من المصابين، و٤٣٣٨ أسيرًا.. مَنْ أنجبَ وربَّى وعلَّمَ وقدَّمَ هؤلاء لافتداء الوطن؟.. ألسن سائر الأمهات المصريات وفى القلب منهن أمى؟..

كل أبناء "هانم قاسم محمد إبراهيم" الذكور ارتدوا الكاكى، سبعة من الأبناء قدمتهم لمصر ودفعتْ بهم إلى ميادين الافتداء راضية قانعة. جميعهم حمل السلاح فى أوقات عصيبة شديدة الالتهاب. فى وقت واحد، ما بين خدمة إلزامية وخدمة احتياطية قدمت بذات النفس القانعة الراضية خمسة منهم إلى ميادين الشرف.

أيّ قلب كنت تحملين يا أمي؟

أعلم أنك كنت تتهافتين على أبنائنا، وأن نفسكِ كانت تذهب شعاعًا إثر كل خبر عن تفجير أو مقتلة، لكنكِ كنتِ دائمًا تتصالبين وترفعين بصرك إلى السماء داعية بالخير والسلامة لنا والهلاك والدمار لعدوك وعدو مصرنا.

الوقتُ وقتُ حربٍ يا أمى، والحرب كـــرب.. الكـــرب الـــذى تشعرينه وتَحْذَرينَه وتتحملينه إنْ وقع.. أحسب القادة، وإنْ كانوا فى حمية المقاتلة، يجهلون ما تعلمينه عن كنه الحرب وماهيتها.

الحرب ضرورة وأنتِ تدفعين الثمن.

~*~

لم يقم الفريق أول محمد فوزى بعد تعيينه قائدًا عامًّـــا للقـــوات المسلحة بدلاً من المشير عبد الحكيم عامر بُعَيْدَ الهزيمة مباشرة (١١ من يونيه ١٩٦٧م) بجمع شتات الجيش المصرى المبعثر وإدارة معسكرات الشاردين فحسب، وإنما قام أيضًا بالمهمتين الأهم ألا وهما إعادة بنـــاء الجيش (بسد النقص الذى أحدثته الخسائر البشرية، والاعتماد علـــى الجندى المؤهل تأهيلاً علميًا، وتزويد الجيش بالتكنولجيا المتطورة، مـــع التخلص من القادة المنسوبة إليهم الهزيمة) ومواجهة العـــدو فى نفـــس توقيت إعادة البناء.

المهمتان عويصتان، وقد اســـتلزمتا تغـــييرات هيكليـــة فى بنـــاء الوحدات العسكرية.

حدث فى ذات عام الهزيمة (١٩٦٧م) أن رجحتْ الكفة المصرية فى ميزان العمليات العسكرية بانتصار قواتنا فى معركـــة رأس العـــش جنوبيّ بورسعيد (الأول من يوليو)، وبإغراق زورقين بَحريّين مصريّين

للمدمرة الإسرائيلية "إيلات" فى مياه البحر المتوسط شماليّ بورسعيد (٢١ من أكتوبر)؛ وكم كان أبي بليغًا حينما فسر لى، فى أول إجازة ميدانية أحصل عليها، سر هذين الانتصارين الباكرين وقال:

"أمك، ثم أمك، ثم أمك.. ثم بقية الأمهات والآباء".

~*~

لما كانت دفعتى بصدد الانتقال إلى الاحتياط فى يوليو ١٩٦٧م. وكان الفريق أول محمد فوزى يقوم بإعادة بناء الجيش وتنفيذ تكليفات عبد الناصر له، فقد استُبقِيَتْ الدفعة، ثم نُقلنا فى نوفمبر من ذات العام إلى وحدات أخرى.

قبيل ترحيلنا من طاقم الانتقاء والتوزيع، أقمنا نحن الجنود حملة المؤهلات المتوسطة حفل وداع بسيط، وحرصنا على التقاط صور تذكارية تجمعنا قبل الفراق، أذكر منهم: شريكى فى مسكن "أبو حماد" الدمياطى "السيد عبد الوهاب البغدادى"، وابن العريش "محمد محمود سليمان الشريف"، والشرقاوى ابن قرية طاروط " حسن إبراهيم حسن منصور"، وابن قرية العلوية من أعمال الزقازيق "حسينى السيد هاشم"، وابن المنزلة دقهلية "على عزازى محمد عيد"، وابن الصعيد "الأمير عثمان جاد الكريم". وشاركنا الحفل الرقيب أول "عبد المنعم عبد العزيز سالمان" من دماص التابعة لميت غمر دقهلية، والجندى مجند "السيد السيد سليمان" (الأسماء دقيقة لكونها منقولة من ظهر الصور).

وكم كان مشهد الفراق دراميًا لم يَخلُ من دموع مترقرقة.

كان من نصيبى الانتقال إلى قيادة الجيش الثانى فى منطقة تمركزها ببساتين الإصلاح الزراعى بالقصاصين. كليومترات قليلة تفصل بين القصاصين والتل الكبير، لكن شتان بين حالى فى المكانين. الرغد الذى كنت أرفل فيه تحول إلى شظف. بعدما كنتُ أبيتُ فى مسكن "أبو حماد"، صرتُ أبيتُ داخل "ضلع هايك". اليوم كله كد وتعب. بالنهار طوابير تدريب وتمام، وبالليل نوبتجيات وسهر وحذر من مفاجآت القادة وحكمدارية النوبتجيات. الماء شحيح، نأتى به من طلمبة قرية بعيدة عن موقع تمركزنا فى جراكن كثيرة الثقوب، نسدها بالصابون ومع هذا يسيل فى الطريق فلا نرجع إلا بالنذر اليسير الذى يكفى بالكاد للشرب، أما الأغراض الأخرى التى لا تُقضى بغير الماء فلها مصادر الرشح بالغيطان. عرفتُ مكانًا للرشح طيبًا لكونه واضح الانحدار، فكنتُ أقوم بالاستنجاء فى أسفل المجرى المنحدر ثم اتجه إلى أعلاه لأتوضأ.، ومن مجارى الرشح ما كنا نقصرها على غسيل الأفرولات.

فى طوابير التدريب لم أستعدْ فقط كل ما تدربتُ عليه فى الأساس رقم ٤ مشاة وإنما تخطيتُه، فصرتُ أطعن شيكارة الرمل وأديم الأرض بالسونكى وأديره قبل أن أنزعه. زحفتُ من تحت الأسلاك الشائكة وقفزتُ من وسط اللهب. تدربتُ على كيفية تضميد الجروح وحمل

المصابين والقتلى فوق ظهرى، وكيف يمكننى أن أعيش يومًا بطوله بلا طعام أو ماء، وصرتُ أعرف إن نلتُ نصيبًا من الماء بمقدار لا يملأ غطاء الزمزمية كيف أستفيد منه أقصى استفادة..

ودرجةً فدرجة تحول قاسم، المُنـــعَّم فى جيشه، إلى المقاتل قاســـم مسعد عليوة.

~*~

نُقلْتُ إلى البحيرات المرة حيث منطقة فايد العسكرية، وصـــرتُ أحرس الضفة الغربية للبحيرات فى الجزء المتاخم لمدينة فايد. الضـــفة الشرقية بعيدة بعض الشىء. أراها بتعرجات كثبالها الرملية، لكننى لا أتبين دقائقها.. ربما هناك ثمة بقع داكنة لكننى لا أميز هويتها، أجام من شجر تندر أسباب وجوده هى، أم ظلال تلول، أم حصون للعـــدو؟.. الصفرة هى الأعم.. صفرة تنم عن نعومة الرمل المنفرش أمامى حـــتى أفق السماء. إنها أرضنا المقدسة المحمرّة بدمائنا. هذا المـــاء الـــلازوردى الشفاف المنفرش، فيه أيضًا حُمرة من دماء من حفروا القنـــاة الـــتى تتوسطه؛ والسفن التجارية المحتجزة منذ الهزيمة بطـــات هاجعة فـــوق الأديم اللازوردى المنبسط (نحو ١٤ سفينة ظلت محتجزة بالمجرى الملاحى لقناة السويس بامتداد البحيرات المرة منذ هزيمة ١٩٦٧م. حتى إعادة الافتتاح فى العام ١٩٧٥م). الضوء نافذ إلى القاع الرملى. ثمة صخور

وكتل أسْمنتية قليلة متناثرة هنا وهناك ومتجمعة بالقرب من نادى الضباط.

صخور وكتل مطحلبة، والطحالب خضراء وحمراء. منها أخذنا ننتزع محار "السرنباق" لنأكله. جربتُ فى غير أوقات الخدمة الاستحمام فى البحيرة، كانت مياهها شديدة الملوحة، مُرة فعلاً. التحفز المجسد فى صور آدمية كان حالى وحال زملائى. البندقيةُ المعبّأة بالرَّصاص و"السونكى" الْمُشْرَعُ والخَوْذَةُ التى لا تفارق رأسى. الخطر المحتمل نُحِسُّ به ونبحث عنه. ماذا لو خرج ضفدع عدو من ماء البحيرة؟.. ماذا لو عبر مجموعة من كوماندوز العدو البحيرة بقارب مطاطى فى هذه الليلة المعتمة؟.. ربما لا يجيئون حيث أقف، حيث المدينة والناس والحركة. قد يأتون من البعيد.. من الشمال أو من الجنوب حيث المسطح المائى أضيق ويقظة السكان أقل. أخيرًا أنا بالجبهة، بل فى الخط الأول من الجبهة.

هل سيأتى وقت أتمكن فيه من العبور إلى سيناء ؟

فى الخلف البيوت والمدنيون القليلون، وطريق المعاهدة. شرقى الطريق سينما فايد العسكرية وأحسبها دار السينما الوحيدة بفايد وقتها وكم شاهدتُ عروضها. أغلبها كان لأفلام سوفيتية تدور حول الحرب العالمية الثانية وبطولات المعسكر الشرقى فى الميدان العسكرى وصمود ومآسى الأهالى المدنيين، وأشهد أنها كانت أفلامًا عالية

المستوى مضمونيًا وفنيًا، أما غربي الطريق فعـدد غـير قليـل مـن المعسكرات هائلة الاتساع، لعل من أهمها معسكر تـدريب الضـباط الاحتياط ومستشفى فايد العسكرى، وكانت وقتها مجرد عنابر وهناجر وغرف أفقية، وهناك كذلك مطار فايد الحربى الشهير.

فى مهمة استهدفت معاينة المطار لإعادة تأهيله دخلتُ مع ثُلّة من ضباط المحطة العسكرية هذا المطار، ويا للغصة التى لبدت بحلقى. جريمة كبرى ارتكبت بحق الوطن بالعدد الرهيب المدمر من طائرات الميج ـ ١٩ والميج ـ ٢١ والسوخوى ـ ٧. صفوف متراصة مـن أسمـاك معدنية مبقورة أحشاؤها متناثرة أسلاكها. ذهولى كان كبيرًا.. ألهـذا الحد كان التراخى؟.. ألهذا الحد كانت المباغتة؟ (قرأتُ فيما بعـد أن الإمكانات الرادارية كانت جدّ ضعيفة والمدفعية المضادة كانت مقيدة لزيارة مسئول عراقى كبير للمطار فى يوم الهزيمة الخامس مـن يونيـه ١٩٦٧م.).

من أجل تطبيق شعاره "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة".. عَيّنَ جمال عبد الناصر الفريق أول محمد فوزى وزيرًا للحربيـة فى العـام ١٩٦٨م. فصعَّدَ من حرب الاستنزاف التى أرى أن معركة رأس العش فى الأول من يوليو ١٩٦٧م هى بدايتُها الحقيقية.

وكان أن أُنشئتْ وِحدة عسكرية جديدة بمعسكر اسمه "معسـكر غزة" يقع غربيّ طريق المعاهدة قبالة قرية فنارة، وهو معسكر تابع لمحطة

فايد العسكرية، ولأننى مستبقَى بالقوات المسلحة ومعرَّضٌ للتسريح من الخدمة من وقت لآخر فقد أُلحقتُ وعدد من أمثالى بهذه الوحدة.

ما إن وصلتُ إلى المعسكر حتى صدمتُ بأمرين، أولهما أنه كان فى الأصل معسكرًا لتربية وتدريب كلاب الحرب (!) والثانى أنه مطلوب منا فور وصولنا إليه تحويله إلى سجن حربى ميدانى (!).

"سجن حربى ميدانى؟!"

"أيوه سجن حربى ميدانى".

يا لها من صدمة (!)..

آخر ما كنتُ أتصوره أن يكون هذا مآلي، أنا الرومانتيكى الحالم بتخطى قناة السويس إلى سيناء المحتلة.

بحسى الدينى تساءلتُ: هل أغضبتُ أمى، أبى، جدتى لأمى، أحد إخوتى؟.. هل ظلمتُ أحدًا، أو ارتكبتُ إثْمًا استوجب هذا العقاب؟

وصبرتُ مؤمِّلاً ــ ككل الجنود الْمُسْتَبْقَيْنَ ــ التسريحَ من الخدمة العسكرية بين عشية وضحاها؛ لكن لاَ عشية التسريح جاءتْ ولا ضحاها بان.

بدون إمكانات تقريبًا أسسنا السجن الميدانى، ولأن المعسكر الذى يحتويه ويحتوينا محاطٍ بالأسلاك الشائكة، وبه العادى مما فى المعسكرات من: عنابر وهناجر وغرف مكاتب وصِهريج للماء ومطبخ وحمامات وجراج ومخازنُ للوقود تحت أرضيته، فلم نتعب كثيرًا فى تجهيزه اللهم

فى أمرين. أولهما: تطوير مبنى السجن نفسه حتى يكون صالحًا للبشر، فزودناه بدورات للمياه وأبراج للحراسة، وأقمنا أمامه ملعبين أحدهما للكرة الطائرة والآخر لكرة القـــدم، وإلى جـــواره مزرعـــة صـــغيرة للخَضْراوات وفى البعيد عن المزرعة حديقة للزهور؛ وثانيهما: حفـــر الخنادق البرميلية والمتعرجة، بحكم ميدانيته، للاحتماء من الغـــارات، وملاجئ تحت الأرض للمبيت الليلى. وكان من نصيبى ملجأ أرضـــى أسسته وموهته وأضأته بالكهرباء وزودته بكل وسائل الاحتراز لـــئلا تنفذ منه نقطة ضوء فى أى وقت من أوقات الليل.

اضطلعتُ فى هذا السجن الميدانى، الذى شاركتُ فى تأسيسه على غير رغبة منى، بأكثر من مسئولية تتفق وميولى، منـــها مســـئوليات: التوجيه المعنوى، دفتر الأوامر، البريد؛ بالإضافة إلى إدارة المكتبة الـــتى أنشأها، وإمامة المصلين فى المسجد الذى زودته بمنبر خشـــبى بســـيط وفرشته بالحصير. وقد أسهم هذا بعضَ الإســـهام فى تخفيـــف وطـــأة وجودى فى هذه الوحدة؛ الإسهام الأكبر جاء من ثلاث نواح، الأولى: زملائى الذين صادقتهم وأحببتهم وصادقونى وأحبونى، الثانية: تفجـــر قلمى بالكتابات القصصية، الثالثة: احتدام حرب الاستنزاف واشتعال المنطقة بها.

لأتوقفْ عند الناحية الثالثة.

استمرت حرب الاستنزاف حوالى سنوات ثلاث، بدءًا من الأول من يوليو ١٩٦٧م. (معركة رأس العش)، وانتهاءً بالسابع من أغسطس ١٩٧٠م. (قبول جمال عبد الناصر لمبادرة روجرز لوقف إطلاق النار)، وكانت منطقة البحيرات منطقة محتدمة طوال مراحل هذه الحرب الثلاث (الصمود – حتى ١٩٦٨م)، (الدفاع النشط – حتى ١٩٦٩م.)، و(الردع – حتى ١٩٧٠م.). ولهذه المراحل تسميات أخرى.

فى مرحلة الصمود، كانت المدفعية هى الأداة الأساسية للمصريين ومعها عمليات دفع الدوريات والكمائن إلى الضفة الشرقية للقناة بكثافة نسبية، وفي مناطق متفرقة غير متوقعة، واستهدفت هذه العمليات: تدمير مواقع للعدو، خطف أسرى وأسلحة، وجمع المعلومات.

فى المقابل استهدفت القوات الإسرائيلية المناطق المدنية، وصعدَّت استخدامها للمداف والدبابات.

فى مرحلة الدفاع النشط الذى بدأ تحديدًا بالعملية هائلة الضخامة التى شهد إحداثياته يوم ٨ سبتمبر ١٩٦٨م، ذلك اليوم الذى يعد نقطة تحول رئيسية في تنشيط الجبهة. واشتملت أعمالُ القتال فيه على قصفات مدفعية هيأت مسرح العمليات لدفع دوريات إلى أهداف عسكرية إسرائيلية شرقيّ القناة حتى عمق ٢٠ كيلومترًا. واستُهدِفَ

فيها خطٌ "بارليف" ومواقع الصواريخ ٢١٦مم. و٢٤٠ مم. ومواقع المدفعية والشئون الإدارية ومناطق تمركز الأفراد. وتكررت مثل هذه العمليات غير مرة، من أشهرها عمليات يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٨م. البطولية، فما كان من العدو إلا أنْ دبَّرَ لعملية ذات غرض سياسى، وهو تأليب الشعب على جمال عبد الناصر، وأنفذ طائرة هليكوبتر وقوة من المظليين يتكلمون العربية بطلاقة إلى نجع حمادى، لكن الغرض السياسى لم يتحقق.

حوالى ٤٠ ألف قذيفة من قذائف المدفعية المصرية انهمرت على حصون خط بارليف فى بداية مرحلة الردع، وبالتحديد اعتبارًا من ٨ مارس ١٩٦٩م. كان أكبر حشد نيرانى مدفعى مؤثر منذ حرب يونيه ١٩٦٧م وعاضدت المدفعية الدبابات الثقيلة.

شهدت هذه المرحلة عمليات عبور عديدة، من أشهرها العملية التى نفذتها الكتيبة ٣٣ صاعقة بعد ظهر يوم ٩ من مارس ١٩٦٩م. (أى فى رائعة النهار) جنوبى البحيرات المرة وتتالت عمليات السدك والعبور وإغارات الطائرات والكمائن النهارية والليلية وجلب الأسرى والأسلحة والاستيلاء على المواقع ورفع العلم المصرى والدفاع عنه مما كبد العدو خسائر جمة وأثر على معنويات جنوده؛ وبهدف استرداد هذه المعنويات قام بعدد من العمليات الانتقامية أغلبها إعلامى وقليلها موجع.

منها عملية القصف لمنطقة نمرة ٦ بالإسماعيلية يوم ٩ مارس ١٦٩٦م. تلك التى استشهد فيها الفريق عبد المنعم رياض، وغير قصفه العشوائى لمدن القناة، أغار على: محطة محولات نجع حمادى ـــ ٢٩ أبريل ١٩٦٩م، والجزيرة الخضراء ـــ ١٩ يوليو ١٩٦٩م، الزعفرانة ـــ ٩ سبتمبر ١٩٦٩م، جزيرة شدوان ـــ ٢٢ يناير ١٩٧٠م؛ مذبحة مصنع أبو زعبل ـــ ١٢ فبراير ١٩٧٠م، مذبحة مدرسة بحر البقر ـــ ٨ أبريل ١٩٧٠م؛ وما من عملية من هذه العمليات إلا كان الرد المصرى عليها سريعًا ومؤلمًا.. ولا تُغْفَل العمليات الهجومية والكمائن المحاذية لضفة قناة السويس الشرقية كعمليتى لسان التمساح ١ ولسان التمساح ٢ انتقامًا لاستشهاد الفريق عبد المنعم رياض وكمائن شرق البحيرات المرة؛ وفى العمق العميق لسيناء كعملية تدمير الطريق بين الطور وشرم الشيخ؛ وفى العمق العميق كعمليات ميناء إيلات الثلاث ١٩٦٩م. ـــ ١٩٧٠م.

أما إغارات الطائرات من الجانبين فكانت شديدة الكثافة، هم لديهم طائرات: ميراج، سوبر مستير، سكاى هوك، ثم الفانتوم، ونحن لدينا طائرات: أليوسن، السوخوى، الميج ١٧، ثم الميج ٢١. كانت المعارك الجوية معارك ضروسًا بالفعل. أذكر أنه فى يوم واحد شنت إسرائيل فى منطقة البحيرات المرة ٤٨ غارة جوية، وشاهدنا عمليات

المطاردة من طائراتنا لها.. انقضاض ومرواغة، ارتفاع وانخفاض، وانثناء والتفاف.

كانت لإغارات العدو فى منطقتنا أهداف كثيرة، لكــن الهــدف الرئيس هو تحيطم حائط الصد الصاروخى الشهير الواقع خلفنا، وظلت الطائرات تستهدف رادارًا فى جبل شبراويت حتى تفحمت قمة الجبلَ ولم تنل منه. (حدث أن صَعِدَتُ هذا الجبل لأطمئن على حال الــرادار فقبض عليَّ أفرادُ من المخابرات العسكرية، لكنهم سرعان ما أطلقــوا سراحى بعدما تأكدوا من هويتى محذرين من تكرار التجربة).

عايشتُ الموت فى منطقة البحيرات العديد من المرات.

إشـــارات :

* ميلاد أبي ٢ يناير ١٩١٧م.
* وفاة أبي ٢٥ يوليو ١٩٨٠م.
* تُوُفِّيَتْ جدتي.. "بدر علي خميس" يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٨٥م.
* ميلاد أمي ٢٨ فبراير ١٩٢٠م.
* وفاة أمي ٢٠ يوليو ٢٠٠٨م.



صورة أم قاسم عندما كانت تعمل بالتدريس



صورة أم قاسم في طريقها إلى أداء فريضة الحج

مُحتـــوى الكتـــاب

"أمي إنسانةٌ ككلّ البَشر.

هذا صحيحٌ..

لكنّها أيضًا غيرُ كل البَشر".

هكذا وَصف قاسم مُسعد عليوة أمّه. وهو وَصْفٌ غالبٌ على تصوّراتنا عن الأمهات، لكنّ أمّ قاسم عليوة هنا.. هي "الكتابُ"، وهي في الوقت نفسه "المُعلِّمةُ"، وقُلْ كذلك "المَدْرسة".

سيُدرك مُطالعُ هذا الكتابِ أنّ الأمّ هنا تخرجُ من ضِيق مفهوم الوظيفية البيولوجية والحضور الفيزيقي، وأن الابنَ يتعدّى الوقوعَ في أَسْر العُقدة التاريخية لأوديب والتصور النمطي عن الأمّ، ليُفاجئنا بنموذج امرأةٍ صانعةٍ للرّجال، ومؤسِّسةٍ راعيةٍ بحسّها الخاص، للمُثقّف العضويّ (الذي كانَهُ قاسم عليوة بالفعل) فقد ترك لنا سَرْديّةً من مَسرودات "السِّيَر الذاتية" التي يتداخل فيها تاريخُه الشخصيّ بتاريخ المرأة الأكثر تأثيرًا في حياته، فهو من ثَمّ كتابٌ يَغبطُ قارئُه كاتبَه، ويأسَفُ أحدنا إذْ لم يأتِ بمثله.

فقاسم عليوة يخلق من الشخصية النسائية التي هي "إنسانةٌ ككلّ البشر" أسطورةً تَلُوح من وراء الخيال؛ لتُؤسِّس وعيَ كاتبنا، وتبثُّ في وجدانه حقائقَ الوجود خارجَ أُطُر التزييف، وتخلقُ من روحه كيانًا رَحْبًا، مُتسامحًا، مُحبًّا للحياة، مُعليًا القيم الإنسانية، مُ... بقضاياه الوطنية، مُستميتًا في الدفاع عن قناعته الخاصة...

في هذا الكتاب "هانـمْ" حقيقيّةٌ في تحرُّكها الإنسانيّ والحـ... تكتنزُه المُفردة من موروث الثقافة الشعبية، وما تحمله مـ... تُحوّلُ الأمّ التي تحملُ اسمَ "هانم" إلى أفضية الدّلالة والمجا... الآسر الذي جعل الصبيّ اللاهي المَحيَّرَ شريدَ الحضور.. رحـ... مفكّرًا جسورًا مُتأمّلًا كاتبًا ذا حضورٍ إنسانيّ راقٍ.. سار بيننـ... يحمل اسم "قاسم مسعد عليوة".

الغلاف: د. خالد سرور





www.gocp.gov.eg

الثمن: أربعة جنيهات